

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

## مَجَلَّةُ إِسْلَامِيَّةٍ جَامِعَةٍ

العدد الثاني والستون • السنة السادسة عشرة • صيف سنة ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص. ب: (٨٩٤ - ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (0098251)

موقعنا على الانترنت

[WWW.ahl-ul-bayt.org](http://WWW.ahl-ul-bayt.org)

البريد الإلكتروني للمجلة: [Tahrir-thaqalayn@hotmail.com](mailto:Tahrir-thaqalayn@hotmail.com)

البريد الإلكتروني لإدارة المجلات: [Bc@ahl-ul-bayt.org](mailto:Bc@ahl-ul-bayt.org)

## محتويات العدد

### □ كلمة التحرير

#### \* ثقافة التكفير وموقع رجال الدين منها

..... هيئة التحرير ٤

### □ من أريج القيادة الحكيمة:

#### \* علماء الدين رواد الإصلاح والتطور، في كلام القائد

الخامنئي دام ظلّه

..... إعداد: أحمد الحسن ١١

### □ دراسات فكرية:

#### \* الحياة السياسية الشيعية، مقاربة في تجربة

الإمام الرضا عليه السلام

..... أ. نبيل علي صالح ٤١

#### \* المباني الفقهية للمقاومة المسلحة، أسس ومبادئ

ومقومات

..... ش. مُحَمَّد مهدي الآصفي ٨٣

#### \* دفاع عن هشام بن الحكم، دراسة تحقيقية في

الأحاديث التي اتهم فيها بالتجسيم والتشبيه

..... ش. يحيى الدوخي ١٠٠

### □ من وحي المناسبات

#### \* الإمام جعفر الصادق عليه السلام، إطلالة موجزة على

حياته النورانية المشرقة

..... ش. علي محسن ١٢٦

- تعنى بالدراسات والنتائج الفكرية، خصوصاً التي تصب في خانة الدفاع عن حريم القرآن الكريم والنبى ﷺ الأمين، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.
- تستقبل رسالة الثقلين نتاجات العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:
  - ◀ أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجيةً ومضموناً.
  - ◀ أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.
  - ◀ أن لا تكون عملاً مكرراً، بل لا بد أن تحتوي على شيء من التجديد والحدثة. والأولوية دائماً للدراسات الفكرية المستحدثة.
  - ◀ أن لا تتقص عن عشر صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصفحة الواحدة تتضمن (٢٥٠) كلمة.
  - ◀ أن تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحة واحدة.
- الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة.
- تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنية محضة.
- لا تعاد المقالات المرسلة إلى المجلة، نُشرت أم لم تنشر.



المجمع العالمي لأهل البيت

المشرف العام

الشيخ محمد حسن اخري

تصدر عن

المعاونية الثقافية - إدارة المجالات

رئيس التحرير

الشيخ معين دقيق

مدير التحرير

الشيخ علي محسن

العدد الثاني والستون

السنة السادسة عشر

صيف سنة

١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م

المطبعة: إسراء - قم

٠٠٩٨ - ٢٥١ - ٦٦٤٤٥٤٨ ☎

\* فاطمة بنت موسى بن جعفر عليه السلام، إطلالة على  
السيرة العطرة

..... إعداد: لجنة المناسبات الدينية ١٦١

\* الانتصار الإلهي في لبنان، قراءة في الدلالات  
السياسية والتجليات الربانية

..... ش. يوسف موسى رضا ١٧٠

□ وجهة نظر:

\* الشيعة والسنة وإشكالية الحكم

..... د. أحمد راسم النفيس ١٩٠

\* من المتهم بالإساءة إلى الإسلام؟!

..... أ. هلال آل فخر الدين ٢٠٨

□ مقالات مختارة:

\* المشكلات الأخلاقية المنتشرة في المجتمعات  
الإسلامية المعاصرة، وسبل علاجها

..... أ. زهراء محمد مرادي ٢١٤

□ متابعات متنوعة:

\* المسجد الأقصى: قبلة المسلمين الأولى، دراسة

إحصائية وإطلالة تاريخية

..... إعداد قسم الأرشفة ٢٣٢

\* بيان المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام حول صعدة

..... المجمع العالمي لأهل البيت ٢٥٠

\* منوعات

..... ٢٥٤

## ثقافة التكفير

### وموقع رجال الدين منها

مختصرة



لم نعد ندري كيف، وبأية طريقة يمكن للنائمين في أمّتنا الإسلامية والعربية أن يستيقظوا من سباتهم العميق، بل من موتهم البارد المقيت؟! لم نعد ندري أيّ لسان وأيّ أسلوب هو القادر على مخاطبتهم، وإقناعهم، أو على الأقل، على مجرّد التواصل معهم؟

كنّا نعتقد: أنّ لغة التواصل فيما بيننا، هي لغة القرآن الكريم، الذي نزل بلسان عربيّ مبين، كنّا نعتقد أنّ رسالة السماء الخالدة هذه كفيّلة - لوحدها - بإخراجنا من ظلمات الغفلة إلى نور الحقيقة؟

ولكن، مع ذلك، فهذا نحن - جميعاً - نسمع ونقرأ قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ومع ذلك، فقد جعلنا العدوّ القادم من وراء البحار أخصاً وولياً لنا، وإن لم يُظهر لنا شيئاً من ودّه وحُسن صنّاعه! وجعلنا أخصاً في الدين والوطن، وشريكاً في المصير الواحد، عدوّاً لدوداً، وإن كان يُصنّف لنا الحبّ ويصرّ على عدم التخلّي

عنا!! فكيف أصبحنا لا نخجل من الجهر بالعداوة والبغضاء فيما بيننا؟! كيف لم يعد يُعيننا أن تُرفع رايات أعدائنا، أعداء الله تعالى، خفاقة فوق أراضينا وبلداننا؟!!

نعم، عار علينا، ما بعده عار؛ إذ أصبحنا هذه الأمة الممزقة المشتتة، يتربص أحدنا بالآخر شراً، وسيط مكرنا مسلطة على رؤوسنا، خيرنا - إن كان - فلغيرنا، وشرنا - وهو كائن - علينا..

وكل ذلك، بفضل ابتعادنا - أفراداً وشعوباً وأنظمة - عن القرآن الكريم وآياته، وعن حديث النبي ﷺ وعترته الطاهرة عليهما السلام، حيث لم تعد ثقافة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، موجودة أصلاً في خارطة طريقنا السياسي والثقافي والاجتماعي، ولم يعد لقوله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله»<sup>(١)</sup>، لم يعد له وجود - أصلاً - في لغة (بعض) فقهاءنا ولا في فتاوى (بعض) رجال الدين منّا، بل حلت محلها ثقافة أخرى سوداء فرضت علينا فرضاً، وهي ثقافة التكفير والتخوين وتوزيع التهم يميناً وشمالاً والتفجير والانتحار والقتل والخطف والنهب والسلب والغزو.. و..

نعم، نقرّ ونعترف بأننا في بادئ الأمر لم نأخذ بهذه الثقافة الهجينة عن طيب نفس، ولكن أظنّ أنه لا بدّ لنا من الاعتراف أيضاً، بأنّها - في وقت لاحق - قد راقّت لنا، وقد لاقت قبولاً واستحساناً عندنا، أو على الأقلّ عند بعضنا..

وما أكثر الأسباب التي جعلت هذه الثقافة (بل الجهالة) العمياء تسود وتتغلغل، ومن أهمّها وأبرزها: أنّ ثقافة المشروع التكفيري هي ثقافة لا تخاطب فينا الوعي، ولا تستدعي منّا إيقاظ الضمير، ولا تحثنا على تحمّل مسؤوليّتنا،

ولا تذكّرنا بكسلنا وتقصيرنا، ولا تُرينا مظهر خنوعنا وخضوعنا، ولا تُرينا الواقع المرّ كما هو، وعلى حقيقته، بل تصوّره لنا كما يحلو لأصحابها الذين صدّروها إلينا أن يتخيّلوه..

فثقافة التكفير - هذه - هي التي تجعلنا نغمض أعين بصيرتنا عن كلّ ما يجري في فلسطين المنكوبة، وفي الأقصى الجريح، من الجراحات والمآسي..

وثقافة التكفير هي التي تجعلنا نخلق صوت ضميرنا لو حاول أن يتأوّه لدى سماعه بخبر شابّ غزّاويّ في مقتبل العمر قُتل بنيران الحقد الصهيونيّ في داخل نفق ضيقٍ مظلم، وهو يحاول تمرير (تهريب) بعض المؤن الغذائية والسلع الأوليّة لشعبه المحاصر، الذي بات يعيش في سرايب وأنفاق تقع تحت خطّ الفقر بمسافات ومسافات..

ثقافة التكفير اللّعيّنة هذه، هي التي جعلتنا لا نذرف دموع الندم على القعود والتخاذل عندما يرى الواحد منّا أطفال فلسطين يسكنون العراء، ويأكلون ما لا يُسمّن ولا يُغني من جوع، ويشربون من مياه آسنة، ويتعلّمون في مدارس لا تقيهم صفوفها حرّاً ولا برداً، ولا تتوفّر لهم فيها أبسط المقومات والأولّيّات..

ثقافة التكفير هذه، تجعلنا - نحن حاملي لواء العربيّة ورافعي راية الإسلام - نفتخر بصداقةٍ صهيونيّة هنا، وعلاقاتٍ أمريكيّة مشبوهة هناك، تجعلنا نحول أنظارنا عن الخطر الصهيونيّ الداهم الذي يتهدّد أقصانا، وقبلتنا الأولى، ومصرى نبيّنا ﷺ، بل هي تجعلنا نراه - هذا الخطر - نسمةً ربيعيّة دافئة، في يومٍ مشرقٍ هانئ..

إذ ليس من شيءٍ مهمّ، بحسب أدبيّات هذه الثقافة، سوى أنّنا تمكّنا من تفجير مسجدٍ هنا، أو مرقدٍ وليّ هناك، أو ضريحٍ مقدّسٍ هنالك.. والمهمّ كلّ المهمّ، أنّ امرأةً ما، أو شيخاً، أو طفلاً، أو شابّاً، أو كهلاً، سنياً أو شيعياً، قد أريق دمّه واستبيحت حرّمته بتفجيرٍ (إسلاميّ)!! وعلى يد انتحاريٍّ (مسلم)!!

وبواسطة أداة قتلٍ (صهيونية)!!

والأغبي والأدهى والأنكى من ذلك كله: أن نطنّ بأنّ رسول البشرية، بأنّ رحمة الله إلى العالمين، ورسول الشريعة السمحاء، ذا الخلق العظيم، أن نزعّم بأنّه ﷺ ينتظرنا (بشوقٍ ولهفةٍ) في مكانٍ ما من الجنة، أو على أبوابها، ليسقينا كأساً من رحيقٍ مختوم، شكراً لنا، ومكافأةً على جهودنا (جهادنا !!) المبذولة في سبيل القتل والتكفير والإجرام واللعن والسبّ والشتم والحقد والغلّ والظلم و... أي: في سبيل قتل المسلم أخاه المسلم، وتكفير المسلم أخاه المسلم، وظلم المسلم لأخيه المسلم!!

لم تعد للمسلم المعاصر في زماننا هذا همٌّ إلاّ القضاء على أتباع الطوائف الأخرى، والحكم عليهم بالكفر والشرك، ولم يعد لبعض الفقهاء ورجال الدين همٌّ إلاّ ما يزعمونه من خطرٍ شيعيّ أو سنّيّ يفترسهم، أو انتشارٍ عربيٍّ أو فارسيٍّ يتربّص بهم، حتى كأنّ المسلمين في عصرنا هذا قد تربّعوا على عرش المؤسسات العالمية الكبرى في العلم والاقتصاد والسياسة والثقافة والأمن والنفط والتجارة والصناعة والطاقة و.. ولم يبقَ ممّا ينغصّ لهم مُلكهم العظيم هذا إلاّ رأي فقهيّ أو كلاميّ، شيعيّ أو سنّيّ، لا بدّ لهم من النهوض إلى محاربتة..

لم يعد (بعض) رجال الدين يرون في الانحلال والسفور والفساد الأخلاقيّ والاجتماعيّ خطراً يتهدّد الشباب المسلم، لم يعد الاستعمار الثقافيّ الذي تغلغل في بيوتنا فقضى فيها على كلّ مظاهر التدين، كإقامة الصلاة، وقراءة القرآن، لم يعد كلّ هذا يشكلّ تهديداً للحياة الأسريّة النقيّة التي يحرص عليها الإسلام، ولم تعد المسلسلات والأفلام الغربيّة والتركّيّة (الخليعة - الطويلة) سرطاناً مدمراً يتفشّى بسرعةٍ هائلة في عقول فتياننا وفتياتنا..

بل بات الشغل الشاغل لبعض المؤسسات الدينيّة - من ذوات الأفق الضيق المحدود - هو تحذير الآباء والأمّهات من كلام رجل دينٍ شيعيّ أو سنّيّ، هنا أو

هناك، قد يصل إلى مسامع أبنائهم أو بناتهم، فيؤثر فيهم تأثيراً ما، هو - على أبعد التقادير - تأثير أقلّ ضرراً بكثير من مظاهر الاستعمار الحضاري والثقافي الجديد الذي يصنّف بعضنا له، ويقف منه بعضنا الآخر موقف المتفرّج أو المتحرّس، بالرغم من علمنا - جميعاً - بمضارّه وعظيم مفسده، من جرّ أجيالنا وأولادنا إلى الخلاعة والمجون، وأخذهم إلى عالم الرذيلة والفحشاء، إلى التسبّب لهم بأمراض نفسية مُستعصية، وجعلهم من رجال العصابات ورواد السجون وغير ذلك ممّا لا يخفى..

ولو سلّمنا - جدلاً - بأنّ هناك نقاطاً مفصليّة لا زالت عالقة بين المذاهب والفرق الإسلاميّة، وبالأخصّ: بين السنّة والشيعة، فلماذا لا يتداعى علماء المدرستين إلى طاولة حوارٍ هادئة ومفتوحة، تحكمها الموضوعيّة والتوازن، وتسودها روح الأخوة الإسلاميّة والإيمانيّة التي تجمع بينهم؟!

وللأسف الشديد، فقد رأيناهم - بدلاً من ذلك - يسخّرون الفضائيات - (التي يُفترض أنّهم قاموا بتأسيسها خدمةً للدين الحنيف وإعلاءً لكلمة لا إله إلاّ الله) - ويستخدمونها لجلسات صياح وزعيق، يدّعون أنّها حوارٌ مذهبيّ، وهو أبعد ما يكون عن الحوار الذي نجده في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِأَلْسِنَتِهِمْ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ومنذ متى كان الحوار الانفعاليّ سمةً للعلماء؟! ومنذ متى كان الجدل المذموم صفةً لهم؟!

إنّ هذا الجدل المذهبيّ العقيم الذي شهدناه ونشهد على بعض الفضائيات الإسلاميّة في الآونة الأخيرة، ليس بعاجز عن إنجاز شيءٍ من أهدافنا الإسلاميّة فحسب، بل نرى فيه - علاوةً على ذلك - سلاحاً فتاكاً ومدمراً، لجهة ما يشكّله من تحريض مذهبيّ، ومن تأجيجٍ للأحقاد الطائفية البغيضة، ومن اللّعب بأوتار العقول والعواطف لدى شبابنا المسلم، في وقتٍ نحن فيه بأمرّ الحاجة إلى سيادة الاطمئنان على الساحة الإسلاميّة العالميّة، وإلى تهدئة شارعنا الإسلاميّ



والمذهبي، وإلى التراض والتوحد لمواجهة الأخطار المصيرية المشتركة.  
ولكيلا نستخدم - هنا - لغة التخوين، ولئلا ندخل في النوايا، ولئلا نبقي عالقين عند أسئلة من قبيل: من هو الذي يقف وراء تمويل مثل هذه الفضائيات المشبوهة؟ ومن هو الذي يقف وراء اختيار الأسئلة والمواضيع والشخصيات الحوارية فيها؟ لكيلا نقع في ذلك كله: نقول لمن هم معنيون بالحفاظ على أمتنا الإسلامية، نقول للفقهاء ورجال الدين الذين يفترض بهم أن يكونوا حصوناً للإسلام، ومن المدرستين، نقول لهم:

أليس الأولى والأجدر بهذه الجهود والأموال أن تُصرف على إقامة المعاهد والجامعات العلمية المتخصصة التي تتناول المواضيع الخلافية بين الفرقين بشكل اختصاصي أكاديمي خبروي، يكون الغرض من ورائه تحري الحقائق، وتدوير الزوايا، والتقريب بين المذاهب، والكشف عن النزاعات اللفظية والشكلية التي تفرق بينهم، والتخطيط لمستقبل المسلمين على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والكلامية والفقهية، والقضاء على ثقافة التكفير ومخلفاتها الدائمة، والحفاظ على الكيان الإسلامي، والدفاع عن حقوق المستضعفين من المسلمين، ومواجهة الثعبان الصهيوني المريع الذي ابتلع بسمه القاتل ما تبقى من كرامتنا أويكاد؟!

هذا، وينبغي هنا أن نفرق بين التخوين المباشر الذي اجتنبنا عن الوقوع فيه في هذه الافتتاحية؛ لكي لا نكون فريسة ما نفر منه، وبين كون العمل الذي نقوم به - ولو عن حسن نية - يصب في خانة الأهداف الكبرى لأعداء الإسلام، الذي بات من الواضح جداً أنهم قد استبدلوا مخططاتهم الاستعمارية بالوجود الفيزيائي في أراضي المسلمين، استبدلوا ذلك بزرع بذور الفتنة بيننا؛ لكي نبقي أمة تتقاذفها أمواج النزاعات والفتن، ويفتك بعضنا ببعض، ولا تقوم لنا قائمة، ونبقى باختيارنا رهينة لهم، نستمد منهم العون في كل شيء؛ حتى في صناعة

لعب أطفالنا، والتي تكون مختومة ببصمة المجون وخلع لباس الحياء والغيرة. أليس من الأخرى بكم - يا رجال الدين الإسلامي - وأنتم حملة القرآن الذي تخاطبون به أتباع الديانات الأخرى، بقوله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، أليس من الأخرى بكم أن تتداعوا - أنتم - فيما بينكم إلى كلمة سواء على طاولة حوار علمي تقوم على ركنين اثنين، بدلاً من الركن الواحد؟ وأعني بالركنين: الكلمتين المنجيتين:

(١) لا إله إلا الله. (٢) محمد رسول الله.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿[الصف: ٢-٣].

\* \* \*

## الهوامش:

(١) انظر: البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ١: ١٠٢، كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، مصورة عن طبعة دار الطباعة العامة باستانبول؛ وانظر - أيضاً -: الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات: ص ١٧٦، باب (١٤)، تصحيح وتعليق: ميرزا حسين كوجه باغي، نشر: منشورات الأعلمي ١٤٠٤، بيروت.

من  
أريج القيادة المكيمة

علماء الدين رواد الإصلاح والتطور  
في كلام القائد الخامنئي دام ظلّه

□ إعداد: أحمد الحسن

تجزيّة

بات الحديث عن قيمة العلم وفوائده الجسيمة، وعن دوره المصيريّ في حياة البشر، حديثاً مستهلاًكاً ومستدركاً. كما بات الحديث عن أهميّة الدور الذي يؤديه العلماء، الذين يمثلون النخبة العلميّة والثقافيّة في أيّ مجتمع من المجتمعات، والذين يكشف إبداعهم وارتقاؤهم لدرجات العلم، في أيّ مجالٍ من المجالات، عن بلوغ المجتمع نفسه مستوىً راقياً من الحياة الحضاريّة التي ينشدها البشر والعقلاء ويعتبرونها كمالاً لهم، بات هذا الحديث، واضح المعالم معروفاً لدى الجميع، فقد ألفت الناس سماع عبارات المدح والثناء للعلم والعلماء، وحفظوا ذلك عن ظهر قلب.

غير أنّ الذي لا ينفكّ جميعنا عن الحاجة إليه، هو التذكير - دائماً - بمدى

خطورة الدور الذي يلعبه العلماء على حياة الأمم والشعوب والحضارات، ولا سيّما مدى خطورة الدور الذي يؤديه علماء الدين على وجه التحديد؛ نظراً لما يُمثّله الدين - نفسه - من عنصرٍ ضروريٍّ يحيا في الوجدان الإنسانيّ منذ أن كان الإنسان وإلى عصورنا الحاليّة، حيث لم تنفع أضواء التقدّم التقنيّ والاكتشافات العلميّة الباهرة، بحركتها المتسارعة الخطى، لم تنفع - كلّها - في الحدّ من مدى تغلغل الدين في النفوس، ولا استطاعت أن تُطفئ نوره المنبعث الذي لا يستطيع الإنسان أن يراه جليّاً إلّا في اللّحظات التي يعود فيها إلى صفاء فطرته التي خُلِقَ عليها، بل كان الدين - دوماً - قادراً على كسر الجمود والجفاف الماديّ الناجم عن اختراعات واكتشافات الحضارة الماديّة..

هذه الحضارة التي، وبالرغم من أنّها نجحت في توفير أشكال الحياة الماديّة المرفّهة للإنسان، إلّا أنّ أضواءها قد باتت تشكّل مصدر إزعاج له في بُعدهِ الروحيّ والنفسيّ، الذي هو بُعدٌ لا يُستَهان به في حياة الإنسان، حتّى إنّهُ ليصحّ لنا القول بأنّ الإنسان ما هو إلّا الروح والنفس، بمعنى: أنّ الجانب الروحيّ هو قوامه، وأنّ الجانب العقليّ والنفسيّ من الإنسان هو - وحده - ما يجعل منه هذا الموجود الحساس الذي يتميّز عن سائر الكائنات التي خلّقها الله تعالى.

ولا أظنّنا بحاجةٍ إلى شيءٍ من الاستدلال والبرهنة على هذه الآثار السلبيةّ التي خلقتها الحضارة الماديّة والتقدّم التكنولوجيّ، مع اعترافنا لها بكلّ الآثار الإيجابيةّ الكبيرة في الجانب الماديّ والرفاهيّ من حياة بني البشر، بل يكفينا لذلك، أن نُلقِي نظرةً خاطفةً على دول العالم ومجتمعات الأمم والشعوب، لنرى بأأم العين كيف استطاع شبح الفقر المُدقع أن يفرض سيطرته على ما يزيد على ثلثي الرقعة الجغرافيّة والديمغرافيّة في عالمنا المعاصر، ولنرى كيف أنّ ظُلْمة الجهل والإجرام والإرهاب لا زالت تُحَيِّم على كلّ أرجاء المعمورة، من أقصاها إلى أقصاها، ولنرى كيف أنّ منسوب الاستكبار لدى القوى الاستكباريّة يزداد

ارتفاعاً يوماً بعد يوم، وكيف أنّ الشعوب المضطهدة لا زالت - ونحن في الألفية الثالثة - ترزأ تحت سياط المظلومية والاضطهاد، وإنّما تتغيّر الوجوه والأسماء فحسب، وإلا فالظلم هو الظلم، والاضطهاد هو الاضطهاد.. بل نقول - على سبيل إعمال الخيال -: إنّهُ لو قُدِّرَ لواحدٍ من الناس أن يكون له جناحان يطير بهما إلى مستوى السماء الدنيا، ليجلس على غيمةٍ من غيومها، ويُراقب من الأعلى حياة البشر المليئة بالغصص والآلام والمكدرات، لما استطاع - قطعاً و يقيناً - أن يتحمّل الجلوس في موضعه ذاك يوماً واحداً، بل ساعةً واحدة، لشدة صعوبة ما سيراه وما سيسمعه، من دموع المعذّبين، وبكاء الثكالى، وأنات المحرومين والمعذّبين في الأرض..

وفي غمرة هذا الواقع الأليم كلّهُ، نعتقد أنّ الدين هو الهبة الإلهية العظيمة للإنسان - بعد العقل -، التي أُعْطِيَتْ له ليُخْرَجَ من الظلمات إلى النور، وأوكلت هذه المهمة - بالدرجة الأولى - للأنبياء والمرسلين، ومن بعدهم لأوصيائهم المعصومين، ومن بعدهم للعلماء الربّانيّين الذين جُعِلُوا - في الأديّيات الإسلامية - ورثة الأنبياء وحفظة رسالاتهم والصائنين لنهجهم وخطّهم المستقيم.

فكيف لعلماء الدين أن يؤدّوا حقّ هذه المهمة المقدّسة المُلقاة على عاتقهم؟ وكيف لهم أن يضطلعوا بهذه المسؤوليّات الجسام التي لا تقدر على حملها الجبال ولا الصخور الثقال؟! وأتى لهم - وهم غير معصومين - أن يضمّنوا سيرتهم ومسيرتهم عن أن يطرأ عليها الانحراف؟

من هنا، برزت الحاجة - كما أشرنا سابقاً - إلى وجود مَنْ يُدكّرنا دائماً بمدى خطورة دور علماء الدين وحساسيّته، فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين، ولا سيّما إذا كان الذي يُدكّرنا بذلك هو أحد العلماء الربّانيّين العاملين، الذين تربّوا على تعاليم النبيّ الأعظم ﷺ وفي مدرسة أهل بيت العصمة والطهارة عليّهم السلام، أعني به: وليّ أمر المسلمين الإمام القائد السيّد عليّ الحسينيّ الخامنئيّ دام ظلّه..

وفيما يلي نسلط الضوء على مقاطع من أحد خطباته القيّمة التي كان قد ألقاها عليه السلام في محضر جمع من الطلاب وعلماء الدين من السنّة والشيعّة وأئمّة الجمعة والجماعة والخطباء في محافظة «كردستان» الإيرانيّة، كما حضر هذا الخطاب - أيضاً - عدد من عوائل الشهداء في تلك المدينة المضحيّة.

وكان أوّل ما افتتح به الإمام القائد دامت له العظمة خطابه هذا، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام، أن قال:

علماء الدين في الإسلام هم رواد الإصلاح والرقّي والتقدّم، وقد أُلقيت على عاتقهم مسؤوليّة دينيّة جسيمة، من جملتها ما ورد في نهج البلاغة عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال: «وما أخذ الله على العلماء أن لا يُقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم»<sup>(١)</sup>. ومعنى ذلك: أنّه ليس من حقّ عالم الدين أن يتخذ جانب الصمت والحياد حيال الظلم والإجحاف، وحيال قيام بعض الناس بالاعتداء على بعض، بل لا معنى للحياد هنا أصلاً، كما هو واضح.

إنّ دور عالم الدين لا يمكن أن يتلخّص في مجرّد أن يعرض على الناس أحكام الشريعة وأن يبيّن لهم المسائل الدينيّة، بل مهمّة العلماء هي عين مهمّة الأنبياء عليهم السلام، كما في الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء»<sup>(٢)</sup>، ولا شكّ في أنّ مهمّة الأنبياء عليهم السلام لم تكن مقصورةً على مجرّد استعراض المسائل وبيانها.

بل نقول: لو أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا قد اكتفوا بهذا الجانب فحسب، وبمجرّد بيان الحلال والحرام للناس، لما كان ثمة مشكلة أصلاً، ولما وجدنا أحداً يُعارضهم أبداً.

ثمّ تلا الإمام الخامنّي دامت له العظمة قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، معلّقاً على الآية الشريفة، قائلاً:

«لنا أن نتساءل هنا: أيّ تبليغ هذا الذي تدرج فيه خشية الناس؟ وأيّ تبليغ هذا الذي على الإنسان حينما يبلغ أن لا يخشاهم؟ لو كانت القضية تقتصر على مجرد بيان عددٍ من الأحكام الشرعية، لما كان هناك سببٌ للخوف أصلاً بحيث يستدعي الثناء من الله تعالى على المبلّغين الذين لا يخشون الناس، ولا يخشون أحداً إلا الله عز وجل».

ثم طرح رحمته السؤال التالي، وهو:

إننا نعرف أن أنبياء الله عليهم السلام قد خاضوا تجارب صعبة، وعانوا منها طوال أعمارهم المباركة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فماذا كان سبب خوضهم لهذه التجارب؟ وما هو الهدف من ورائها؟

ورأى القائد الخامنئي رحمته أن هذا السؤال المهم يستتبع أسئلة أخرى في غاية الأهمية من قبيل: ما هي تلك الرسالة التي ينبغي القتال من أجلها؟ وما هي تلك الرسالة التي ينبغي تعبئة جنود الله والزحف بهم من أجلها؟ وهل يُعقل أن نصدق أن هذه الرسالة كانت مجرد ذكر بضع عبارات في الحلال والحرام وبعض المسائل الدينية الأخرى؟!

وفي الجواب عن كلّ هذه الأسئلة يقول رحمته:

«إنما ثار الأنبياء وقاموا لأجل إقامة الحق وإحلال العدل ومقارعة الظلم والطغيان ومحاربة الفساد وتحطيم الطواغيت».

وأما الطاغوت - في نظر الإمام القائد - فهو ليس ذلك الوثن الذي كان الجاهليّون يعلّقونه على الجدران، أو ينصبونه في الكعبة المشرفة وإلى جوارها أيام الجاهلية، كلا، فذلك، وإن كان وثناً، إلا أنه ليس بشيء، وهو لا قدرة له حتى يتأتى منه أن يظلم وأن يطغى. و«إنما الطاغوت هو ذلك الإنسان الظالم الطاغية، الذي يفرض على الناس صنم وجوده استناداً إلى ذلك الصنم الذي يجعلهم

يعلقونه على الجدران».

فليس الطاغوت هو الأصنام التي ترمز إلى فرعون - مثلاً -، بل الطاغوت هو فرعون نفسه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّخُّ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، هذا هو الطاغوت الذي حاربه وأمثاله الأنبياء والرسل ﷺ، وقاموا بمواجهتهم ومقارعتهم حاملين أرواحهم في أكفهم، باذلين في هذا السبيل كل غالٍ ورخيص، من دون أن يستكينوا أو أن يقعدوا ساكتين عن الظلم والتعسف، وعن المحاولات التي يمارسها الظالمون في تضليل الناس، وفي التلاعب بعقولهم ومشاعرهم وأحاسيسهم.

ثم تابع الإمام الخامني دام ظلّه موجّهاً كلامه إلى الحاضرين قائلاً لهم: «هؤلاء هم الأنبياء ﷺ، فإذا كان العلماء - كما تقدّم في الخبر - هم ورثة الأنبياء، فإذا كنّا نحن نرتدي ثياب العلماء ونترتّب بزيتهم، سواء كنّا من رجال الدين الشيعة أو السنة، فنحن في الواقع، إنّنا نطلق ادّعاءً كبيراً، ونقول: إنّنا نحن ورثة الأنبياء».

### ورثة الأنبياء

وإذا كان هذا هو ما يدّعيه رجل الدين عندما يتزوّى بزيّ أهل العلم، وإذا كان ادّعاؤه هذا خطيراً إلى هذه الدرجة، وإلى هذا المستوى، فلا بدّ أن يعرف كلّ واحدٍ منّا ما هي حقيقة هذا الادّعاء؟ وما هو حجم الخطورة فيه؟ وهذا ما يُجتمّ علينا أن نطرح السؤال التالي، وهو:

ما هي حقيقة وراثّة الأنبياء هذه؟

ويُجيب دام ظلّه عن ذلك قائلاً:

«إنّ وراثّة الأنبياء ما هي إلّا مقارعة ومواجهة كلّ تلك الأمور التي يُعدّ



الطاغوت مظهراً ومصدقاً لها، من مقارعة الشرك، والكفر، والإلحاد، والفسق، والفتنة، و..

فهذا هو واجبنا، وهذا هو تكليفنا الذي لا يسعنا القعود عن القيام به، وبناءً على ذلك: فلا يجوز لأيّ واحدٍ منّا أن يركن إلى السكون والتخاذل، ولا يمكن لنا أن نفتنّع بأننا نؤدّي الواجب الملقى على عاتقنا لمجرّد أنّنا نعرض على الناس بضع مسائل دينيّة، كلّاً، فهذا التكليف ليس ممّا يمكن ارتفاعه عنّا بمجرّد هذه الأمور».

ولكن، أن تكون مهمّة العلماء هي المهمّة نفسها التي أوكلت - في مراحل سابقة من تاريخ الإنسانيّة - إلى الأنبياء العظام عليهم السلام، لا يعني: أنّه لا يجوز لنا أن نغيّر في أساليب العمل وفي وسائل التبليغ وطرقه، بل لكلّ فترة مقتضياتها، ولكلّ حقبة زمنيّة ضروراتها ووسائلها وأدواتها وأدبيّاتها ولغتها، فبينما كنّا ذات يوم «نؤلف الكتب ونسوق الأدلّة ونتحدّث من أجل الدفاع عن الهويّة القرآنيّة للإسلام، وكان هناك عدد من المستمعين والراغبين الذين كانوا يُصغون لنا ويستمعون إلى حديثنا، وكانت أمورنا تسير على هذا النحو، فقد كان الطاغوت حاكماً آنذاك ولا يسمح بالتحرك بأكثر من هذا المقدار».

هذا ما كان عليه الحال في السابق، أي: في الفترة التي سبقت انتصار الثورة الإسلاميّة وقيام النظام والجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، ولكن ما الذي أصبحت عليه الحال اليوم؟! فهل هي بقيت على ما كانت عليه؟ أم أنّها تبدّلت وتغيّرت؟

### خصوصيّتان بارزتان لواقعنا المعاصر

يرى الإمام القائد دام ظلّه أنّ هناك - اليوم - خصوصيّتين اثنتين من شأنهما أن تُغيّرا من واقع الحال عمّا كانت عليه في الماضي، وهاتان الخصوصيّتان، في حقيقة

الأمر، تجعلان المسؤولية الملقاة على عاتق علماء العصر الحاضر أكبر وأعظم،  
وتجعلان العبء الذي على كواهلهم أشد وأثقل.  
الخصوصية الأولى:

هي عبارة عن تطوّر أساليب نقل الأفكار، فلو أنّنا قُمنا فقط بملاحظة  
الأهداف والأغراض التي باتت الأجهزة الالكترونية والإذاعة والتلفزيون  
والانترنت وسائر وسائل الاتصال تُستخدَم لأجلها في العالم المعاصر، فسنعرف  
حينئذٍ: أنّ الاستكبار العالمي - اليوم - لم يعد يكتفي باستعمال السلاح وإشهار  
السيف، لا بمعنى: أنّه لم يعد يشهر سيفه في وجوه المعارضين له - بل هو لا يزال  
دائباً على فعل ذلك حتماً - بل بمعنى: أنّه يستخدم إلى جانب ذلك العشرات من  
الوسائل والأساليب الأخرى، كلّ ذلك، من أجل أن يفرض أفكاره الخاطئة  
ومناهجه المنحرفة، ومن أجل أن يُخضع الشعوب كافةً لخططه الظالمة، وأن  
يجعل منهم مجرد دُمى وأدوات في مشاريعه الطغيانية المغرضة.

يقول **حَظَلَّةٌ**: «لقد ثبت اليوم وفقاً للمعلومات الأكيدة، أنّ مؤسسة هوليوود  
الكبرى، وأنّ الشركات السينمائية الكبيرة، هي على تعاون دائم ومواكبة مستمرة  
للسياسات الاستكبارية الأمريكية.

فهذه المؤسسة السينمائية الكبرى - التي تحتوي في داخلها على العشرات من  
الشركات السينمائية الكبيرة، بما فيها من فنّانين ومخرجين وممثلين وكتاب  
مسرحياتٍ وسيناريوهات سينمائية ومستثمرين ومُنتجين - إنّما تعمل لخدمة  
هدفٍ معيّن. وليس هذا الهدف إلّا عبارة عن تلك الأهداف التي ترسمها  
مخطّطات السياسة الاستكبارية، هذه السياسة التي تحرّك الإدارة الأمريكية».

ومن نافلة القول: أنّ هذه الإمكانيات الهائلة المبذولة لا شيء سوى إبعاد  
الناس، ولا سيّما الشباب منهم، عن دروب الدين والحقّ والحقيقة، وجعلهم  
ينحرفون عن الصراط المستقيم الذي يخطّه الإسلام ويدعو إليه، كلّ هذه

الإمكانيات والأموال الطائلة المبذولة في سبيل النهوض بهذا المشروع الاستعماري، يشكّل عقبة حقيقية أمام العمل والدور التبليغي المقدّس الذي ينبغي أن يؤدّيه علماء الدين ومبلّغوه.

وفي كيفية معالجة هذه المشكلات يقول الإمام الخامنّي دام ظلّه:

«إنّ علينا أن نكيّف أنفسنا مع الزمن، فالشبهات المثارة اليوم ليست من قبيل الشبهات التي كانت مطروحة منذ ما قبل مائة أو مائتي سنة، بل الشبهات التي يقصفون بها اليوم أذهان شبابكم وطلبتكم الجامعيين، وحتى طلبة مدارسكم، هي شبهات عصريّة.

ونحن هنا نسأل: من الذي يجب عليه الوقوف بوجه كلّ هذا؟! وهل هناك أحدٌ أصلح لهذا الغرض من علماء الدين الذين هم حماة حدود العقيدة الحقّة؟! وهل هناك من هو أكثر قُدرةً منهم على الوقوف بوجه هذه السهام المسمومة؟!».

وأما الخصوصية الثانية:

فهي: وجود حكومة قرآنيّة قائمة في عصرنا الحاضر، ولكنّها لم تكن قائمة بالأمس، بل يمكن القول بأنّه لم يوجد على امتداد التاريخ الإسلامي، «منذ صدر الإسلام وإلى اليوم، وبالتحديد: منذ أن تحوّلت الخلافة في العالم الإسلامي إلى ملكٍ وراثيٍّ، ولحدّ اليوم، لم توجد أيّة حكومة حكّمت عملياً على أساس الدين والشريعة، بل حتّى الدولة العثمانيّة التي كانت تتسمّى باسم الخلافة، وقد عقد عليها الكثير من المسلمين الآمال والقلوب لحملها هذا العنوان الكبير، غير أنّها لم تكن - في الواقع - أكثر من جهاز حُكْمٍ ملكيٍّ، أي: أنّ الحُكْم فيها لم يكن على أساس الدين، ولا على أساس أحكام الشريعة».

وبالجُملة: يمكن لنا أن نستنتج هذه النتيجة القطعيّة الحاسمة، التي تقول: إنّ من المميّزات البارزة لعصرنا الحاليّ أنّه عصرٌ استطاع أن يشهد على ولادة

حكومة دينية، تعتمد هذه الحكومة الدين وأحكامه وتعاليمه وقيمه أساساً ونبراساً ودستوراً وقانوناً لها، وتعمل بموجبه، وتحاول تطبيق قوانينه، وتستشير بفتاوى فقهاء المأخوذة بشكل مباشر من آيات القرآن الكريم ومن السنة النبوية المباركة ومن أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام.

### معنى الحكومة الدينية

وبكلمة تُظهر الإنصاف والموضوعية والشفافية الكاملة التي يُخاطب بها القائد الخامنئي دام ظلّه جميع المسلمين في العالم، يقول عليه السلام:  
«إنني لا أدعي أنّ هذه الحكومة الدينية هي حكومة قرآنية متكاملة، أبداً.. بل أول ناقد لهذه الحكومة هو أنا، وإنما نحن نحاول أن نسير في اتجاه تطبيق الشريعة الإسلامية، ولو وفقاً لحدها الأدنى، بيد أننا نؤمن بأن هذا الاتجاه هو الاتجاه الصحيح، وما نرومه ونرغب فيه ونسعى إليه بشدة هو التحرك والتقدم باتجاه الحد الأعلى. إنّ كلّ ما ندّعيه هو أنّ حكومتنا هذه هي حكومة دينية رسمياً وقانونياً وبحسب الدستور، وهي حكومة تعتبر أية خطوة على خلاف الشريعة أو أيّ قانون على خلاف القوانين الإسلامية هو قانون باطل ومنسوخ وغير قابل للتطبيق».

إنّ هذه الظاهرة من الحكومة الدينية هي ظاهرة فريدة ومهمة للغاية، وذلك أنّ معناها أنّ الجهاز والنظام السياسي في البلاد هو نظام قائم على السماح لأهل الدين بالتحرك على وفق المعايير والقيم والقوانين الدينية، بل هو نظام يُريد من كلّ المنتمين إليه أن يتحركوا على سبيل إشاعة الشريعة ونشرها وإحلالها. كما أنّ قيام حكومة كهذه يعني: أنّ على مسؤولي النظام فيها أن يكونوا ممثلين لأحكام الدين، بل أن يكونوا هم أول المطبّقين لتكاليفه، وأول العاملين بأوامره ونواهيه، بحيث لو فرض أنّهم لم يكونوا متطابقين تماماً مع المعايير الدينية،

فسوف يَفْقَدُونَ - وبمقتضى القانون نفسه - كلَّ شرعيّتهم ومناصبهم وحيثيّة وجودهم في سُلّم الحكم، وهذا يعني: أنّ نظام الحُكْم ودستوره في هذه الحكومة الدينيّة هو - نفسه - الذي يكون مخوّلاً بأن يُجَرِّد الذين يخالفون قوانينه الإسلاميّة من مناصبهم، ومن صلاحيّاتهم، ومن صفاتهم التمثيليّة لو كانت لهم، وهكذا.. لتكون مهمّة حراسة الدين الإسلاميّ الحنيف وتعاليمه وأحكامه منوطةً بالدرجة الأولى بالدستور نفسه المطبّق عمليّاً في البلاد، وبواسطة جهاز الدولة الحاكم فيها، وليس مجرد مهمّة فرديّة تقع على مهمّة هذا الفرد أو ذاك، أو على هذه المؤسّسة العلميّة أو تلك.. وهذا - كما يقول السيّد القائد دام ظلّه - شيء بديع وجديد ومبتكر ولم نعهد مثله في الماضي.

وهذا الأمر يُشكّل بالنسبة إلينا فرصة كبيرة مُتاحة وقابلة لأن نستثمرها إلى أقصى الدرجات، في سبيل خدمة حقائق الإسلام، ونشر معارفه وشريعته، في محاولة فكّ أسر هذا العالم القابع في سجن المادّيّات، وانتشاله من فخّ الأضواء البرّاقة للاكتشافات الصناعيّة والعلميّة والتقنيّة الخالية تماماً من شغف الروح وحرّة العاطفة.

### سيّد قطب والحكومة الإسلاميّة

ثمّ يستشهد الإمام الخامنيّ دام ظلّه بمضمون كلام يعترف عليه السلام بأنّه كلامٌ حاضر دائماً بجوهره ومضمونه في ذهنه، بالرغم من أنّه كان قد قرأه قبل أربعين عاماً في بعض كتابات المرحوم «سيّد قطب»، ينصّ فيه هذا الأخير: على أنّه كان من الأفضل والأجدر للمسلمين، «بدلاً من أن يكتبوا كلّ هذه الكتب، وبدلاً من أن يبتثوا كلّ هذه الخطابات الإعلاميّة، وبدلاً من أن يعملوا على إدارة كلّ هذه المساجد، كان من الأفضل لهم بدلاً من ذلك كلّهم، لو أنّهم كانوا قد فعلوا ما من شأنه أن يُساهم في نشر الإسلام وفي تعميم الثقافة

الإسلامية، فلو أنهم كانوا قد عملوا في هذا الاتجاه لكان هذا خيراً لهم من كل ما يفعلونه».

وهذا الأمر الذي يُسهم في تعميم الثقافة الإسلامية، وفي الإعلاء من شأن الإسلام، وفي نشر تعاليمه ومفاهيمه في الأرجاء، هو - بنظر سيد قطب - أن يُشكّلوا، ولو في زاوية نائية من العالم، أو في جزيرة بعيدة، حكومة إسلامية، حكومة تعمل وفقاً للقانون الإسلامي؛ إذ - باعتقاده - فإن مجرد تشكيل حكومة إسلامية في ناحية ما من هذا العالم الكبير هو قادرٌ على أن يترك من التأثير ما يفوق آلاف الكتب، وآلاف المحاضرات، والآلاف من الأفكار الدقيقة الهادفة إلى نشر الدين..

والذي نراه: أن هذا الكلام يوافق مقتضيات العقل والمنطق أيما موافقة، إذ بدلاً من أن يكون الاتجاه في الجهود المبذولة نحو الحلول الجزئية والموضعية، أو نحو أنصاف الحلول، فمن الأفضل لهذه الجهود والطاقات أن تُصَرَف في مكانها الملائم، وأن تُوضَعَ على السكة في مسارها الصحيح..

ولعمري! فما نفع أن ينشغل الإنسان بمعالجة بثور ظاهريّة أو أمراضٍ جلديةٍ ألمّت به، إذا كان قلبه الذي به يعيش ويحيا يكاد يتوقّف عن النبض وضخّ الدم وأنفاس الحياة؟!

ويتابع آية الله العظمى السيّد الخامنّي رحمته الله معلّقاً على ما نقله من كلام المرحوم «قطب» قائلاً:

«لقد اخترنا نحن هذه الحقيقة وجربناها وعايّنا آثارها عن كثب، فإنّه حينما تأسس النظام الإسلامي، وحينما سمعنا هتافات الإسلام تصدر من حنجرة ذلك الرجل العظيم، الشجاع، والفدّ، أعني به: إمامنا الجليل روح الله الموسويّ الخميني قدس سرّه، شاهدنا إقبالاً عجباً وتوجّهاً باهراً لقلوب كلّ المسلمين في هذا العالم نحو الإسلام.

ومن هنا نقول: ليس في وسعنا أصلاً أن نقارن هذه الشخصية الكبيرة، شخصية الإمام الراحل، بأيٍّ من الشخصيات الإسلامية المصلحة التي مرّت في تاريخنا، مع اعترافنا لكل هؤلاء المصلحين الكبار، من أمثال السيّد جمال الدين وغيره، بالفضل والامتنان الكبيرين، إلّا أنّه مع ذلك، فلا يمكن لنا أن نقارن إمامنا العظيم - الذي نعتبر إدراكنا لعصره توفيقاً من قِبَل الله عزّ وجلّ - بأيٍّ من تلكم الشخصيات، حيث إنّ حديثه تثني عن الإسلام لم يكن حديثاً عادياً، بل كان حديثاً ملؤه الشجاعة والصراحة والشفافية والشعور بالعزّة والثقة بالنفس».

#### من آثار الثورة الإسلامية

ثمّ يتطرّق الإمام الخامني دامظله للحديث عن بعض الآثار التي يرى أنّها من بركات الثورة الإسلامية التي فجّرها الإمام الراحل تثني، والتي كان من أبرز سماتها أنّها ثورة ضدّ كلّ مظاهر الطغيان والتهتّك والسفور والفجور التي كان الشاه المعبور يعمل لنشرها في المنطقة كلّها، امتثالاً لأوامر أسياده من الإدارات الغربيّة الاستعماريّة، ومن أبرز تلك الآثار والبركات التي يشير إليها دامظله:

(١) انتشار الميل نحو الإسلام لدى الشباب الجامعيّ وفي أوساط الشريحة الشابّة المثقّفة، كما يمكن أن نلاحظه بوضوح في أيّة جامعة من الجامعات التي يمكن أن نقصدها في بلداننا الإسلاميّة، بعد أن كانت هذه الشريحة، قبل الثورة الإسلاميّة، لقمةً سائغةً بأيدي الشيوعيين الذين كانوا يستقطبونهم بكلّ سهولة، وبعد أن كان الشباب الجامعيّ كالريشة في مهبّ الريح، تجتذبهم التيارات المُلحّدة، الشرقيّة منها والغربيّة، وعلى اختلاف أنواعها. واليوم، بعد قيام الثورة الإسلاميّة، صار للشابّ المسلم القدرة على أن يُحافظ على أصالته، وتعرّز لديه

الشعور بالثقة بالنفس وبالهوية الإسلامية، ولم يعد الانتماء إلى الإسلام الأصيل ولا التقيد بأحكامه وتكاليفه باعثاً على الخجل في نظر شبابنا المسلم، ولم تعد هذه الشريحة تشعر بأنّ عليها أن تثبت وجودها، أو أن تُحرز هويتها عن طريق الانتماء إلى واحد من التيارات الفكرية أو السياسية المنحرفة السائدة، التي كان الانتماء إليها يُنظر إليه على أنّه موضة العصر الحضاري، ويُنظر إلى مَنْ يتخلّف عنها وكأنّه آتٍ من العصور الحجرية التي كان يعيش فيها الإنسان القديم!! واليوم، وبفضل الثورة الإسلامية، باتت هذه التيارات الفاسدة والاستقطابات والميول الإلحادية في أدنى مستوياتها، ليسود - بدلاً منها - التوجّه والإقبال نحو الإسلام.

(٢) «إحراج الحكومات الرجعية والتابعة والأسيرة والذليلة في المنطقة، التي نرى جميعاً عملها ونشاطها الذي تمارسه ضدّ هذه الثورة الإسلامية المباركة، وهذا هو السبب، فهؤلاء يخافون على حُكمهم، وعلى مناصبهم وكراسيهم، وينزعجون أيّما انزعاج عندما يرون كلّ هذا الميل والحبّ الصميمي والقلبي لدى شبابهم نحو هذه الثورة، وهذا النظام، وهذه الراية الإسلامية المرفوعة والخفاقة هنا.. يرون هذا كلّهُ، فيتتابهم الخوف والذعر الشدادين، فلذلك نراهم ينشطون ضدّنا، وبأنشطةٍ متنوّعة، ولو أردنا أن نحصي أنواع النشاط الذي يقوم به هؤلاء السلاطين والرؤساء الظلمة والمتسلّطون على رقاب بلداننا الإسلامية ضدّ الثورة الإسلامية، وما يقومون به تجاه هذه الحكومة من جفاءٍ وإجحافٍ وقلةٍ إنصافٍ، لاستطعنا أن نحصل على قائمة طويلة للغاية.. والسبب من وراء ذلك كلّهُ معروف وواضح لدينا، وهو ليس إلّا تأثير الثورة الإسلامية، ولو لم يكن للثورة الإسلامية هذا التأثير العجيب والعميق القادر باستمرار على أن يُحدث كلّ هذه التغيرات الجذرية الإيجابية، لما وجدناهم يُحاربون الثورة الإسلامية إلى هذه الدرجة، وبخاصّةٍ، وأنهم يتسمّون بالمسلمين».



## القضية السنّية - الشيعة

ومن ذيول هذه المسألة، ما نراه يطفو على الساحة العربيّة والإسلاميّة آونةً بعد أُخرى، من قضية الاختلاف السنّي - الشيعيّ، الذي يُصرّ البعض على تسميته نزاعاً وشقاقاً وفُرقةً وعداءً، بالرغم من إمكانية الحفاظ عليه في دائرة الاختلاف المذهبيّ الفقهيّ والكلاميّ، الذي لا مانع من وجوده؛ لإمكان حلّه عن طريق الحوار والدراسات التخصصيّة والندوات العلميّة، بل نقول: إنّ اختلافاً حضاريّاً وسلميّاً كهذا يُمكن أن يُقدّم صورةً مُشرقةً للواقع الإسلاميّ المعاصر، وأحد مظاهر التمدّن في الإسلام، ومن أشكال الثراء على الساحة العلميّة الإسلاميّة، بحيث تبدو هذه الساحة من المرونة بمكانٍ حتّى أنّها عُدّت قادرةً على احتواء كلّ الخلافات الأساسيّة والتناقضات الجوهرية بين المذاهب، فضلاً عن الخلافات التفصيليّة الجزئية، والتي كثيراً ما لا يُخلو منها المذهب الواحد بالنسبة إلى علمائه المنظرين له أنفسهم، فضلاً عن افتراض مذاهب متعدّدة.

إنّ ما نعتقده - حقيقةً - هو أنّ وجود اختلافٍ كهذا بين الفرق والمذاهب الإسلاميّة هو أمرٌ طبيعيٌّ ومسموح به، لو لم نُقل: بأنّه أمر لا بدّ منه. وأمّا الأمر الخارج عن الطبيعة، والبعيد عن المسموح به، فإنّما هو محاولة البعض تظهير هذا الخلاف ذي الطابع الفقهيّ والكلاميّ، وكأنّه عداءٌ مُستمرّ، وبُغضٌ قديم، وثأرٌ دفين، بين عدوّين لدودين قد انقطعت كلّ آمال التعايش، وماتت كلّ فُرص العيش المشترك بينهما!! كلّ هذا، لأجل أنّ حقيقة قيام حكومةٍ تعتمد القانون الإسلاميّ قانوناً ودستوراً لها على أرضٍ إسلاميّة، لم يُعجب هذا البعض، أو أنّه أخرجَه وقام بتعرية نظام حُكمه الوراثيّ أو الدكتاتوريّ الفاسد أمام الشعوب المسلمة التوّاقة إلى الحرّية والعزّة كما كان عليه أسلافهم إيان الحكومة التي قام النبيّ الأعظم ﷺ بتأسيسها وتشيد أركانها في

المدينة المنورة (يثرب) بعد الهجرة المباركة إليها، والتي أسفرت - هذه الحكومة - عن وضع الحجر الأساس لكل ما شهده المسلمون في السنوات اللاحقة من مظاهر العزة والسؤدد والرقى والتقدم، حتى كانت أمة الإسلام آنذاك أمة رائدة بكل ما للكلمة من معنى، وصارت - قبل عصر انحطاطها - مدعاة افتخار لكل الشعوب المسلمة، ومُلْهمة لشعوب الأرض جميعاً..

يقول الإمام الخامنئي رحمته الله مخاطباً الحاضرين من رجال الدين وطلبة العلم: «أعزائي، إن قضية النزاع بين الشيعة والسنة، والتي تلاحظون أنها اشتدت خلال فترة معينة بعد انتصار الثورة الإسلامية هي ناجمة عن هذا الواقع، فقد لاحظنا أن النزاع بين الشيعة والسنة في إيران وفي العراق وفي بلدان أخرى تزداد ضراوته - فجأة - خلال فترة الحكم الإسلامي، والبعض الآن يُصرّ على إلقاء القبض على بعض الأفراد المتواجدين في بعض البلدان الإسلامية، بتهمتهم - مثلاً - يدعون التشيع، وهذا - لعمرى - كلام فارغ وخاطيء وكاذب.. خصوصاً وأن هذه البلدان التي يتحدثون عنها، هي بلدان شعوبها من المحبين لأهل البيت عليهم السلام، بل ممن يعشقون أهل البيت عليهم السلام.. وإن كانوا من أهل السنة، هذا ما رأيناه ونراه».

### النظام الإسلامي: القدرة على البقاء والتطور

ثم يتابع رحمته الله الكلام قائلاً:

«لو كان باستطاعة هؤلاء أن يدفنوا هذا النظام منذ السنوات الأولى لتأسيسه لما قصّروا عن ذلك، ولكان ذلك سينتهي بضرر الإسلام، ولقال العالم كله حينئذ: انظروا كيف لم يستطع الإسلام أن يبقى ويستمر، لو تمّ لهم ما أرادوه - لا سمح الله - كانوا يقولون: لقد فجر الإسلام ثورة، وأسس حكومةً ونظاماً، ولكنه لم يتمكن من الاستمرار لأكثر من عامين أو لأكثر من خمسة أعوام - مثلاً

... وكذلك: فلو أنّ هذا النظام الإسلامي قد بقي ولكن من دون أن يتقدّم ويتطوّر، لعاد ذلك بالضرر على الإسلام نفسه أيضاً، ولقالوا عندئذٍ: نعم، لقد تأسّس نظام حُكْمٍ إسلاميٍّ وعاد بالناس إلى عهد ما قبل التاريخ، وتَرَكه بلا عِلْمٍ ولا تقدّمٍ ولا تقنيّةٍ ولا حضارة!!

ولكن - بحمد الله تعالى - فقد بقيت الثورة الإسلاميّة حيّةً، وتجدّرت في الأرض، وتقدّمت من الناحية العلميّة والتقنيّة بنحوٍ حير العقول، واستطاعت أن تقدّم للعالم جيلاً شاباً نخبويّاً واعياً، فعندما نسمع - مثلاً - بأنّ الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة تحتلّ الرتبة الثامنة في العالم في الخلايا الجذعيّة، فهذا أمرٌ كبير، وكبير جدّاً.

نعم، هذا الكلام كبير جدّاً؛ لأنّ إيران المتقدّمة هذه، هي - نفسها - إيران التي حرّمتها العالم كلّ من كلّ الطاقات الأوليّة والإمكانات الأساسيّة اللّازمة لإحراز أيّ إنجازٍ على صعيد التقدّم والتطوّر في المجالين التقنيّ والعلميّ، إيران هذه هي - نفسها - إيران التي حاولت القوى الاستكباريّة الكُبرى أن تحرّب فيها بقيّة البنى التحتيّة المتواضعة التي كان الشاه الفاسد قد أبقى عليها، فقد كان هذا الأخير غارقاً حتّى أذنيه في الملاهية والمنكرات والحفلات المُترفة، غافلاً - بل متغافلاً - عن احتياجات شعبه المسحوق والمضطهد، تاركاً ثروات بلاده نهباً بأيدي سادته من الأمريكيّين والبريطانيّين، الذين استغلّوا ذلك الوضع القائم أسوأ استغلال، إذ رأوا فيه وضعاً مُلائماً لتصدير ثروات إيران - التي هي حقٌّ طبيعيٌّ لأبنائها ومواطنيها - إلى بلادهم، وبأزهد الأثمان، هذا لو كانوا - حقّاً - يبذلون أيّ ثمنٍ بإزاء ما يضعون أيديهم عليه.

أضف إلى ذلك، أنّ إيران - آنذاك - كانت تشكّل صِفراً خاوياً على صعيد الصناعات الخفيفة، فضلاً عن الصناعات الثقيلة، تماماً، كما هو الشأن حالياً في كثيرٍ من البلدان التي تعيش - مُكرهَةً أو عن رضا وطيب نفس - حالة التبعيّة

والخضوع للسياسات الكبرى، حيث تتحوّل هذه البلدان إلى مجرد سوق كبيرة مفتوحة على مصاريحها أمام الدول العظمى، لتتداول هذه الدول التبادل التجاري فيما بينها، من دون أن يؤدي ذلك إلى أن يجرّ نفعاً حقيقياً على شعوب تلك البلدان الفقيرة.

يقول الإمام القائد:

«حينما يقولون: إنّ الجمهورية الإسلامية بإطلاقها قمراً صناعياً إلى الفضاء فهي قد كانت البلد العاشر أو التاسع الذي يتمكن من فعل ذلك، ممّا أذهل جميع منافسي الجمهورية الإسلامية وأعدائها، حينما يقولون ذلك: فهذا كلام كبير جداً. فمن الذي استطاع أن يحوّل إيران ما قبل الثورة إلى إيران المتقدمة هذه؟ إنّ النظام الإسلامي.. ومن الذي استطاع أن يُحقّق لها كلّ هذا التقدم العلمي؟ ومن الذي أطلق النهضة العلمية في البلاد؟ ومن الذي استطاع أن يُوظّف الذكاء الإيرانيّ الذاتيّ لخدمة الإبداع والابتكارات؟ أهو نظام آخر سوى النظام الإسلامي؟! فقد استطاع هذا النظام الإسلامي - إذاً - أن يُثبت قدرته على البقاء والاستمرار، كما استطاع - أيضاً - أن يُثبت قدرته على التقدم بالشعب نحو الأمام... إلى أن يقول:

وحين تروُن أنّهم يُحاولون بكلّ ما أُتيح لهم أن يُمسكوا بتلابيب الجمهورية الإسلامية وأن يقضوا على هذا النظام الإسلامي، وأنهم لا يدعون له لشأنه وحاله، فإنّ هذا أكبر دليل على أنّ الجمهورية الإسلامية قد وجّهت ضربة قاسية ومُحكمة إلى جسد الاستكبار العالمي، وأنّ هذه الضربة تمكّنت من أن تقلّب أوضاعهم وأن تُزلزل كيّانهم، وهذا ما سيكون مفخرة لكلّ المسلمين وباعثاً على الاعتزاز لكلّ مسلم أينما كان يعيش في هذا العالم».

إنّ هذه الخصائص الثلاث التي تحدّث عنها الوليّ الفقيه (عليه السلام)، أعني بها:

(١) إسلاميّة النظام الحاكم في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

(٢) وقُدْرته على الديمومة والبقاء والاستمرار.

(٣) وقُدْرته - أيضاً - على النهوض بالشعب نهوضاً شاملاً يتناول مختلف مجالات الحياة.

إنّ هذه الخصائص الثلاث هي أكبر وأوضح تكذيب عمليّ قاطعٍ لكافة الدعاوى المزيفة التي لا زالت، ومنذ القَدَم، تنهالك في سبيل إثبات وجود التنافي والتضادّ بين العلم والدين، وبين الإسلام وثقافة الحياة، وبين العمل للعالم وللدين والآخرة. وإنّ هذا التكذيب العمليّ هو - كما مرّ آنفاً - أكثر وقعاً في النفوس من آلاف المحاضرات والندوات ..

وهذا ما يُفسّر لنا هذا المستوى من العداء الشديد الذي يكنّه المتضرّرون من هذا النظام الإسلاميّ في صدورهم تجاه الجمهورية الإسلامية.

كما أنّ ملاحظة نوع النشاطات والمواقف التي يتّخذونها ضدها، وقساوة العقوبات والضربات التي يُحاولون جاهدين أن يوجّهوها إليها، تكشف - لا محالة - عن أنّ العدو الحقيقيّ للنظام الإسلاميّ، ليس هو «هذه الزمرة الفلانية الصغيرة أو تلك المجموعة هنا أو هناك، ولا هو تلك الحكومة الإقليمية الفلانية العاجزة، والتي لا تمتلك لنفسها قواعد شعبية حتّى بين مواطنيها وأبناء شعبها أنفسهم، بل عدوّنا هو الأجهزة الاستكباريّة الهائلة التي يشغل موقع القرار فيها الرأسماليّون الصهاينة وأصحاب الشركات والكراتلات الكبرى في العالم، فهؤلاء هم الذين يقفون بوجه النظام الإسلاميّ، وهم - طبعاً - لا يتورّعون في المواجهة عن أن يستخدموا كافة الأساليب والأدوات».

والذي يدفعنا نحو الاعتقاد بأنّ هؤلاء هم العدو الحقيقيّ هو - مضافاً إلى ما أشار إليه القائد الخامنئي دام ظلّه - من أنّ الحكومات الصغيرة هي أعجز بكثيرٍ من أن تكون قادرةً على مواجهة النظام الإسلاميّ، لضعفها في نفسها، ولعدم تمتّعها بالشرعيّة والتأييد والمقبوليّة حتى في أوساط شعوبها أنفسهم - أنّ هذه الأجهزة

الاستكباريّة هي من المتضرّرين الأوائل من النظام الإسلاميّ، إلى درجة الشعور بأنّ كلّ كيائها ووجودها في المنطقة - وليس مصالحها وعلاقاتها فحسب - قد بات مهدّداً بالزوال.

### الوسائل المتّبعة لدى الأعداء

وانطلاقاً من المبدأ نفسه، نستطيع أن نعرف السبب الذي يدعوهم إلى عدم التورّع عن استخدام آيّة وسيلة يرون أنّها قد تفيدهم في قتالهم الدنيء هذا، ومن أهمّ هذه الوسائل:

- (١) بثّ روح الانهزام والتشكيك في عقائد الإسلام.
- (٢) دفع الشباب نحو تعاطي المخدّرات والأفيون ونحوها، واستباحة كلّ أشكال الملاهي والفساد.
- (٣) استغلال حالة الغفلة التي تغرق فيها بعض المؤسّسات الدينيّة، لغرض توجيه ضربة للشباب، وتفتيت مناعتهم التربيّة والأخلاقيّة.
- (٤) تأجيج نار الخلافات الطائفيّة والمذهبيّة، وبخاصّة: النزاع ما بين الشيعة والسنة.
- (٥) تقطيع جسد الأمّة الواحدة، وتحويل الشعب الواحد إلى فئاتٍ مشرذمة مقطّعة الأوصال، وصولاً إلى تحريض بعض هذه الفئات على بعض، وصبّ الزيت على كلّ ما من شأنه أن يُشعل أوار نار التناحر بين الأفرقاء وأبناء البيت الواحد والوطن الواحد.
- (٦) محاولة النفوذ - لو أمكنهم ذلك - لتجنيد مسؤولين رفيعي المستوى، أو من هم دونهم، في الجمهوريّة الإسلاميّة، وزرع الجواسيس والعملاء والأيدي السوداء الذين يستعملونهم في أغراضهم الإرهابيّة والتخريبية كلّما عنّ لهم ذلك.

(٧) تأسيس وسائل إعلام مشبوهة، يتمّ تسخيرها وتسليطها لخدمة غرضٍ واحد، وهو تشويه الحقائق، وتتبع عشرات النظام الإسلامي - لو كانت - وتضخيمها، لغرض التهويل على الناس، وتعميق القطيعة بين الشعوب.

يقول الإمام الخامنّي دام ظلّه: «إنّهم يبذلون مختلف أصناف الجهود والمسااعي، ولكن، بالرغم من كلّ هذه المحاولات، فإنّ المؤمنين صامدون (كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تُزيله القواصف)<sup>(٣)</sup>، وليس بوسع هذه الأعاصير، على قوّتها وشدّتها، أن تهزّ شيئاً من كيان هذه الجمهوريّة الإسلاميّة. فإنّنا حينما ننظر إلى ما في قلوبنا وما في قلوب شعبنا، نستطيع أن نعاين آثار الرحمة الإلهيّة، وعندما نلاحظ أنّ عزمنا ثابت وراسخ، وأنّ جميع تحريضات الأعداء وتهويلاتهم لم تنفع معنا، ولم تؤدّ إلى خوفنا، وأنّ جميع وعوده الكاذبة لم تستطع أن تخدعنا وأن تنطلي علينا، عندئذٍ ندرك جيّداً أنّ الرحمة الإلهيّة تُلْقِنَا وتحوطنا بالعناية والحماية. كيف لا؟! ونحن نؤمن بأنّ الله تبارك وتعالى هو وراء كلّ العوامل والأسباب الظاهريّة والمادّيّة، وأنّ يد القُدرة الإلهيّة هي وراء حفظ هذا النظام، وأنّها هي التي تتقدّم به وتهديه وتسير به نحو الأمام، كما قال إمامنا زين العابدين عليه السلام: (اللّهم إنّما يكتفي المكتفون بفضل قوّتك)<sup>(٤)</sup>».

#### الاعتماد على المدد الإلهيّ

بمناسبة الحديث عن كينيّة مواجهة أساليب الأعداء، والطريقة الصحيحة للصمود في وجه هجماتهم الحاقدة، يتعرّض الإمام القائد الخامنّي دام ظلّه لكلام منقولٍ عن الإمام عليّ بن الحسين السّجاد عليه السلام على ما في صحيفته السّجّاديّة - موصياً الجميع بالإكثار من قراءة أدعية هذه الصحيفة المباركة والاستئناس بأدعية الإمام زين العابدين عليه السلام - وهو قوله عليه السلام:

«اللّهم إنّما يكتفي المكتفون بفضل قوّتك، فصلّ على محمّد وآله واكفنا، وإنّا

يُعْطِي الْمُعْطُونَ مِنْ فَضْلِ جِدَّتِكَ، فَضْلًا عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاعْطِنَا، وَإِنَّمَا يَمْتَنِّي  
الْمُهْتَدُونَ بِنُورِ وَجْهِكَ، فَضْلًا عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاهْدِنَا. اللَّهُمَّ إِنَّكَ مَنْ وَالَيْتَ لَمْ  
يُضِرُّهُ خِذْلَانِ الْخَاذِلِينَ، وَمَنْ أَعْطَيْتَ لَمْ يَنْقُصْهُ مَنَعَ الْمَانِعِينَ، وَمَنْ هَدَيْتَ لَمْ يُغْوِهِ  
إِضْلَالُ الْمُضِلِّينَ، فَضْلًا عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَامْنَعْنَا بَعْزَكَ مِنْ عِبَادِكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ  
غَيْرِكَ بِإِرْفَادِكَ، وَاسْلُكْ بِنَا سَبِيلَ رِشَادِكَ ..»<sup>(٥)</sup>.

ويستفيد عليه السلام من هذا الكلام النوراني الصادر عن أحد أئمة الهدى عليه السلام أن  
الإمام عليه السلام يريد أن يقول لنا: إنَّ كُلَّ مَنْ لَهُمْ قُوَّةٌ وَقُدْرَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَكُلَّ الْمُكْتَافِينَ  
بذاتهم، فإنَّهم هم - في حقيقة الأمر - ضيوف مائدة قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي قَبْضَةِ  
قُدْرَتِهِ عِزٌّ وَجَلٌّ، وَعِيَالٌ عَلَيْهِ، وَمَتَعَلِّقُونَ بِهِ أَشَدَّ التَّعَلُّقِ، وَمَفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ إِلَى  
أَقْصَى دَرَجَاتِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ.. وَإِنَّ الْاعْتِمَادَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ،  
وَالِاكْتِفَاءَ بِالْكَفَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَاسْتِمْدَادِ الشَّجَاعَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْهُدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، لَا  
يُعْقَلُ أَبَدًا أَنْ يَتْرَكَ الْإِنْسَانُ فَرِيضَةً لِلْيَأْسِ، وَلَا يَجْعَلُهُ يَسْتَسْلِمُ لِلْكَسَلِ وَالْقَنُوطِ.  
يقول عليه السلام: «إِنِّي حِينَمَا أَنْظُرُ إِلَى جَمَاهِيرِ شَعْبِنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَى مِثْلَ هَذَا  
الْاعْتِمَادِ عَلَى الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، إِنْ فِي كُرْدِسْتَانٍ أَوْ فِي أَصْفَهَانَ أَوْ شِيرَازٍ أَوْ غَيْرِهَا،  
وَبَلَا فَرْقٍ بَيْنَ مَا لَوْ كَانَ شِيعَةً أَوْ سُنَّةً أَوْ بَلُوشٍ، فَأُولَئِكَ جَمِيعًا يَرَى الْإِنْسَانُ  
عَلَامَاتِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَاضِحَةً فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ.  
نعم، لقد ربط الله تعالى على القلوب، وأتمَّ علينا الحِجَّةَ بِتَوْفِيرِهِ لَنَا كُلَّ هَذِهِ  
الْإِمْكَانِيَّاتِ، وَهَذِهِ الْأَرْضِيَّةِ وَالْمَجَالِ الْمَفْتُوحِ، فَعَلَيْنَا - لَذَلِكَ - بِالتَّحَرُّكِ وَالسَّيْرِ  
نَحْوَ الْأَمَامِ».

### وظيفة رجل الدين المعاصر

إنَّ مِنْ جَمَلَةِ وَظَائِفِ رَجُلِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فِي عَصْرِنَا الْحَالِيِّ هُوَ أَنْ يُحَسِّنَ  
الِاسْتِفَادَةَ وَالِانْتِفَاعَ مِنْ هَذِهِ الْفُرْصَةِ الْكَبِيرَةِ الْمَتَّاحَةِ لِكُلِّ أَبْنَاءِ جِيلِنَا الْحَالِيِّ،



وهي فرصة أن يتعرّفوا - عملياً - على نظام الحكم في الإسلام، ليروا بأنّ أعينهم ما هي المنافع الجليلة التي يفوّتونها على أنفسهم عبر تضييعهم لهذا النظام، وعبر ترك تحكيمهم وإجرائهم لقواعد الإسلام، وعبر إبقاء تعاليمه - بحججٍ وأعداءٍ واهية - في خانة النظريات المثاليّة التي لا واقع لها، أو الفرضيّات الخياليّة التي لا تقبل التطبيق ولا يُتاح لها الخروج إلى عالم الواقع الفعليّ المعاش.

ومن جملة الوظائف الأساسيّة لعالم الدين الإسلاميّ - أيضاً -: أن يعمد إلى التعرّف على ما أمكنه من الأفكار الجديدة المطروحة على الساحة العالميّة، والاطّلاع على طرائق الأعداء وأساليبهم، أي - وباختصار -: أن يكون عالماً بزمانه. كما في الخبر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللّوابس»<sup>(٦)</sup>.

إنّ من البديهيّات الواضحة أنّ على رجل الدين - هو بشكلٍ خاصّ - أن يتحلّى ببصيرةٍ كافية، وبديهيّ أيضاً أنّه لن يُتاح له ذلك إلّا إذا كان خبيراً مثلاً بما يجري حوله، مطلّعا على قضايا عصره، إذ من دون ذلك، فهو في معرض أن تنظلي عليه اللّوابس والشبهات، فيضلّ عن الطريق الصحيح ويضلّ معه عباد الله..

وفي هذا الإطار يُشبّه الإمام الخامنيّ دام ظلّه رجل الدين بالجندي المحارب في بعض ساحات القتال، حيث تنهال القذائف عليه من كلّ حذب وصوب، وينهمر الرصاص وتندلع النيران بأصنافها المختلفة من جميع الجهات، وتمرّ فوق رأس ذلك الجنديّ الذي قد يضلّ اتّجاهه أحيانا، فلا يدري هل هذا الرصاص المنهمر - مثلاً - يُطلق من جانب العدو أم أنّه نيران صديقة؟

يقول دام ظلّه: «إنّ الخطر الذي يتهدّد مثل هذا الجنديّ المحارب هو خطرٌ كبير جدّاً، ذلك أنّه لا يوجد خطرٌ أكبر بالنسبة إلى المقاتل من أن يضلّ اتّجاهه، فلا يَعْلَم أين العدو وأين الصديق، فإنّه إذا لم يتمكّن من تمييز هذا من ذاك، فقد يفتّح

النار على الصديق ظناً منه أنه إنما يُطْلَق نيرانه على العدو. وهذه حالة خطيرة للغاية، فالبعض منا يُطْلَق النار على أصدقائه ويتوهم أنه يُطْلَقها على عدوه! والبعض منا يَغفل عن أن بثّ الخلافات الطائفية ما هو إلا مخطط يُريده العدو ليجعلنا نشتغل ببعضنا، نعم، ليجعل الغفلة تُسيطر علينا، فتُصبح ذروة همّة الشيعي في أن يضرب السنّي، وذروة همّة السنّي في أن يضرب الشيعي».

وهذا شيء مؤسف للغاية، وهو - على وجه التحديد - ما يرومه ويطمح إليه أعداء هذه الأمة. وللأسف الشديد، فإن كثيراً من الشخصيات البارزة المعروفة في عالمنا الإسلامي المعاصر قد وقع ضحية لهذا المخطط، وانطلت عليه هذه الخديعة الماكرة، فأخذ يُلقى الكلام على عواهنه بعد أن أضاع بوصلة الطريق، غافلاً عن أنه في موقع المسؤولية، وأن من كان في مثل موقعه فعليه أن يحسب حساباً للهواء الذي يتنفسه، فضلاً عن المواقف التي يتخذها، والكلمات التي يصرح بها..

وإنّا ليعتصرنا الحزن والأسى - حقاً - عندما نرى بعض كبار مفكرينا الإسلاميين، وبعض رجال الدين المعروفين، وقد تلهّوا عن قضايا الأمة المصيرية بسفاسف الأمور، وقد انصرفوا عن إيقاظ الضمائر النائمة إلى اللعب واللهو والخوض مع الخائضين..

وإذا ما أردنا أن نعبر عن هذه الفكرة بمصطلحات الفقه والفقهاء، نقول: لقد كان يُفترض بالنخبة العلمية والفكرية الإسلامية أن يكونوا في الأمة كالماء الكثير (طاهر في نفسه، مطهر لغيره مطلقاً)، إلا أن بعض هؤلاء - عوضاً عن ذلك - رضوا بأن يكونوا فيها كالماء القليل الراكد، (ينفعل بمجرد ملاقة النجس بل المتنجس).. وبذلك أن يكونوا هم المؤثرين في غيرهم، وفي محيطهم، وفي مجتمعهم، وجدناهم هم المتأثرين بالغير، وكلنا يعلم أن تغير رأس الهرم يُوجب - قهراً - سريان هذا التغير، إيجابياً كان أم سلبياً، إلى المراتب السفلى منه.

ومن ذلك ما أَلَفْنَا أن نسمعه في الآونة الأخيرة من الخطابات الفاضحة التي تصدر عن بعض المشائخ وأئمة الجمعة أو الجماعة المتلبّسين بزيّ العلم والعلماء، والمتمظهرين بمظهر الرزانة والوقار، حيث أصبح بعض هؤلاء لا ينجل في التصريح - مثلاً - بأنّه لا يرى التهديد لأمن البلاد أو العباد إلّا في نقابٍ ترتديه فتاةٌ مُسلمة هنا أو هناك، ونحن هنا لا نريد أن نحثّ على ارتداء النقاب، كما لا نريد أن ندعو إلى ترك ارتدائه، بل الأمر في هذا أو ذاك موكول إلى فتاوى من يقلّده ويتّبعه كلّ واحدٍ منّا من فقهاء الإسلام، وإنّما غرضنا - ها هنا - هو أن نُلفت أنظار الأُمّة والشعوب الواعية إلى بعض مظاهر الغفلة عن العدو الحقيقي - ولا نحبّ أبداً أن نقول: إلى بعض مظاهر موت الإرادة والشرف والضمير - لدى بعض الشخصيات العلمائيّة المعروفة، ومن الفريقين على حدّ سواء.. لا فرق عندنا - أبداً - بين هذا وذاك.. وما نريد إلّا أن نكون أنصار الحقّ والوعي أينما كان..

وهنا نتساءل:

هل - يا تُرى - إنّ قضية النقاب - مثلاً - باتت تمثّل تهديداً لأمن المسلمين ومعيشتهم وسلامهم أكبر من التهديد الذي تجسّده «إسرائيل» الصهيونيّة الغاصبة اللقيطة الغادرة في ممارسات شذاذ آفاقها اليوميّة في فلسطين المتألّمة، بل الأواهة، وفي غير فلسطين؟! هل قضية النقاب أشدّ ضرراً وفتكاً بالإسلام والمسلمين من هذا الكيان الصهيونيّ الذي يُحاول بعض رجال الدين السّدج - على أحسن التقادير - أن يُقنعوا الشعوب الأبيّة بضرورة التطبيع معها؟! وهل - يا تُرى - لم يعدّ ما يحدث اليوم على أرض اليمن العربيّة المُسلمة من سفكٍ لدماء الأبرياء - بصرف النظر عن الحقّ في النزاع هناك مع مَنْ؟ ولصالح مَنْ؟ - يشكّل تهديداً للعزّة والمنعة والوحدة الإسلاميّة والعربيّة؟! وهل - يا تُرى - لم يعدّ الفقر والجوع والجهل الذي مُنيّ به المستضعفون في

الأرض، من المسلمين وغيرهم، في العراق وغيره، يُشكّل أزمة تسترعي انتباه بعض كبار رجال الدين من الشيعة والسنة؟!

فإلى متى سيبقى بعضنا يُصرّ على استغفال عقول الناس باسم الدين؟! وكم ستبقى الجرائم تُرتكب على اسمك أيها الدين؟!

شتان بين مثل هذه الشخصيات العلمائية الساذجة، وبين الشخصية الإيمانية الواعية التي يدعو إليها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في عتابه الشهير الذي كان قد وجّهه عليه السلام في كتاب له إلى عامله على البصرة - عثمان بن حنيف الأنصاري - وقد بلغه عليه السلام أنّ الأخير قد دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها، حيث قال له عليه السلام:

«أما بعدُ يا ابن حُنيف، فقد بلغني أنّ رجلاً من فِئَةِ أهل البصرة قد دعاكَ إلى مأدبة، فأسرعتَ إليها تُسَطِّبُ لَكَ الأَلْوَان، وتُنْقِلُ إِلَيْكَ الجِفَان، وما ظننتُ أنّكَ تُجِيبُ إلى طعام قوم عائلُهُمْ مَجْفُوءٌ، وغنيُّهُم مدعوٌ...». إلى أن يقول عليه السلام: «ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تحيّر الأُطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القُرص، ولا عهد له بالشَّبَع...»، إلى آخر كلامه عليه السلام<sup>(٧)</sup>، وهو كلامٌ ثَقِيلٌ لكلّ مَنْ نَظَرَ واعتَبَرَ.

### القضية الفلسطينية مجدداً

أظنّ أنّنا لسنا نبالغ أبداً إذا ما قلنا بأننا نكاد لا نستطيع أن نعثر على خطابٍ واحدٍ من خطابات إمامنا القائد الخامنئي دام ظلّه يخلو من الحديث عن القضية الفلسطينية، بوصفها قضيةً محوريةً، بل بوصفها القضية المحورية الأولى، في أمّتنا الإسلامية، منذ النكبة عام ١٩٤٨ وحتى عامنا الحالي.. ومن هذا المنطلق، يُعرِّج دام ظلّه في خاتمة خطابه هذا على هذه القضية المفصلية ويقول:

«أريد هنا أن أسوّق المثال من قضية دعم فلسطين، حيث لم يبلغ أيّ بلد، أو

أية حكوميّة، ما بَلَّغَتْهُ الجمهوريّة الإسلاميّة في مجال دعم فلسطين، وهذا ما يَعْتَرَف به العالم كلّهُ، بل لقد وصلت الأمور إلى درجة أنّ بعض البُلدان العربيّة أظهرت امتعاضها البالغ عبر القول: بأنّ إيران لا تبذل كلّ هذه الجهود هنا إلّا من أجل مصالحها وأهدافها.. ولم يُبالِ الفلسطينيين - طبعاً - بهذا الكلام..

ومن ذلك ما حدث في قضية غزّة - في حرب الـ ٢٢ يوماً التي وقعت قبل أشهر قليلة - حيث عملت الجمهوريّة الإسلاميّة بكافة مستوياتها ومناصبها من رئاسة الجمهوريّة إلى سائر المسؤولين والمدراء وجماهير الشعب الذين شاركوا في المظاهرات الحاشدة والحرس الثوري وغيرهم، عملوا - جميعاً - على خدمة الإخوة الفلسطينيين المظلومين والمسلمين..

وفي خضمّ هذه الأزمة، شاهدنا فجأةً أن فيروساً ينتشر ويتكاثر.. حيث وجدنا بعض الناس يقصدون دوماً بعض العلماء والشخصيات المحترمة البارزة، ليقولوا لهم: من هم هؤلاء الذين تُساعدونهم؟ إنّ أهالي غزّة من النواصب! والنواصب هم أعداء أهل البيت.. وللأسف، فقد صدّق البعض هذا الكلام، وصرّنا نجد بعض الرسائل والردود التي تتحدّث عن أنّهم نواصب!

وقد قلّنا لهم: معاذ الله، ولعنة الله على الشيطان الرجيم الخبيث.. في غزّة مسجدٌ يحمل اسم مسجد الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وآخر يحمل اسم مسجد الإمام الحسين (عليه السلام)، فكيف يُعقل أن يُنسب إلى هؤلاء أنّهم نواصب؟! نعم، هم من أهل السنّة، ولكنّهم ليسوا نواصب، هكذا عليكم أن تتعاملوا معهم، وهكذا يجب أن تتحدّثوا عنهم..

وفي الاتجاه المقابل - أيضاً - يذهب جماعة ما إلى قم ليُفتشوا في طيّات الكتب والمصادر الشيعيّة في محاولةٍ لإيجاد أين أُهينت مقدّسات أهل السنّة، فيأخذون هذه الصفحات ويصوّرونها ويوزّعونها في المحافل السنّيّة، ويقولون: هذه كتب

الشيعة.. أو يجدون خطيباً جاهلاً غافلاً أو مُغرِضاً يُسيء إلى مقدّسات أهل السنّة على المنبر، فيعمدون إلى تسجيل كلامه على شريط أو قرص مضغوط ويوزّعونه هنا وهناك، ويقولون: انظروا، هؤلاء هم الشيعة، وهكذا.. يعملون على تشويه صورة هذا الفريق عند ذاك، وصورة ذاك الفريق عند هذا..».

ثم يُذكر الإمام القائد الحاضرين بقوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويرى أنّ هذه المحاولات التي لا ينفك البعض عن القيام بها تدرج تحت عنوان (فتفشلوا وتذهب ريحكم)، فإنّه عندما يشيع الخلاف والفرقة والتخوين وسوء ظنّ بعضنا ببعض، فمن الطبيعي أنّنا لن نتعاون، بل حتى لو أرغمنا أنفسنا على التعاون، فهو لن يكون تعاوناً وثيقاً وشفافاً.. وهذا بالتحديد هو ما يريده أعداء هذه الأمة.

يقول **دام ظلّه**: «على علماء الشيعة وعلماء السنّة أن يفهموا هذا ويُدركوه جيّداً، فإنّ من البديهيّ أن يختلف المذهبان في بعض الفروع، بل حتى في بعض الأصول أيضاً، إذ هما يشتركان في الكثير من الأصول والفروع الأخرى.

إنّ الاختلاف لا يعني العداء، فإنّنا كثيراً ما نجد أنّ فتاوى فقهاء الشيعة تختلف عن بعضها أحياناً بنسبة مائة وثمانين درجة، كما أنّ فتاوى أئمة أهل السنّة كذلك، تختلف عن بعضها أحياناً اختلافاً كبيراً، وليس من ضرورةٍ تدعو الإنسان - أصلاً - إلى اللّجوء إلى السباب والإساءة ضدّ من يختلف معه».

ثم يتابع **دام ظلّه**: «ينبغي أن لا يتصوّر أحدٌ أنّ أهل بيت النبي **عليه السلام** هم للشيعة فقط، كلّاً، بل هم ملكٌ لكلّ العالم الإسلاميّ. فمن ذا الذي يرفض السيّدة فاطمة الزهراء **عليها السلام**؟ أو من ذا الذي يرفض الحسن والحسين **عليهما السلام** سيّدي شباب أهل الجنّة؟ أو من ذا الذي يستطيع أن يرفض أئمة الشيعة الأجلّاء؟ بل الجميع يُجلّهم ويحترمهم، ولا أحد من المسلمين يرفضهم، غاية ما هنالك: أنّ

بعضهم يعتبرونهم أئمةً مُفترَضي الطاعة، وبعضهم لا يعتبرونهم كذلك، وهذه حقائق يجب فهمها وتكريسها.

وفي ختام هذا الخطاب العظيم للإمام الخامس عليه السلام، لا يسعنا إلا أن نوجه هذه الكلمة المختصرة - التي استخلصناها من كلامه عليه السلام - لكل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، نقول فيها:

إذا كان البعض منّا لا يستطيع أن يفهم هذا الكلام، أو لا يُعجبه أن يكون مضطراً إلى تقبله، وإذا كان البعض منّا تستفزّه تحريضات الأعداء، وتثيره وتحركه، فليخش الله تعالى، وليضع الخوف من عقابه عزّ وجلّ نصب عينيه، لئلا يكون ممن يقول فيهم تبارك وتعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

إنّ استهداف قوى الاستكبار العالمي للدين الإسلامي، هذه الجذوة الثورية الحية، وللمسلمين، هؤلاء الشعوب الحرة النابضة بالحركة والإباء وإرادة الحياة، لم يعد - البتة - أمراً خافياً على أحد..

وإذا كان هذا الأمر بهذه المثابة من الوضوح والجلال، فمن الوضوح بمكان - أيضاً - أنّ أول نقطة استهداف في جسد الأمة الإسلامية ستشكل مركز الجذب الأول لهجماتهم الحاقدة إنّما هي علماء الدين الربانيون المسلمون الذين لا يكلّون ولا يملّون ولا يفترون عن العمل في سبيل خدمة عيال الله، وإخراجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم والبصيرة والوعي، فهؤلاء العلماء هم أكثر ما يثير الرعب في نفوس أعدائنا، فمن الطبيعي لذلك أن يكونوا أول المُستَهدَفين والمهدّدين..

وعلى ذلك أن لا يُخيفهم، بل على العكس من ذلك، فإنّ استهدافهم من قبل الطاغوت وأعداء الله، ينبغي أن يكون مدعاة فخر واعتزاز لهم، كما يُفترَض به أن يشدّ من رباطة جأشهم، وأن يقوّي من عزائمهم، وأن يشحن الشجاعة

وروح الإقدام فيهم، كما قال - عز من قائل -:  
﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا  
حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].  
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

\* \* \*

### الهوامش:

- (١) الشريف الرضي، نهج البلاغة (خطب الإمام عليّ عليه السلام) ١: ٣٦، شرح الشيخ محمد عبده، الطبعة الأولى، دار الذخائر، قم، ١٤١٢ هـ.
- (٢) انظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ١: ٣٢، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، ح ٢، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، الطبعة الخامسة، ١٣٦٣ ش، ط دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (٣) الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، الأمالي: ٣١٤، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، ط مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ.
- (٤) راجع: الصحيفة السجادية (أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام): ٤٧، الدعاء الخامس (وكان من دعائه عليه السلام لنفسه ولأهل ولايته)، تحقيق السيد محمد باقر الموحّد الأبطحي الأصفهاني، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ، الناشر مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، مؤسسة الأنصاريان للطباعة والنشر، قم.
- (٥) ن. م.
- (٦) الكليني، الكافي ١: ٢٧، كتاب العقل والجهل، ح ٢٩، مصدر سابق.
- (٧) انظر: الشريف الرضي، نهج البلاغة (خطب الإمام عليّ عليه السلام) ٣: ٧٠ - ٧٥، مصدر سابق.



## الحياة السياسية الشيعية

مقاربة ومطالعة فكرية وتاريخية في تجربة الإمام الرضا عليه السلام

□ الأستاذ: نبيل علي صالح (\*)

### مقدمة

أريد بدايةً - وقبل الولوج في الحديث عن تجربة الإمام الرضا عليه السلام السياسية - أن أشير إلى نقطة مهمة وحيوية للغاية، كما أراها من وجهة نظري، وهي أننا عندما نتحدث عن واقعة أو حادثة ما، ونحلل واقع وأفكار وممارسات حالة تاريخية أو رمز من رموز التاريخ الإسلامي له دوره وقيمه وموقعيته الريادية عند هذا المذهب أو ذاك، فإننا لا نريد بذلك تكريس أية حالة من حالات الانغلاق على الذات، أو التوقع ضمن شرنقة الرأي الواحد وبناء السدود والحواجز عن باقي المذاهب الإسلامية الأخرى، ولا نهدف بالتالي إلى عزل الشيعة عن السنة أو العكس، ولا ندعي امتلاك أي فريق الحقيقة المطلقة أو المقدسة التي يجب على الفريق الآخر السير نحوها بالقوة والضغط والإكراه..

(\*) بكالوريوس هندسة الطاقة الكهربائية، باحث وكاتب سوري مهتم بشؤون وإشكاليات الثقافة العربية، حائز على جائزة المركز الأول في المسابقة الدولية عن حياة وفكر الإمام الكاظم عليه السلام.

أي: أننا لا نتوَّخى من ذلك كله تأكيد حقانيّة الشيعة أو بطلانيّة السنّة، أو العكس، ولكننا نريد إطلاع الناس والرأي العام - بمختلف تنوّعاته الفكرية والدينية والاجتماعية - على حقائق التاريخ ووقائعه ومجريات أحداثه ومساراته المتشعبة والمعقدة، كما يراها هذا الفريق أو ذاك، وكما هي في الواقع من وجهات النظر المختلفة والمتعددة القابلة للحوار والجدل؛ لنفتح من خلال هذا النوع من المداخلات والحوارات الفكرية التاريخية نقاشاً علمياً وموضوعياً صادقاً، كي يتمكن الناس من فهم ووعي الأمور والأحداث كما هي في حقيقتها وواقعيتها، وليس كما يجب أن يراها أو يرغب بها هذا الطرف أو ذاك.

من هنا نحن نتمنى على مثقفينا ونخبنا الشيعية والسنّية - وأنا لا أحب مُطلقاً توصيفها بذلك، ولكن ربّما تشاء بعض الظروف أن يتفوّه المرء بأشياء لا يرغب بتناولها - توخّي الدقّة الفكرية والوعي المعرفي العميق والمسؤولية الرسالية تجاه الله والمجتمع في كلّ ما يتعلق بالتاريخ ورموزه وأحداثه، وأيضاً قبل توجيه أيّ اتهامٍ فكريٍّ لهذا الفريق أو ذاك الباحث والمفكر قبل التأكد والبحث والتمحيص في حقائق الأمور والأشياء، خصوصاً وأننا بتنا نسمع في الآونة الأخيرة من يتّهم بعض المفكرين من أصحاب الرؤية الإسلامية الشمولية العامة (التي لا تُفرّق بين سنّي وشيعي) ومن ذوي النزعة العقلية الإسلامية المحضة والمصادقية الفكرية والوحدوية الإسلامية، بعدم الانفتاح على سائر المذاهب والتيارات الفكرية الإسلامية هنا وهناك..

من هنا، حديثنا عن الرضا عليه السلام هو حديث عن الإسلام كلّّه؛ لأنّه عليه السلام، وإن انطلق في فكره وقناعاته من قناة خطّ وفكر وحركة أهل البيت عليهم السلام الواسعة، فهو إمامٌ للأمة كلّها، وهو (بالعنوان الأوّل) إنسانٌ مسلمٌ ومؤمنٌ بخطّ الإسلام الأصيل، قبل أن يكون شيعيّ الانتماء والتوجّه.

بالإضافة إلى ما تقدّم، لا بدّ لنا أن نكون واقعيّين في مواجهتنا لأفكار

وأحداث التاريخ الإسلامي بغض النظر عن رأي السنة أو الشيعة فيه، فتاريخنا - وهذا اعتراف وإقرارٌ علنيٌّ يجب أن نواجهه جميعاً، ونبتعد عن الخطابات والشعارات المتخمة والفارغة من أية مضامين معرفية واقعية - يحفل بصراعاتٍ مزمنةٍ وخطيرةٍ على تمثيل السلطة النقية الشرعية. أي: على من هو صاحب الحق، ومن هو الأجدر والأكفاً والأفضل لتمثيل روح الإسلام الحقيقي الصحيح.. وهذا الصراع التاريخي الخطير - الذي مرّت فيه مجتمعاتنا بمحطاتٍ دمويةٍ عديدة - ليس من اليسر والسهولة وضع نهايةٍ وحدٍّ له، خصوصاً مع تفاقم أزمات ومشاكل عالمنا العربي والإسلامي، ودخول القوى الدولية الكبرى على كثيرٍ من عناوين وخطوط هذا الصراع المستديم.

كما ينبغي ألاّ يعتقد أحدٌ من العقلاء أنّ مجرد عدم إثارة قضيةٍ تاريخيةٍ خلافيةٍ هنا، وإشكاليةٍ فكريةٍ أو فقهيةٍ أو كلاميةٍ خلافيةٍ هناك، تخصّ هذا الفريق أو ذلك، سيحلّ الأزمة وينهي الصراع على الفور.. واهمّ جداً من يظنّ ذلك، وواهمّ أكثر من يعتقد بأنّ مجرد الجلوس على طاولات الحوار وتبادل السلام والابتسامات وتبويس اللّحي سيضع حدّاً للصراع المزمّن..

إنّ القضية أكبر من اللقاء والحوار، مع قناعاتنا وتأكيدنا على أهميّة التحاور واللقاء والتواصل بين كلّ تيّارات ونخب وحركات وعلماء الأمة، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، ولكنّ المشكلة هنا، أنّ هذا الصراع العميق السياسيّ ودينيّ معاً. وهنا مكمن الخطورة في هذا الاندماج الخطير بين السياسيّ والدينيّ (صراع طائفيّ بامتياز)، وتحول قضايا الخلاف التاريخية المتمحورة حول طبيعة الحكم والسياسة وأهلية القيادة والنفوذ، إلى ما يُشبه المعتقدات الدينية القطعية غير القابلة للجدل والحوار حولها بأية صورةٍ كانت. وكأنّ عقولنا أضحت مُقفلةً ومُغلقةً وغير مُؤهّلة للبحث وممارسة التقصيّ المعرفيّ والاجتهاد الدينيّ والتفكير الفلسفيّ.

وأنا عندما أستخدم هنا مصطلح الطائفية، فإنني أميزه عن الدين، الذي هو حالة راقية في الفكر والإحساس والممارسة، تجعل الإنسان يميل نحو عالم الكمال المطلق.

بل أعني بالطائفية: تلك الحالة الانغلاقية الخاصة، والفهم المتزمت للنص الديني، ولحقائق وبيدات الدين عموماً، عند هذا الطرف أو ذاك، بما يؤهل أتباعها ليُصبِحوا فرقة أو شعبة منتمة إلى الدين برسمه وحواشيه، لا بفكره ومتمنه ومضمونه الثريّ الأصيل.

وعلينا ألا ننسى هنا أنّ الصراعات الدينية والطائفية عموماً عبر كلّ هذا التاريخ، كانت إحدى عوامل دفعه وتحركه وتغييره، ولكن لم تكن العامل الرئيسيّ أو القوة المحركة الأساسية له، بل كانت هناك عوامل أخرى كالعدالة الاجتماعية والصراع الاقتصاديّ.

وأتصوّر أنّ بداية سلوك طريق العلاج والحلّ، ومن ثمّ الانتصار على داء الانغلاق والطائفية، وإنهاء الصراعات التاريخية المزمّنة، لن يتحقّق إلّا من خلال الحوار الصريح بين الأفرقاء والعمل على خلق ثقافة إنسانية مدنية تقوم على قاعدة الحرية وغرس مفهوم المواطنة الصالحة في الاجتهاد الفقهيّ السياسيّ الإسلاميّ، وكذلك تعزيز البعد الإنسانيّ في ديننا الحنيف، وتخفيف منابع التطرّف ومستنقعات التعصّب وظاهرة التكفير والتكفير المضادّ، المؤدّي إلى العنف الفرديّ والمجتمعيّ والرسميّ، وذلك بسبب كون هذه الظاهرة إحدى أخطر الظواهر التي تواجه مجتمعاتنا اليوم، ممّا يستدعي تعريتها وإظهار لاعقلانيّتها وجمودها وتشويهها للدين الإسلاميّ من خلال تقديمها له كدين يقوم على العنف وإلغاء الآخر.

وأختم بكلمة للعلامة السيّد محمد حسين فضل الله، سبق له أن قالها في أكثر من مناسبة وعلى أكثر من منبر وفي أكثر من حوار، وهي أنّه لا بدّ لنا من اتّباع

طريق الصراحة العلميّة من دون لفٍّ أو دوران، ومن دون حرجٍ في إثارة أيٍّ من المواضيع الخلافية، ضمن ترتيب الأولويات التي لا يعيش معها الحوار غيبوبةً فكريّةً بالنسبة إلى الواقع، بل يتحرّك الواقع والفكر جنباً إلى جنب، في سبيل أن يكون للحوار صدهاء في الواقع، وحركته الواقعيّة في ساحة الفكر.

### المبحث الأول: معاصرته للعهد العباسي

تعتبر دراسة الأوضاع السياسيّة - ومُجمل التطوّرات الاجتماعيّة لمرحلة الحكم العباسي التي عاصر جزءاً منها إمامنا الرضا عليه السلام - فرصةً مهمّةً لكشف الكثير من الملامسات والتعقيدات التي أحاطت بطبيعة عمل وحركة الإمام عليه السلام، وتجلّست من خلالها المشكلة (والمحنة) السياسيّة (مشكلة الأئمة - ممثّلةً برموزها العظام من الأئمة عليهم السلام - في علاقتها مع نظامها السياسيّ المستبد<sup>(١)</sup>)، التي عانى فيها أئمة أهل البيت عليه السلام في ظلّ ضغوطات الحكم العباسي<sup>(٢)</sup>، والسجلّ الحافل لحكّامه في مجال العبث بمقدّرات الأئمة، والتلاعب المجنون بإمكانيّاتها وخيراتها الوافرة التي صرفوها على الملاهي واللّهو والطغيان النفسي والسلوكي<sup>(٣)</sup>.

إنّ دراسة الواقع السياسيّ - الذي عاصره الرضا عليه السلام - يقدّم لنا صورةً حيّةً عن طبيعة الحراك السياسيّ للعالم الإسلاميّ آنذاك، وخصوصاً ما قام به ومارسه إمامنا عليه السلام في سياق بروزه كقائدٍ سياسيٍّ أصيل، ومُنقذٍ للأئمة على صعيد دعوته إلى الإصلاح والتغيير باتجاه المبادئ والقيم الإسلاميّة الحقيقيّة، وضرورة عودة الأئمة لسلوك طريق الإسلام المحمّديّ الأصيل.

فقد غلبت على هذه الفترة من تاريخنا الإسلاميّ مظاهر التنوّع والتلوّن والتعدّد في طبيعة الأفراد والمواقف والأحداث والمُعطيات السياسيّة، والمكوّنات الثقافيّة والاجتماعيّة.

لذلك كان لا بدّ من وجود أساليب سياسيّة واجتماعيّة عمليّة وواقعيّة جديدة - فيما يتعلّق بإمامنا عليه السلام - لكي يستطيع السير من خلالها في إطار حركته الدعويّة، وبثّ القوّة الروحيّة المعنويّة والمفاهيميّة في داخل الأُمّة، ومواجهة تعقيداتها السياسيّة الكبيرة، ومحاولة إعادة المجتمع الإسلاميّ المسترخي والمترهل (بعد أن أغدقت عليه الفتوحات الكثير من المغنم والموارد جعلته يستغرق في حبّ الدنيا والتثاقل إلى الأرض والقيم الأرضيّة) إلى طريق التوازن والوعي والاعتدال في خطّ الجهاد النفسيّ والعمليّ، باعتبار أنّ الأُمّة عندما تواجه اختيارات صعبةً ومسائل معقّدة يتوجّب عليها حلّها، فإنّها تحتاج إلى مَنْ يبيّن لها الطريق وينوّرهما على حقيقة هذه المسائل وعلى الاحتمالات المتعدّدة النابعة منها، وبالتالي: يُرشدها إلى اتباع الأساليب الأفضل والأضمن، والمواقف والالتزامات الأكثر قدرةً على تحديد هويّتها ومصائرهما وآمالها، والعمل على تحقيق أهداف الأُمّة ومصالحها المتعدّدة هنا وهناك.

لقد سعى الرضا عليه السلام إلى إيجاد أُطرٍ دقيقةٍ ومواقع عمليّةٍ راسخةٍ مُجمل تحرّكه الاجتماعيّ والسياسيّ<sup>(٤)</sup>، وربّما يكون قبوله بولاية العهد أحد هذه القنوات البديلة التي اعتمدها من أجل تحقيق بعض المكاسب والإنجازات للأُمّة والمجتمع الإسلاميّ، وحماية المفاهيم الأصيلة للإسلام في العقيدة والشريعة، ومحاولة فتح الساحة الإسلاميّة كلّها على واقع التجربة الإسلاميّة الصحيحة<sup>(٥)</sup>، لبيّن للناس - من خلال ذلك - ما كان يراه ضروريّاً ومناسباً ممّا تنازع فيه المتنازعون، وتخاصم حوله المتخاصمون. ليضع الحقيقة بين الناس ليحكموا على هذا الطرف أو ذاك، بالرغم من أنّه عليه السلام لم يَسأْ أبداً أن يكون في الموقع الذي يتحمّل فيه تبعات الوضع السلبيّ القائم، والممارسات الفظيعة التي كانت ترتكبها القيادات السياسيّة الحاكمة باسم الإسلام آنذاك<sup>(٦)</sup>.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن رفضه الحاسم لذلك بقوله:

«وأنا أقبل ذلك على أنني لا أولي أحداً، ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً، ولا سنةً، وأكون في الأمر - من بعيد - مشيراً»<sup>(٧)</sup>.

### المبحث الثاني: مواقف الإمام عليه السلام من حكام الظلم والجور

عاصر الإمام الرضا عليه السلام - بشكل أساسي - ثلاثة من ملوك العباسيين: هارون، والأمين، والمأمون. ويمكن تقسيم الوضع السياسي العام في الفترة التي عاش فيها إمامنا عليه السلام مع أولئك الملوك إلى مرحلتين: الأولى: مرحلة حكم المهدي والهادي والرشيد، والثانية: مرحلة حكم المأمون.

المرحلة الأولى: شهدت هذه المرحلة توترات سياسية واجتماعية كبرى على صعيد الحكم وممارسة السلطة في طبيعة العلاقة بين الأمة ورجالها وسلطاتها، وقد كانت هذه المرحلة قاسية وضاغطة على أهل البيت عليهم السلام نتيجة تعرضهم للكيد والعذاب والتنكيل والملاحقة والغدر من قبل السلطات العباسية الحاكمة. وقد شاهد الإمام الرضا عليه السلام بأم عينيه محنة أبيه الإمام الكاظم عليه السلام وهو يُنقل من سجن إلى آخر، ويُلاحق من قبل حكومة الرشيد وموسى الهادي، ويضيق عليه، حتى شهدنا نهاية المحنة في واقعة فخ، ومذبحة أهل البيت فيها، واستشهاد الحسين بن علي ابن الحسن، ومصادرة أموالهم<sup>(٨)</sup>، وإدخالهم السجون والمحابس في عهد موسى الهادي، وقطع رؤوسهم<sup>(٩)</sup>، ووضعها في أسطوانات مجوفة<sup>(١٠)</sup>.

ومن المعروف تاريخياً: أن كل تلك الأحداث العنيفة كانت تجري على مرأى ومسمع إمامنا الرضا عليه السلام، ولما استشهد والده الإمام الكاظم عليه السلام وانتهت الإمامة إليه، بقي عليه السلام وحيداً في مواجهة زعماء الملك العضوض.

(١) هارون الملقب بـ «الرشيد»<sup>(١١)</sup>:

بقي الإمام الرضا عليه السلام طيلة حكم هارون الرشيد تحت المراقبة المستمرة<sup>(١٢)</sup>،

ويبدو أن الحكومة العباسية القائمة آنذاك لم تكتفِ بمراقبته، بل إنها دفعت بأجهزتها الأمنية المختلفة لمراقبة كل الأسر العلوية التي كانت حكومات العباسيين المتلاحقة تخشاها إلى درجة الفزع والرعب.

صحيح أنه عليه السلام لم يتعرض إلى ملاحقة منظمة وتنكيل مباشر من قبل جهاز الحكم الرشدي - إذا جاز التعبير - لكنه عليه السلام لم يكن ليحيا بعيداً عن أجواء الصراع الدائر بين العلويين والعباسيين، فقد أصابه الأذى، ولحقت به محن ومصائب كثيرة.

وكما انعكست ثورة الحسين (صاحب فح) على أبيه الكاظم عليه السلام، فقد انعكست كذلك ثورة محمد بن جعفر على الإمام الرضا عليه السلام، فبعد أن أعلنت هذه الثورة حركتها التغييرية ضد الرشيد، ظفر بهم وانتصر عليهم على يد أحد قواده (الجلودي) الذي تلقى أمراً من الرشيد يقضي بالانتقام من آل أبي طالب، وقتل محمد بن جعفر إن ظفر به.

نفذ الجلودي أوامر الرشيد، وقام بالإغارة سريعاً على بيوت الطالبين، والأسر العلوية الكريمة<sup>(١٣)</sup>، وكان الإمام الرضا عليه السلام في طليعة من أصابته المعاناة والمحنة والأذى. وقد ذكر الشيخ الصدوق هذه الحوادث المؤلمة بقوله:

«وكان الجلودي في خلافة الرشيد لما خرج محمد بن جعفر للمدينة، بعثه الرشيد وأمره - إن ظفر به - أن يضرب عنقه، وأن يُغير على دور آل أبي طالب، وأن يسلب نساءهم ولا يدع على واحدةٍ منهم ثوباً جديداً، ففعل الجلودي ذلك، وقد كان قضى أبو الحسن موسى بن جعفر، فصار الجلودي إلى باب دار أبي الحسن الرضا، هجم على داره مع خيله، فلما نظر إليه الرضا عليه السلام جعل النساء كلهن في بيت، ووقف على باب البيت، فقال الجلودي لأبي الحسن: لا بد من أن أدخل فأسلبهن كما أمر أمير المؤمنين. فقال الرضا عليه السلام: أنا أسلبهن لك، وأحلف أنني لا أدع عليهن شيئاً إلا أخذته. فلم يزل يطلب إليه ويخلف له حتى



سكن. فدخل أبو الحسن الرضا عليه السلام فلم يدع عليهن شيئاً حتى أقرأتهن وخلاخيلهن وأزارهنّ إلّا أخذه منهنّ، وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير»<sup>(١٤)</sup>.

ولكن على الرغم من عدم تعرّض الرشيد للرضا عليه السلام بسوءٍ بشكلٍ مباشرٍ (سجن، تعذيب.. إلخ) - ممّا كان معروفاً عنه وعن غيره من فراعنة وطغاة التاريخ الإسلامي - إلّا أن نواياه كانت سيئة دائماً تجاهه عليه السلام، وكان مستعداً لقتله والتخلّص من وجوده الشريف في أية لحظة، خصوصاً إذا تذكّرنا بأنّ هناك فئة اسمها البرامكة كانت تحرّض الرشيد على الإمام، وتنسج خيوط المؤامرات والدسائس عليه، كما فعلت سابقاً مع أبيه الكاظم. وها هو صفوان بن يحيى يحدثنا عن ذلك قائلاً:

«مضى موسى الكاظم عليه السلام وقام ولّده من بعده: أبو الحسن الرضا، وتكلّم، خفنا عليه من قبلك، وقلنا له: إنّك أظهرت أمراً عظيماً، وإنّنا نخاف عليك من ذلك الطاغية، يعني: هارون الرشيد، قال: لِيَجْهَدَنَّ جهده، فلا سبيل له عليّ. قال صفوان: فحدّثني الثقة أنّ خالد بن يحيى البرمكيّ قال لهارون الرشيد: هذا عليّ بن موسى الرضا قد تقدّم وادّعى الأمر بنفسه، فقال هارون: يكفيننا ما صنعنا بأبيه، تريد أن نقتلهم جميعاً؟!»<sup>(١٥)</sup>.

ويبدو أنّ تلك الكلمات الأخيرة الصادرة عن الرشيد تعكس حقيقة وضعه النفسي الباطنيّ، إذ ربّما كان يشعر بالندم والإثم على ما ارتكبه بحق الإمام الكاظم عليه السلام، وهو لا يريد أن يضيف إلى سجلّه الأسود إثماً جديداً بقتل ولده الرضا عليه السلام.

ولكنّ المحاولات الكثيرة التي كانت تقوم بها حاشيته استطاعت أخيراً أن تدفعه لمحاولة الانتقام منه عليه السلام، وكانت إرادة الله تحوّل بينه وبين ما يريد. فقد جاء عن أبي الصلت الهروي أنّه قال:

كان أبو الحسن الرضا ذات يوم جالساً في بيته إذ دخل عليه رسول هارون الرشيد، وقال له: أجب أمير المؤمنين، فقام وقال لي: يا أبا الصلت، إن الرشيد لا يدعوني في هذا الوقت إلاً لداهية، فوالله لا يمكنه أن يعمل بي شيئاً أكرهه لكلمات وقعت إليّ من جدّي رسول الله ﷺ. ثم خرج وخرجت معه حتى دخل على هارون، فلما نظر إليه الرضا ﷺ قرأ تلك الكلمات. فلما وقف بين يديه نظر إليه وقال: يا أبا الحسن قد أمرنا لك ببائة ألف درهم، واكتب لنا حوائج أهلك، ارجع إلى أهلك إن أحببت. فلما قام الإمام ليرجع، قال الرشيد: أردتُ أمراً وأراد الله خلافه، وما أراد الله إلاً الخير.

## (٢) في عهد الأمين:

تسلّم الأمين قيادة الدولة بعد وفاة أبيه هارون، وقد كان هذا الرجل - الذي دامت فترة حكمه حوالي أربع سنوات وعدة شهور - غير مؤهل لتسلّم مهام رئاسة الدولة، والقيام بواجبات السلطة والحكم، وإدارة شؤون المجتمع والأمة، وذلك لما تربى عليه من قيم وضعية منحطة<sup>(١٦)</sup>. وقد خضعت الدولة العباسية خلال هذه الفترة لخضبات وهزات أمنية، واضطرابات سياسية، وصراعات وحروب دموية عنيفة<sup>(١٧)</sup>، أدخلت الأمة في أنفاق المجهول، وعرضتها لمازق اقتصادية صعبة. وخلال هذه الفترة، لم يتعرض الأمين للإمام الرضا ﷺ بسوء، ولم يُحاول الفتك أو الغدر به، وربما يعود السبب في ذلك إلى انشغاله (انشغال الأمين) بملذاته وشهواته وخلافاته الكثيرة مع أخيه المأمون، وانصرافه الدائم إلى تجنيد عسكره وأجهزته الأمنية لمراقبة تحركات المأمون، وقطع الطريق عن أي تحرّك ضده<sup>(١٨)</sup>.

### ٣) في عهد المأمون<sup>(١٩)</sup>:

أسفرت المعارك التي جرت بين أهل الواحد (حروب الإخوة الأعداء) عن فشل الأمين، ومن ثم مقتله وانتهاء حكمه، وصعود نجم أخيه المأمون، وتسلمه لعرش الإمبراطورية العباسية.

وقد اعتقد الناس أن عهد الهدوء والراحة والسكينة قد بدأ مع مجيء خليفة جديد، ولكن الرياح لم تجر كما اشتهاها أبناء الأمة. فقد باشر المأمون - بعيد استلامه الفعلي للسلطة - بحملات ملاحقة واسعة ضد كل الفئات والتيارات المناوئة لحكمه، وأمعن في صرهم، وإعدام أصحابها وقادتها. وبذلك تم القضاء على كل تلك الاضطرابات والفتن، مما وفر له (للمأمون) الأجواء المناسبة لتوطيد حكمه، وإحكام علاقته مع الفرس بتزوجه من بوران بنت الحسن بن سهل.

لقد عاش الإمام الرضا عليه السلام سنواته الأخيرة في عهد المأمون. وقد اعتبرها عليه السلام من أسوأ الأيام التي مرت عليه في حياته كلها، وذلك بسبب كثرة المضايقات والاضغوطات التي كانت تمارسها ضده السلطة المأمونية - إذا صح التعبير - بالرغم من تظاهر خليفتهما بالولاء المطلق لآل البيت عليهم السلام، وتنكرها لأساليب العنف والقمع والانتقام التي ارتكبت بحقهم في العهود السابقة<sup>(٢٠)</sup>.

لقد وعى الرضا عليه السلام حقيقة الدوافع والأفكار التي كانت تجول في خاطر المأمون وجلالوته، وأدرك خلفيات وأبعاد ما يكمن وراء تظاهر المأمون بموالاته وحبّه للإمام عليه السلام، خصوصاً بعد استدعاء المأمون له إلى خراسان.

جاء في كتاب «عيون أخبار الرضا» للشيخ الصدوق - نقلاً عن السجستاني - أنه قال: لما ورد البريد بإشخاص الرضا عليه السلام إلى خراسان، كنت أنا بالمدينة، فدخل المسجد ليودّع رسول الله صلّى الله عليه وآله، فكان يقف على القبر مودّعاً باكياً، ويخرج، ثم يرجع إليه، فعَل ذلك مراراً، ويعلو منه البكاء والنحيب، فتقدمت

إليه وسلّمت عليه وهنّأته، فردّ عليّ السلام، وقال: «ذري، فإنّي أخرج من جوار جدّي رسول الله ﷺ وأموت في غربة».

لقد كانت علاقة الإمام الرضا ﷺ بالمؤمن - قبل وأثناء ولاية العهد، وحتى استشهاده - متوتّرة باستمرار. وكانت تتقلب ما بين مدّ وجُزر، بالرّغم من محاولات المأمون إظهار محبّته له وللأئمة ﷺ، وسعيه بأنّجاه عقد مجالس النظر والحوار التي كان يجمع فيها المخالفين لأهل البيت ﷺ ليكلّمهم عن فضائل الإمام عليّ ﷺ، مستدلاً على أحقيّته بالخلافة، وأفضليّته بالحكم والقيادة<sup>(٢١)</sup>.

ولا يخفى على أيّ قارئٍ للتاريخ: أنّه كانت للمؤمن - من وراء عقْد تلك الندوات والمناظرات الفكرية بين كبار العلماء والفقهاء والمثّقين - أهدافٌ سياسيّة مبيّنة، فقد أراد أن يُظهر حبه للعلم والعلماء ليميّز نفسه عن سائر خلفاء العبّاسيين، وفي الوقت نفسه، كان يعمل دائماً على الإيقاع بالإمام الرضا ﷺ، وحشّره في هكذا مناظرات، من أجل أن يُزيل تلك المنزلة الرفيعة والنظرة العالية التي كان النّاس قد أخذوها من أهل البيت ﷺ، بشأن امتلاكهم للعلم والمعرفة المنفتحة.

وفي هذا الصدد، يقول الشيخ الصدوق:

«كان المأمون يجمع للإمام الرضا ﷺ أهل المقالات من أهل الإسلام والديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصّابئين، عسى أن يعجز عن الإجابة على أحد أسئلتهم فيحطّ من قدره في أعينهم، حسداً منه للإمام ومنزلته الاجتماعيّة، ولكن لم يقم منهم أحدٌ إلّا وقد ألزّمه حجّة كانه ألّقم حَجراً»<sup>(٢٢)</sup>.

إنّنا نلاحظ - من خلال الحديث السابق - أنّ الحالة العامّة للعلاقة بين الإمام ﷺ والمؤمن كانت غير طبيعيّة. فمن جهة، كان المأمون رجلاً محبّاً ومدافعاً عن خطّ أهل البيت ﷺ، ومن جهة أخرى، كان يعود - ولأتفه

الأسباب<sup>(٢٣)</sup> - إلى حقيقته، فيعمل على الإيقاع به وإسقاطه في عيون الناس، وإظهاره بأنه محبٌ للدنيا من خلال موافقته على ولاية العهد<sup>(٢٤)</sup>، وطرد الناس عنه.. كما حكى عن ذلك عبد السلام الهروي قائلًا:

«رُفِعَ إلى المأمون أن أبا الحسن بن موسى الرضا يعقد مجالس الكلام، والناس يُفْتَنُونَ بعلمه، فأمر محمد بن عمرو الطوسي (حاجب المأمون) بطرد الناس عن مجلسه، فدعا الإمام على المأمون، وكان من جملة ذلك الدعاء: (يا بديع، يا قوي، يا منيع، يا علي، يا رفيع، صلّ على من شَرَفَت الصلاة بالصلاة عليه، وانتقم لي ممن ظَلَمَنِي واستخفَّ بي وطردَ الشيعة عن بابي)<sup>(٢٥)</sup>».

لقد كان من الطبيعي جدًا أن تنتهي العلاقة المتوترة والشائكة بين إمامنا عليه السلام والمأمون إلى طريقٍ مسدودٍ بسبب الاختلاف الجذري في القناعات ووجهات النظر الفكرية وأساليب العمل<sup>(٢٦)</sup>، وقبل ذلك: اختلاف وعي ورؤية كل واحدٍ منهما لقضايا الحياة والإسلام والحكم والقيم.. إلخ.

ويمكننا ملاحظة ذلك بشكلٍ أساسيٍّ من خلال حادثة العيد، عندما طلب المأمون من الإمام عليه السلام أن يركب ويخصر العيد، لكن الإمام اعتذر عن ذلك بناءً على الشروط المسبقة والمتفق عليها بينهما في بداية قبوله عليه السلام بولاية العهد، الأمر الذي أثار حفيظة المأمون، فزاد في الطلب وألح في الأمر. وهنا علق الإمام قائلًا له: «اغفني، وإلا تغفني أخرج كما كان يخرج رسول الله صلى الله عليه وآله، وكما خرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام»، فأجابه المأمون: «اخرج كما تحب». وكان الناس يتوقعون حينها أن يخرج عليهم الإمام الرضا عليه السلام على هيئة الملوكة، وبآداب ورسوم خاصة، إلا أنهم دُهِشُوا لما رأوه خرج حافيًا وهو يكبر. فسقط القادة عن دوابهم، ورموا بخفافهم، وانطلقوا خلف الإمام. وكان الإمام يمشي ويقف في كل عشر خطواتٍ وقفةً ويكبر.

وبلغ المأمون ذلك، فقال له الفضل بن سهل: «يا أمير المؤمنين، إن بلغ الرضا

المصلى على هذا السبيل افتتن به الناس، فالرأي أن تسأله أن يرجع». فسأله الرجوع، فدعا أبو الحسن عليه السلام بخفه فلبسه وركب ورجع<sup>(٢٧)</sup>.

### المبحث الثالث: الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد

دفعت ظروف الاضطهاد والتنكيل والمطاردة والقمع - التي أبدعها وزاورها ملوك العباسيين (واعتبروها خطأ ونهجاً أساسياً في حكمهم) - العلويين إلى المباشرة بتنظيم أنفسهم، وإعلان تحركهم الثوري المسلح ضد السلطة العباسية التي كان المأمون ممثلاً لها (الشرعي؟! آنذاك).

لقد حاول الثوار العلويون استثمار فرصة الارتباك والخلل وحالة اللااستقرار السياسي والاجتماعي التي سادت خلال فترة الانتقال غير السلمي للسلطة من الأمين إلى أخيه (وغريمه) المأمون. وعلى هذا الأساس، تفجرت الثورات والانتفاضات المسلحة أيام المأمون في كل حدب وصوب<sup>(٢٨)</sup>، وأهبت مواقع كثيرة في أرجاء الدولة العباسية بالثورات المسلحة التي رفع قادتها رايات الجهاد، ورفض الاستعباد، والتحرر من الطغاة والظالمين، ومعهم الطليعة الواعية من العلماء والمحدثين<sup>(٢٩)</sup>...

في هذا الجو الضاغط والمشحون بالعنف والثورات.. كيف تحرك المأمون؟! وما هي ردود أفعاله على تحديات واقعه الساخنة؟!

في الواقع، عاش المأمون وضعاً قلقاً ومضطرباً، نتيجة ما لاقاه من ضغوط عملية صعبة وواسعة، من خلال أمرين اثنين:

الأول: الصراع المرير الذي اشتعل بينه وبين أخيه الأمين على العرش العباسي.

والثاني: قيام الانتفاضات والثورات العلوية ضد حكمه في كل أنحاء الدولة.

لقد قادت الحنكة السياسيّة، والمكر الواقعيّ، وعمق التفكير بطبيعة الأحداث، المأمونَ إلى نتيجة مُفادها: أنّه ولكي:

١. يأمّن الخطر الذي بدأ يُحاصِرُه من خلال وجود شخصيّة الرّضاء الشّليّة الفدّة.

٢. ويمتصّ نقمة المجتمع الغاضب.

٣. ويخفّف من وطأة الضغوط الشعبيّة المتزايدة ضدّ نهجه الظالم، على طريق إخماد الثورات والانتفاضات المشتعلة.

٤. ويكسبَ مزيداً من الأنصار والأتباع إليه، ويحصل - بالتالي - على اعترافٍ من العلويّين بشرعيّة الخلافة.

٥. ويقف بقوة في وجه التيار الثوريّ العلويّ المتعاضم، نتيجة سياسات الإرهاب وسفك الدماء وتضييع أموال الدولة وثروات الأُمّة، وفساد الإدارة، واضطراب الأمن.

٦. وبالتالي، لكي يُحافظَ على وجوده السياسيّ في الحُكم، كأعلى رأسٍ في الدولة العباسيّة، ويُقوِّيَ دعائم سُلطته.. فماذا عليه؟! ليس عليه إلّا أن:

(١) يهادن السادة العلويّين، أي: يحاول تدجينهم واحتواءهم من خلال اتّباع سياسة المكر والدهاء والترغيب والترهيب.

(٢) ويتقرّب من رموزهم وقادتهم.

(٣) ويعترف لهم بحقّ الولاية والحُكم، وبالتالي: يُوهم الناس - من أجل كسب رضاهم وودّهم - بأنّه بريءٌ كليّاً من تلك الأعمال والممارسات الظالمة التي ارتكبتها السلطات العباسيّة بحقّ أهل البيت عليه السلام.. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟!!

لقد قرّر المأمون أن يهيئ الأجواء، ويمهّد الطرق لولادة مشروعٍ سياسيٍّ

خاصَّ يَهْدَف إلى تطويق حركة الرضا عليه السلام، (مع العلم أنه لم تكن أية حركة، ولكنه كان يخشى من مجرد وجود الإمام) قبل أن تبدأ (باعتباره الإمام المعصوم الثامن المفروض الطاعة، والقائد العلوي البارز الذي يُمثِّل أهل بيت النبوة في عصره)، وذلك من خلال التقرب منه، وادعاء موالاته وأحقَّيته بالولاية والخلافة..

في هذه الظروف التاريخية الصعبة، نشأت فكرة ولاية العهد، أي: مبايعة<sup>(٣٠)</sup> المأمون للرّضا بالخلافة وولاية العهد من بعده. وانطلق المأمون بعد ذلك لتنفيذ خطته، وقام بمشاوراتٍ عديدة<sup>(٣١)</sup> مع كبار القوم عنده، من أهل الخبرة والدراية بالشؤون العامة، انتهت إلى ضرورة عرض الولاية على الرضا عليه السلام، فإذا رَفَضَ ذلك يجب تهديده بالقتل<sup>(٣٢)</sup>.

وعلى هذا الصعيد، تحدّثنا كُتُب التاريخ<sup>(٣٣)</sup> عن قيام المأمون بعرض الخلافة على الإمام الرضا عليه السلام أولاً<sup>(٣٤)</sup>، لكنّه عليه السلام رَفَضَ قبولها أشدَّ الرفض، وبقي المأمون مُدَّةً يُحاول إقناعه بالقبول، فلم يُفلح. وقد ورد أنّ محاولاته هذه استمرّت في مَرَوْ وَحَدَّهَا أَكْثَرُ من شهرين، والإمام عليه السلام يَأْبَى عليه ذلك<sup>(٣٥)</sup>، وكان عليه السلام يُجِيب المأمون بما يكره.. لكنّ الإمام عليه السلام (الذي لم يَكُنْ مُقْتَنِعاً أبداً بهذا الأمر) قَبِلَ - تَحْتَ وَطْأَةِ التهديد بالقتل - بولاية العهد المشروطة، بعد أكثر من شهرين من المحاولات الحثيثة التي قامت بها شخصيات كثيرة، كان على رأسها: رجاء بن أبي الضحّاك. وكانت البيعة له عليه السلام في السابع من شهر رمضان عام ٢٠١ هـ.

ونسجّل هنا أبرز الروايات (وأقوال الباحثين) الدالّة على عدم قناعة الرّضا عليه السلام بالولاية:

(١) جاء في كتاب مقاتل الطالبين للأصفهاني: «...فأرسلهما (يعني الفضل والحسن ابني السّهل) إلى عليّ بن موسى، فعرضّا ذلك (يعني: ولايته العهد)



عليه، فأبى، فلم يزألا عليه، وهو يأبى ذلك، ويمتنع منه.. إلى أن قال أحدهما: (والله، أَمَرَنِي بِضَرْبِ عُنُقِكَ، إِذَا خَالَفْتَ مَا يُرِيدُ؟)، ثُمَّ دَعَا بِهِ الْمَأْمُونُ، وَتَهَدَّدَهُ، فامتنع، فقال له قولاً شبيهاً بالتهديد. ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّ عَمْرَ جَعَلَ الشُّورَى فِي سِتَّةِ أَحَدِهِمْ جُدُّكَ، وَقَالَ: مَنْ خَالَفَ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ، وَلَا بَدَّ مِنْ قَبُولِ ذَلِكَ»<sup>(٣٦)</sup>.

(٢) يَرْوِي آخَرُونَ: أَنَّ الْمَأْمُونِ قَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، إِنَّمَا تُرِيدُ بِذَلِكَ (يعني: بما أَخْبَرَهُ بِهِ عَنْ آبَائِهِ مِنْ مَوْتِهِ قَبْلَهُ مَسْمُومًا) التَّخْفِيفَ عَنْ نَفْسِكَ، وَدَفَعَ هَذَا الْأَمْرَ عَنْكَ، لِيَقُولَ النَّاسُ: إِنَّكَ زَاهِدٌ فِي الدُّنْيَا.. فَقَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَاللَّهِ، مَا كَذَبْتُ مِنْذُ خَلَقَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا زَهَدْتُ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، وَإِنِّي أَعْلَمُ مَا تُرِيدُ». فَقَالَ الْمَأْمُونُ: وَمَا أُرِيدُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْأَمَانُ عَلَى الصَّدَقِ»، قَالَ: لَكَ الْأَمَانُ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: إِنَّ عَلِيًّا بْنُ مُوسَى لَمْ يَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا، بَلْ زَهَدَتْ الدُّنْيَا فِيهِ، أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ قَبِلَ وَلَايَةَ الْعَهْدِ طَمَعًا فِي الْخِلَافَةِ؟!». فَغَضِبَ الْمَأْمُونُ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ تَتَلَقَّانِي أَبَدًا بِمَا أَكْرَهُهُ. وَقَدْ أَمِنْتَ سَطَوَتِي، فَبِاللَّهِ أَقْسِمُ: لَئِنْ قَبِلْتَ وَلَايَةَ الْعَهْدِ، وَإِلَّا لَأَجْبِرُكَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ، وَإِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَكَ»<sup>(٣٧)</sup>...

(٣) وَقَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْرُضِ رَدِّهِ عَلَى سُؤَالٍ وَجَّهَهُ إِلَيْهِ الرِّيَّانُ عَنْ سِرِّ قَبُولِهِ لَوْلَايَةِ الْعَهْدِ: «.. قَدْ عَلِمَ اللَّهُ كِرَاهَتِي لِذَلِكَ، فَلَمَّا خُيِّرْتُ بَيْنَ قَبُولِ ذَلِكَ وَبَيْنَ الْقَتْلِ، اخْتَرْتُ الْقَبُولَ عَلَى الْقَتْلِ..»، إِلَى أَنْ قَالَ: «وَدَفَعْتَنِي الزُّرَّارَةُ إِلَى قَبُولِ ذَلِكَ عَلَى إِجْبَارٍ وَإِكْرَاهٍ، بَعْدَ الْإِشْرَافِ عَلَى الْهَلَاكِ... إلخ»<sup>(٣٨)</sup>.

(٤) أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْبَاحِثِينَ، فَإِنَّ مُعْظَمَهُمْ يُوَكِّدُ عَلَى رَفْضِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِهَذَا الْأَمْرِ، وَكِرَاهَتِهِ لَهُ، وَاسْتِيَاءَهُ مِنْهُ.. وَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أُجْبِرَ عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِ الْقَبُولِ بِالْوَلَايَةِ تَحْتَ وَطْأَةِ التَّهْدِيدِ بِالْقَتْلِ (وَضَرْبِ الْعُنُقِ).. وَفِي هَذَا يَقُولُ أَحْمَدُ أَمِينُ: «.. وَالزَّمَّ الرِّضَا بِذَلِكَ، فامتنع، ثُمَّ أَجَابَ..»<sup>(٣٩)</sup>. وَقَالَ الْقَنْدُوزِيُّ: «أَنَّهُ قَبِلَ وَلَايَةَ الْعَهْدِ، وَهُوَ بِالْكَرْهِ حَزِينٌ..»<sup>(٤٠)</sup>. وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ: «.. فَأَلَحَّ عَلَيْهِ (يعني:

المأمون)، فامتنع، فأقسم، فأبَرَّ قَسَمَهُ..»<sup>(٤١)</sup>..

ومن الواضح هنا، أنَّ موافقة الإمام الرضا عليه السلام على استلام (مسؤوليات ومهام؟! ) ولاية العهد جاءت محمولةً على شروطه الخاصة، التي كَشَفَتْ عن عدم رغبته الضمنية بهذا الأمر. وهذه الشروط هي:

١. لا يُولِّي أحداً.

٢. لا يَعْزِل أحداً.

٣. لا يَنْقُض رسماً.

٤. أن يكون مُشيراً من بعيدٍ في شؤون الدولة<sup>(٤٢)</sup>.

وفعلًا أجاز المأمون هذه الشروط التي تتصادم مع مصالحه وامتيازاته الخاصة، وتَفَضَّح نواياه السياسيّة الخبيثة المبيتة، وبدأ بإعلان هذا النبأ العظيم (ولاية العهد)، وأَمَرَ بِنَشْرِهِ في أرجاء الأمة الإسلاميّة.

وجلس المأمون يوم الخميس في ديوان الخلافة، وأَمَرَ وزيره الفضل بن سهل أَنْ يَخْرُجَ للناس، ويُعْلِنَ لهم عن قرار المأمون ورأيه في الإمام الرضا عليه السلام، وعزمه على البيعة بولاية العهد من بعده، وأنّه سمّاه «الرّضا»، وأبلّغهم أنّ المأمون يأمر بإبدال الشعار العبّاسيّ (لباس السواد) بالشعار الأخضر، ولُبَسَ الثياب الخضراء. وأعلنَ لهم عن عَزْم الخليفة على صَرْفِ مُرْتَبِ سنويٍّ كاملٍ بهذه المناسبة السعيدة، ثمّ طَلَبَ منهم أَنْ يَعُودُوا في الخميس القادم ليباعوا الإمام الرضا عليه السلام، وجَلَسَ المأمون وإلى جانبه الإمام الرضا عليه السلام في الموعد المحدّد للبيعة. وأقبل القوَّاد والوُجَّهَاء والقضاة، وهم يَلْبَسُونَ الملابس الخضراء..

وفي بعض تفاصيل البيعة، أَمَرَ المأمون ولدَه العبّاس ليكون أوّل المبايعين، فقام وباعَ الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد. فَرَفَعَ الرضا عليه السلام يده وقد جَعَلَ باطنها إلى النَّاس، وظاهرها مقابل وجهه، فقال له المأمون: ابْسُطْ يَدَكَ للبيعة، فقال له: «إنَّ رسولَ الله ﷺ هكَذَا كان يبايع، فبايعه الناس»<sup>(٤٣)</sup>...

وهكذا تمت المراسيم والاحتفالات بالبيعة التي لم يشهد التاريخ الإسلامي مثيلاً لها، كما قال المؤرخون. وتوافد بعدها الشعراء والأدباء والخطباء والمهنتون<sup>(٤٤)</sup>.. وبُذِلَت الأموال والعطايا والمرتبّات، وتمت البيعة كما ذُكر في رمضان سنة إحدى ومائتين للهجرة.

### خطبة الإمام الرضا عليه السلام وأحوال ما بعد البيعة:

قام الإمام عليه السلام بعد أن انتهت البيعة وتحدث بكلماتٍ وجيزة ومعبرة، تفيض بقيم المسؤولية والوعي، وتحمّل في داخلها حقيقة موقف الإمام من الحكم، وعلاقته مع السلطة من حيث انسجامه أو عدم انسجامه معها.. فقد قال عليه السلام بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ حَقًّا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا حَقًّا بِهِ، فَإِذَا أَدَيْتُمْ إِلَيْنَا ذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْنَا الْحَقُّ لَكُمْ»<sup>(٤٥)</sup>.

وخطبة الإمام خير دليل على موقفه وعدم قناعته بمستقبل البيعة، لذا أورد حين خطابه إشارة دقيقة: «فَإِذَا أَدَيْتُمْ ذَلِكَ، وَجَبَ عَلَيْنَا الْحَقُّ لَكُمْ».. ولم يكلم الناس بشيء، ولم يتحدث بلسان رجل الحكم والسلطة، فما كان يُقرّها في نفسه، ولا يريد أن يُضفي على حكم المأمون صفة الشرعية بجعل نفسه نائباً له ووصياً للملكه<sup>(٤٦)</sup>.

وبعد ذلك، استمرّ المأمون يُتابع الإجراءات العملية المتممة للبيعة، مؤكداً من خلالها أهميّة موقع الإمام الرضا عليه السلام (ظاهرياً فقط). فأمر بإصدار النقود التي نُقشَ عليها اسمه الشريف عليه السلام. وأصدر قراراته إلى كلّ الولاة الأعيان في أنحاء الدولة بضرورة ذكر اسم الإمام عليه السلام على المنابر في خطبة الجمعة، وتأكيد ولايته للعهد. وفعلاً، أُعلِنَت البيعة للإمام من على منبر رسول الله ﷺ في المدينة المنورة.

ومن أجل أن يُضفي المأمون الطابع الشخصي للعلاقة مع الرضا عليه السلام -

بهدف تضليل الرأي العام، من خلال محاولة إقناعه بحُسن نواياه وصدق مساعيه واتجاهه السياسي الذي سار عليه واختاره مع الإمام الرضا عليه السلام - قام بتزويج ابنته (أم حبيب) من الإمام عليه السلام، وعَقَدَ للإمام محمد الجواد بن الإمام الرضا عليه السلام على ابنته أم الفضل.

### أهم ردود الأفعال التي صدرت تجاه البيعة:

تباينت مواقف وردود وأفعال الناس تجاه هذا الحدث الكبير الذي اعتبره الكثيرون منهم حدثاً غريباً وغير مألوف إطلاقاً. إذ كيف يُوافق المأمون - هذا الخليفة العباسي الذي أشادت أُسرته العباسية أركان حُكمها على الدماء والصراعات والتناقضات - على نقل الخلافة وموارث السلطة وتسليم أمور الدولة وشؤون الحُكم إلى شخصٍ ينتمي إلى النهج والخطّ المناقض تماماً لتوجهاتها السياسية والثقافية والاجتماعية؟! لقد ردَّ الرضا عليه السلام من جانبه على استفسارات أنصاره ومحبيه وأتباعه، وأظهرَ لهم حقائق هذه الواقعة.

أمّا على مُستوى المأمون، فقد ارتفعت أصواتٌ كثيرةٌ مُعلنةً الاحتجاج والرّفص الشديد لهذا الأمر. وكان من بين هؤلاء الرافضين: قادةٌ ورموزٌ بين بني العباس. وقد أكّدنا سابقاً أنّ أوّل الذين أثارهم وأذْهَشهم ذلك المشروع هو الحسن بن سهل، أحد أهمّ وزراء ومُستشاري المأمون<sup>(٤٧)</sup>.

### سؤال وجواب:

ما هي الرهانات الفكرية والعملية التي أراد الإمام الرضا عليه السلام تحقيقها والعمل على إنجازها في سياق قبوله بولاية العهد (الشكلية)؟! لقد قام الرضا عليه السلام - خلال المدة الزمنية التي قضاها في ولاية العهد -

بالكثير من المهام والأعمال العلميّة والثقافيّة، والإنجازات السياسيّة (غير المباشرة). واستطاع - في الوقت نفسه - أن يهيئ الأجواء المناسبة لإظهار دقائق الفكر الإسلاميّ الأصيل وذخائر مبادئه الصافية في الفقه والشرعة والكلام والفلسفة والتفسير. وقد ركّز عليه السلام في حركته الفكرية العملية - بعد استلامه ولاية العهد - على رهانات أخلاقيّة وعلميّة وسياسيّة، يُمكن ملاحظتها ومتابعتها من خلال ما يلي:

#### (١) الرهان العلميّ والأخلاقيّ:

وجد الإمام الرضا عليه السلام - بحسب ما نزع - أن قبوله بولاية العهد يُمكن أن يساهم في تحقيق بعض المكاسب الإيجابية للخطّ الإسلاميّ المستنير الممثل بأهل البيت عليهم السلام، ويُعطيه دفعا ثقافيا ونشاطا علميا قويا وواسعا كان بأمس الحاجة إليه في ظلّ ظروف شائكة ومناخات سياسيّة واجتماعيّة ضاغطة ومعقّدة، كانت تعمل وتتحرك عكس الأهداف والتوجّهات التي سعى إليها هذا الخطّ الأصيل..

فعلى المستوى الاجتماعيّ العامّ، كان عليه السلام يعمل - كما ذكرنا في مباحث سابقة - على تعليم الناس وتثقيفهم، وربطهم عقائدياً وعاطفياً بالمبادئ والقيم الإسلاميّة الأساسيّة الواعية، (خصوصاً قضية أهل البيت عليهم السلام التي هي قضية الإسلام كلّها) التي التزم بها وعبر عنها أهل بيت النبوة عليهم السلام في كلّ سلوكهم الاجتماعيّ والسياسيّ والثقافيّ. وقد لاحظنا سلامة هذا التوجّه من خلال الإمام نفسه <sup>(٤٨)</sup>، وكذلك من خلال أصحابه وأتباعه وشيعته الذين أصبحوا فيما بعد أكثر قُدرةً ووعياً على التعامل مع قضايا الواقع والحياة والإنسان، والقيام بالمنظرات والحوارات العلميّة الواسعة مع جميع القوى والتيارات.

أما على المستوى الشخصيّ العامّ <sup>(٤٩)</sup>، فقد رأينا كيف استفاد الإمام عليه السلام الاستفادة المثلى التي تجلّت عبر إبراز شخصيّته العلميّة الغنيّة ذات الكفاءة

العالية، والتي قدّمت أفضل وأعظم الخدمات للإسلام الرساليّ من خلال كلّ تلك المناظرات والندوات والجلسات الحوارية التي كانت تجري برعاية المأمون، وبمشاركة لفيف كبير من العلماء والمفكرين المتتسبين لمختلف التيارات والعقائد الدينية والدينية (العلمانية).

روى الطبري في احتجاجه، في تفسير الإمام عليّ عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، أنّه قال: «مُشْرِقَةٌ تَنْتَظِرُ ثَوَابَ رَبِّهَا»، وأضاف إلى ذلك أنّ النبيّ عليه السلام كان يقول: «قال الله جلّ جلاله: ما آمن بي من فسر كلامي برأيه، وما عرفني من شبهني بخلقي، وما على ديني من استعمل القياس في ديني، ومن ردّ مُتشابه القرآن إلى مُحكمه، هُديّ إلى صراطٍ مستقيم». ومضى الإمام عليّ عليه السلام يقول: «من شبه الله بخلقه فهو مُشرك، ومن نسب إليه ما نهي عنه فهو كافر»<sup>(٥٠)</sup>.

## ٢) الرّهان السياسيّ:

كان الإمام الرضا عليه السلام واعياً ومُدركاً تماماً لخلفيات وخبايا واقع أمّته الحضاريّ، لذلك لم يستطع هذا الواقع الضاغط بكلّ رموزه وشخصياته أن يُخضع فكره وروحه وعقله، أو يهزم قوّته وإرادته، ولم تتمكّن القيم السكونيّة (حُبّ الاسترخاء والراحة والدعة) من الدخول إلى جوّه وطبّعه النفسيّ الخاصّ.

لقد وجد عليّ عليه السلام نفسه وسط مُعترك واقع سياسيّ معقّد ومُرتبك وشديد التنوّع (بالمعنى السلبيّ طبعاً)، فحاول أن يفهمه ويحلّله ويحيّاه من موقع وعيه هو، لا من موقع سلبّيّات الواقع ذاته..

ولذلك كان من الطبيعيّ جدّاً أن يعمل عليّ عليه السلام على مواجهة هذا الواقع السياسيّ والاجتماعيّ المنحرف عن خطّ الإسلام، والمفروض على الأمتّة بطريقة حركيّة غير مباشرة، تقوم على معيارين أساسيين في رفض أو قبول الحُكم

السياسي القائم:

١. المعيار الأول: يتعلّق بالجانب التثقيفي العقائديّ في رفض التعاون مع أيّ نظام حاكمٍ ظالمٍ لا يَسْتَمِدُّ شرعيّته من الإسلام (رَفُضَ ولاية الحاكم الجائر بالمُطلق).

٢. المعيار الثاني: يتعلّق بالجانب الحركي والواقعيّ في التعاون مع النظام الحاكم تحقيقاً للمصلحة الإسلامية العليا (القبول المؤقت بولاية الجائر).  
فعلى صعيد المعيار الأول: ثَبَّتَ الرضا عليه السلام في أذهان أصحابه وشيعته فكرة عدم جواز معاونة الظالمين، ورفض مساعدة السلطان الجائر المنحرف، وعدم الارتباط به وبرموزه مهما كانت التحديات<sup>(٥١)</sup>.

يقول عليه السلام لسليمان الجعفري، وقد سأله عن أعمال السلطان: «يا سليمان.. الدخول في أعماله والعون له والسعي في حوائجه عدل الكفر»<sup>(٥٢)</sup>.  
ويقول عليه السلام لأحد أصحابه: «... يا زياد، لَأَن أَسْقُطَ من حالق فَأَتَقَطَّ قطعةً قطعةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْدَمَ لأَحَدٍ منهم عملاً، أو أَطَأَ بَسَاطَ رَجُلٍ منهم»<sup>(٥٣)</sup>.  
ويقول عليه السلام عن آبائه عن رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرْضَى سُلْطَاناً بِمَا يُسْخِطُ الله خَرَجَ من دين الله عزَّ وجلَّ»<sup>(٥٤)</sup>.

ويتأكّد هذا الموقف المبدئيّ الصحيح أكثر فأكثر، من خلال استعراضنا لموقف ورأي الرضا عليه السلام من انتفاضات وثورات العلويين ضدّ الحُكْم السياسيّ الظالم. حيث لم ينظر عليه السلام نظرةً سلبيةً إلى تلك التحركات الثوريّة من حيث طبيعة المبدأ الثوريّ ذاته، وما يَحْتَرِزُهُ في داخله من مُناهضةٍ للظلم ورفض العدوان والطغيان والجور والباطل، بل كان عليه السلام - كغيره من أئمة أهل البيت عليه السلام - يُبارك كلّ ثائرٍ على الظلم والظالمين (حتّى ولو لم يَنجَحْ عسكرياً) إذا كانت ثورته - طبعاً - ضِمنَ الحدود المشروعة وتتحرك ضمن خطّ المسؤولية بما يَحْفَظُ مصالح النّاس والأمة<sup>(٥٥)</sup>؛ لأنّ الثورة النزيهة تَكْشِفُ - في الغالب -

للسعوب زَيْفَ الحُكَّام، وَتَفْضَحَ واقِعهم الكريه وممارساتهم الظالمة بحق الأمة، وتترك وراءها فئة تُحسّ بالظلم والتجاوزات وتُحاسب عليها، وأحياناً تَضطرّ الحاكم إلى تصحيح سلوكه ووسائل حُكمه إلى حدٍّ ما<sup>(٥٦)</sup>.

إنّ الاعتراض الوحيد الذي وجَّهه الإمام عليه السلام إلى بعض الثائرين العلويين، هو احتجاجه وإدانتته لسلوكهم الناري أحياناً ضدّ المجتمع، وانخداعهم ببعض الأصوات التي كانت تهتف باسمهم فيدعون ما ليس لهم، ويُخرجون للثورة بدون تخطيطٍ وتنظيم، ومن دون وجود هدفٍ أو مصلحةٍ عُلِّيا للأمة<sup>(٥٧)</sup>، وبالتالي: يكون نصيبهم القتل والتشريد ووضع المجتمع في مواجهةٍ خاسرةٍ مع نفسه.

وقد لاحظنا كيف عبّر الإمام الرضا عليه السلام عن رفضه الحاسم لكلّ تجاوزات أخيه زيد، الملقَّب بـ «زيد النار»، حيث وَقَفَ منه ومن عدوانه على المجتمع<sup>(٥٨)</sup> موقفاً سلبياً متصلباً.

إنّنا نعتقد أنّ تحريم الرضا عليه السلام اللّجوء إلى (والتعاون مع) السلطات والأنظمة الجائرة لم يَنطلق من حالةٍ نفسيةٍ مزاجيةٍ ارتبطت بطبيعة الأجواء المشنّجة التي عاشتها أُمّتنا الإسلامية خلال ذلك التاريخ، ولكنّها جاءت مُتّسقةً في إطار صيغةٍ سياسيةٍ عمليةٍ كانت تَهْدَفُ إلى تأكيد وتجذير حالة الرفض النفسي والعملي للكيانات الظالمة اللّاشريعية، من خلال العمل المتواصل على توعية الأمة وتنقيفها سياسياً وعقائدياً على معنى الحُكم العادل ومعنى الحُكم الظالم.

أمّا بالنسبة للمعيار الثاني (التعاون المؤقت مع ولاية الجائر)<sup>(٥٩)</sup>: فقد انطلق إمامنا عليه السلام على هذا المستوى بكلّ ما لديه من طاقات، حيث سلك طريق الدعوة إلى الإسلام، وترسيخ أبعاده المعرفية والعقائدية في ذهنية الأمة، بما في ذلك التوعية العقائدية والتثقيف السياسيّ بالإسلام (بصورةٍ غير مباشرةٍ طبعاً)



من دون أن يَسْمَحَ لنفسه (ولغيره من الأصحاب والشيعة) بأن يكون جزءاً من الواقع السياسي القائم - في نظر الإمام عليه السلام - على ضوابط وأسس غير شرعية . وقد اعترض البعض على قبول الإمام عليه السلام بالولاية، ورضاه بالتعاون مع نظام المأمون (بالرغم من أنه لم يفعل ذلك مطلقاً) قائلين: يكفي أن اسمك قد ذُكِرَ معهم حتى تصبح جزءاً منهم؟! فقال عليه السلام: «الأنبياء أفضل أم الأوصياء؟!» قالوا: الأنبياء. قال عليه السلام: «السلطان المشرك أسوأ أم السلطان المسلم الفاسق؟»، قالوا: السلطان المشرك. قال: «أيها أشد، الذي يتعاون طالباً بذلك، أم الذي يُفرض عليه ذلك؟!» قالوا: الذي يطلبه. فقال عليه السلام: «كان يوسف الصديق نبياً، وعزيز مصر كان كافراً مشركاً، ويوسف طلب بنفسه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾» [يوسف: ٥٥]. فقد أراد أن يأخذ موقعاً بحيث يُحسن الاستفادة من ذلك الموقع، إضافةً إلى أن عزيز مصر كان كافراً، والمأمون مسلمٌ فاسق. «لقد كان يوسف نبياً، وأنا وصي نبي، هو طلب ذلك، وأنا أُجبرْتُ على ذلك»<sup>(٦٠)</sup>.

#### المبحث الرابع: المضامين الحركية العامة لسيرة الإمام الرضا عليه السلام في المجال السياسي.. (تأملات عامة وقراءة معاصرة)

يُمكن لتجربة الإمام الرضا عليه السلام في الجانب السياسي - وفي غيره من الجوانب طبعاً - أن تضع بين أيدينا وعياً سياسياً مباشراً حول كيفية التعامل والمشاركة (أو عدم المشاركة) في الواقع اليومي المباشر للحكم السياسي الخاص بهذا النظام أو ذاك.

إنّ تلك المسألة خاضعةٌ - في تصوّري - لمدى توافر القدرات والاستعدادات والقابليات النوعية العالية لدى الفرد الملتزم (وعِيٍّ والتزامٍ عقائديٍّ متين، إرادةً علميةً خيرةً، صبرٌ إيجابيٌّ متوثّب... إلخ) القادرة على تحقيق المصلحة

الإسلامية.

لكن لا بدّ لهذا النوع من (الدخول إلى جسم الحكم) من أن يكون مُحْكَمًا ومضبوطاً بشكلٍ كَلِّيٍّ (قبول سلبيّ)، كما أنّ الامتناع عنه ورفض شرعيّة وجوده (رفض إيجابيّ) لا بدّ أن يأتي مدروساً ومنظماً. ونلاحظ - ضمن هذا الاتجاه - أنّه على الرّغم من وجود كلّ التعقيدات والضغوطات التي يُمكن أن تُحيط بطبيعة الانخراط في العمل السياسيّ للنظام العامّ، يبدو لنا أنّ سلبيّات التعامل المضبوط مع الأنظمة الحاكمة غير الشرعيّة أفضل بكثير من كلّ إيجابيّات الانعزال عن الواقع والركون إلى الزوايا المهملة والبقاء بعيداً خارج إطار آليّة الحُكم وتداول السلطة (إذا كان هناك مجالٌ لتداولها طبعاً).

وهذا الكلام لا يعني بالضرورة أنّه يجب على الإسلاميين الدخول العميق إلى التفاصيل الدقيقة لآليّة الحُكم ومفاصل النظام السياسيّ الداخليّة والخارجيّة ككلّ، وما يربّته من رضا نفسيّ وعمليّ بكلّ الأحداث والقضايا والمسائل المتحرّكة على هذا المستوى، وإمضاء شرعيّة وجود النظام الحاكم الظالم والمستبدّ بكلّ أجوائه ومواقعه.. ولكنّه يعني ضرورة دراسة هذه التفاصيل، ووعي حقيقتها من الداخل، والوقوف مطوّلاً أمام مُلابساتها وظروفها، ومن ثمّ إعطاء الرأي السديد (إيجابياً أو سلباً) بشأنها.

من هنا يُمكننا أن نعتبر هذا الدخول المباشر - أو غير المباشر - إلى بعض مواقع وأجواء النظام السياسيّ القائم (أيّ نظام سياسيّ غير إسلاميّ الهويّة والطرح والامتداد) خطوةً أولى على طريق تهيئة الظروف وملاءمة الأوضاع لتنمية وعي الإنسان والفرد المسلم بإسلامه وقضاياها الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة.

وقد أدّى الإمام الرضا عليه السلام هذا الدور الرساليّ الكبير على خروجه، واستطاع - بالرّغم من التحدّيات القاسية التي واجهته - إجلاء الغموض

واللّبس عن كثيرٍ من المفاهيم والتصورات الإسلامية الأصلية، وعرضها بأروع الصور وأنقى المضامين وأنصع البيانات، وذلك بهدف الحفاظ على طهارتها وأصالتها ونضارتها في ذهنية المجتمع وذاكرة الأمة.

إنّ قبول الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد، ونزوله <sup>(٦١)</sup> إلى أرض الواقع المليء بالأشواك والحُفَر - في إطار تمسكه بإسلام الأمة والجاهير، وسعيه لخدمة مبادئه الرسالية وأنظمتها الفكرية والعملية - يُمكن أن يُقدّم لأبناء الجيل الحاضر درساً عملياً مفيداً فيما يتعلّق بكيفية استلهام حركية الإمام عليه السلام في كيفية تعامله مع الواقع والظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية. ونستطيع أن نعبر عن ذلك في النقاط التالية:

١) العمل على تحديد مشكلات واقعنا العربي والإسلامي المعاصر، الذي يعجّ بالسلبات والانقسامات <sup>(٦٢)</sup>.. أي: محاولة فهم أسباب الأزمة الحضارية المستمرة لمجتمعاتنا الإسلامية، كما حدّد وفهم الرضا عليه السلام أزمة مجتمعه وظروف عصره الذي عايشه بكلّ قسوته وقلقه، وهذه الأزمة الراهنة هي بالأساس ذات جذر معرفي وثقافي بامتياز.

٢) التركيز المكثف والغني على أهمية ودور منظومة القيم الأخلاقية الإسلامية المتبصرة والمنفتحة على الحياة، في قيادة مجتمعاتنا إلى شاطئ وبرّ الأمان، وإنقاذها من أزمتها المتوالية، وإيقاظها من سباتها العميق الذي طال أمده، ومحاولة إرجاعها إلى الساحة العالمية لكي تُمارس دورها الحضاري الرائد إلى جانب باقي حضارات وثقافات العالم. وهذا الأمر مرتبط - إلى حدّ كبير - بمسألة الأخلاق نفسها، وإيماننا بأنّها لا يُمكن أن تُقرّض من فوق بقوة الأدوات السياسية (وغير السياسية) المعروفة، ولا بقهر القوانين الإدارية والمراسيم الحقوقية، ولكنّها تأتي إلى حيّز التطبيق من خلال توعية الناس والمجتمع، والعمل المستمرّ على تعميق صلتهم الروحية بالله تعالى، وبقيمتهم

الدينية المعنوية العملية، باعتبار أنَّ للأخلاق والمعنويات الإسلامية ثماراً حقيقيةً يُمكن أن تُبلور الوعي الجمالي بالحياة والإنسان، وتعزز حسَّ الانشداد في داخله إلى الميل الروحيِّ والمفاهيم نحو المبدأ والمثل الأعلى (الله تعالى) ومُطلق الكون والوجود والحياة.

وهذه مسألةٌ مهمَّةٌ جدًّا ينبغي تحديد مسؤولياتنا تجاهها، خصوصاً في ظلِّ وجود تياراتٍ وقوى ثقافيَّة وسياسيَّة راهنة (دينيَّة وعلمانيَّة على حدٍّ سواء) يدَّعي مُعظَّمها امتلاك أفكارٍ ومعارف ومُعطياتٍ ثقافيَّة قادرةٍ وحدها - كما يدَّعي أتباعها - على استلام زمام المبادرة الفعَّالة الخاصَّة بِتمثُل وتحقيق قيم النهوض والتنمية في مجالنا السياسي والاجتماعي الإسلامي، وذلك من خلال زرع قيمٍ ثقافيَّة وسياسيَّة غير صالحة للاستنبات والنمو في تربتنا الإسلاميَّة.

(٣) تعزيز النقد البناء في حركة المجتمع الإسلامي:

يقول الإمام الرضا عليه السلام: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كلِّ يومٍ، فإنَّ عمَلَ حسنًا استزاد الله، وإنَّ عمَلَ سيئاً استغفرَ الله وتاب إليه»<sup>(٦٣)</sup>.

إنَّ دراسة هذا النصِّ تُفيدنا في تحديد رؤية الإمام عليه السلام لمسألة النقد، وذلك من خلال التأكيد على ضرورة تعميق الروح النقديَّة والحسَّ النقديِّ العمليِّ على المستويين: الذاتيِّ الداخليِّ، والموضوعيِّ الخارجيِّ، في كافَّة مفاصل اجتماعنا الدينيِّ العربيِّ والإسلاميِّ الحاليِّ، وإعلاء كلمة العقل، وترسيخ مبدأ العقلانيَّة الواقعيَّة، والعمل على إيجاد تُربته المناسبة. وذلك من أجل الكشف عن حقيقة أزمات<sup>(٦٤)</sup> الواقع المعاصر الذي نحياه ونُعاشيه بإيجابياته وسلبيَّاته، وتحليل ظروفه وأحواله المختلفة، وأخذ العِبَر والدروس منه، بحيثُ يقودنا ذلك إلى ضرورة تجديد الروح الإسلاميَّة، والعقل الإسلاميِّ، والانفتاح على العالم والحياة، واعتماد مبدأ الاجتهاد والتجديد، والروح العلميَّة المجرَّدة، والرؤية الموضوعيَّة للذات والإنسان وللعالم بشكلٍ دائم.

ولذلك عندما يُصبح حقّ التدخّل والنقد والمحاسبة والأمر بالمعروف ومُعَارَضَة السلطة الظالمة ومواجهة السلطان الجائر والفساد، من الواجبات الأساسية التي يَحِبّ العمل على تركيزها في واقع وحركة الأمة<sup>(٦٥)</sup>، فلا يُمكن الحديث بعد ذلك عن مشروع الدولة الشموليّة وسلطتها المستقلّة والمنفصلة عن المجتمع والأمة. أي: التي تقوم على نفي أيّ دورٍ لأفراد المجتمع في تداول السلطة، وعدم اعتبار الأمة مصدرًا للحُكم والسلطة، ممّا يُفقد هذه السلطة شرعيّة الوجود في الوجدان المجتمعيّ الشعبيّ.

إنّ السلطة القائمة (أية سلطة) لا تُصبح شرعيّة في وجودها وعملها وتحتّط برضا الأمة والشعب إلّا عندما تقوم على احترام حقّ المجتمع في معارضة توجّهاتها المختلفة، ونقد سياساتها العمليّة، بحيث يكون هذا الحقّ سُلطة قانونيّة مُوازية لسلطة الدولة نفسها.

من هنا نجد: أنّه من الضروريّ جدًّا العمل على هذا الصعيد بالتّجاهين اثنين يُكمّل أحدهما الآخر ويلازمه:

الأوّل: اتّجاه التّأويل، أي: تأويل النصوص الإسلاميّة لمصلحة تعزيز سلطة المجتمع وحرّيّة الفرد والجماعة، وتثبيت حقّ النقض والاعتراض والتصويت والتصحيح، وحتّى الثورة على الحاكم الجائر وتغييره. وإلى ما هنالك من حقوق هائلة على نحوٍ لا يُخرج هذه النصوص عن دلائلها الحيّة الصريحة<sup>(٦٦)</sup>.

الثاني: تنظيم واجب التبليغ والدعوة في المجال الإجماليّ والعمليّ، من خلال إعادة النظر في مهمّة المبلّغ نفسها، وذلك بالعودة إلى ينباع والأصول التي أعطى لهذه المهمّة الرساليّة صفة السلطة الموازيّة، وإقامتها على قاعدة الحرّيّة والمسؤوليّة، وعلى مبدأ (كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤولٌ عن رعيّته)، بحيث يكون لكلّ فردٍ من أفراد المجتمع والأمة - ما دام يمتلك حقّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - سُلطة عامّة هي سُلطة النقد غير المحصورة، والتي تطلّ كلّ

الدوائر في المجتمع وفي الدولة. وبهذا المعنى، فكل فرد هو عضو فعّال في السلطة، ومسؤول أمام الله والمجتمع، عليه القيام بواجب ومسؤولية ممارسة أشكال النقد والمعارضة المختلفة في كل حقول التوجيه الروحي والماديّ إعلاءً لقيم الأمة وأهدافها الرسالية العليا.

من هنا نجد: أهميّة الرّبط بين الممارسات النقدية المسؤولة التي يقوم بها الدعاة والمبلّغون وبين المؤسسات الأهلية القائمة في المجتمع، وما يرتبط فيها من هيئات وقوى وتيارات تُناهض وتجاهد من أجل تحديث المجتمع السياسي، وتعميم الحريّات السياسية للفرد والمجتمع، والداعية إلى مبدأ تداول السلطة وإصلاحها واسترداد شرعيّتها وإرجاعها إلى قلب الأمة؛ لأنّ في هذا الرّبط بين مهمّة المبلّغ وبين المهمّات الاجتماعية والسياسية الحيوية تجديداً لدور المبلّغ في مجال ترسيخ الحسّ النقدي لدى أبناء المجتمع وممارسة حقّ المعارضة، واستنقاداً لهذا الدور من هامشيّته التاريخية، ووضعاً له في موضعه الطبيعيّ من حياة الناس وهمومهم الجديّة والمصيرية.

٤) إنّ آية دعوة رسالية تستهدف ترسيخ قيم العدل والحريّة والانتفاء لله تعالى لا بدّ أن تُواجه بمصاعب وتحديات جمة من قبل الكافرين والحاquدين والظالمين (تماماً كما ووجه إماننا الرضا بأمثال هؤلاء). لذلك يجب على العاملين السائرين في هذا الطريق الصعب والطويل، أن يشعروا جدياً بأنّ العمل في سبيل الله يُكلّف صاحبه كثيراً من الدموع والدماء، وهو بالتالي ليس نزهة يُرفّه فيها عن نفسه هنا وهناك.

وبهذا المعنى، لا يعود العمل الرساليّ الإسلاميّ مجرد صرخة في فضاء المساجد، أو دعوة (دينيّة) ساذجة خالية من أيّ عقل يفكر، أو إحساس يعي، أو معنى يتحرّك، ولكنّه - كما هو في مفهومه الحقيقيّ الأصيل - أن تقف في ساحة الحياة لتَنظُر في مواقعها وأوضاعها الظاهرة والمخفية، وتُدْرَس كلّ

انحرافاتهما، وتَعَمَل على التخلّص منها بوعْي وثقة وثبات. ثم تنطلق بعملية المواجهة الصادقة ضدّ كلّ أنواع الظُّلم ومُختلف نماذجه وأساليبه، سواء على المستوى الفرديّ في علاقتك مع نفسك، وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، أو على المستوى الاجتماعيّ في علاقة الجماعات مع بعضها، وفي أوضاع الحُكم والحاكمين، وعلاقة الحُكم القائم بالشعب، وعلاقات الدول بعضها ببعض.

إنّ الإنسان الرساليّ الذي يُريد أن يَصِل إلى هذه المرحلة المتقدّمة من الوعي الفاعل والهادف لا بدّ أن يؤسّس بُنيانه وكيانه النفسيّ والعمليّ على تقوى الله، لكي يكون بمقدوره تحمّل كلّ الضغوط والمشاكل بصلاية وعزيمة، فلا يَئحني أمامها بضعفٍ واهتزاز، بل يُحاول أن يَفتحهما بقوة وتصميمٍ على النصر والفوز الأكيد.

فالمطلوب من الإنسان الرساليّ - إذاً - هو:

أ. أن يقف مع الإنسان المُستضعف والأمة المُستضعفة قلباً وقالباً ووعياً وسلوكاً وحركة، فيتحمّس آلام النّاس المُستضعفين، ويلازم معاناتهم، ويُعيش قضاياهم الخاصّة والعامة، ويتحمّل في سبيلهم كلّ أنواع التحدّيات والمشاكل النفسيّة والعمليّة.

ب. أن يُربيّ الأمة ويصوغها رسالياً وعقائدياً بالمستوى الذي تستطيع فيه أن تملك قوّة الموقف، وصلاية المبدأ والإرادة، لتُزيل الحاكم إذا طغى وتَجَبّر وظلّم، وتزيله من مواقعه التي يُريد الوصول من خلالها إلى مصالحه الخاصّة.

ج. أن يمتلك ثقافة الحياة والعصر الذي يعيش فيه، ليكون قادراً على امتلاك أُسس التعامل معها بتنوّعاته وأحواله المختلفة. من أجل فهم ودراسة شروط ومناخات إدخال الإسلام إلى ذهنيّة العالم المُعاصر بالطريقة التي تُحقّق له الكثير من النتائج الإيجابيّة على المستوى الروحيّ والمفاهيميّ.

ولكن، يَبقى الأمر الذي يُلحقنا باستمرار - نحن أبناء هذا العصر - هو أنّ

الإمام الرضا عليه السلام قد طرَحَ على نفسه أكثر من سؤال، ووَضَعَ له أكثر من جواب، ودعا إلى الإسلام الإنساني الصحيح، وقام بتأصيل ثوابته وأركانه في ذهنيَّة الأمة، بالرَّغم من وجود أزماتٍ سياسيَّة واجتماعيَّة عاشها عليه السلام.. ونحن نعيش هنا في ظلِّ واقعٍ آخرٍ جديدٍ يَفْرِضُ نفسه علينا بقوة، ويَطْلُبُ مِنَّا باستمرارٍ أن نَسْتَجِيبَ لتحدياته ومُتغيِّراته، لذلك، علينا أن نَطْرَحَ على أنفسنا الكثير من الأسئلة العمليَّة الواعيَّة، لِنُحدِّدَ من خلالها حجم مشكلاتنا ومصاعبنا بما يساعدنا على اختيار المناهج والإجابات الأفضل والأمثل التي تُساعدنا على تحقيق وجودنا وذاتنا الحضاريَّة الحيَّرة والمعْطاءة التي وَضَعَهَا الله تعالى في موضع الشهود الحضاريِّ على الآخرين.

\* \* \*

### الهوامش:

(١) تتكشَّف محنة الأمة - في أعلى تعابيرها السلبية - بعد دراستنا المتأنِّية والدقيقة لمختلف الأساليب والتوجَّهات العمليَّة التي اعتمدها وسلکہا الخلفاء والملوك في إدارة شؤون الحكم والخلافة، وتحليلنا لطبيعة علاقة الحكم بالأمة، واتِّجاهات الرأي العامِّ المختلفة في داخل المجتمع، وأساليب مواجهة المعارضة الموجودة التي كانت - كما يبدو - من أهمِّ وأخطر العقبات التي بدأت تُواجهها السلطات المستبدَّة التي حكمت الأمة، وتحكَّمت بكثيرٍ من توجَّهاتها ومساراتها المستقبلية على صعيد الحكم وشؤون المجتمع ومصالح الناس..

(٢) نستثني منها جزئياً فترة الانفراج القصيرة التي عاشها الإمام الرضا عليه السلام أيام المأمون.

(٣) للوقوف على مواقع الهدر ومختلف أساليب ووسائل التبذير والإسراف يمكن مراجعة المصادر التالية: كتاب الأغاني للأصفهاني، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦: ٢٩٣-٢٩٥، دار صادر، ١٩٦٥؛ تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٨٦، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٢؛ مروج الذهب للمسعودي ٣: ٣١٦.

(٤) نوَّكد هنا على أنَّ الإمام الرضا عليه السلام لم يتحرَّك سياسياً بالمعنى الاصطلاحيِّ الحركيِّ الراهن للكلمة، ولكنَّ السلطات السياسيَّة الحاكمة كانت تُشعر بأنَّ وجود الإمام (مجرَّد وجوده) وظهوره في أيِّ موقعٍ من مواقع الحياة، فيه نوعٌ من الممارسة السياسيَّة المضادَّة والمخالفة لتوجَّهاتها



السياسية وأساليبها في الحكم وإدارة الدولة. وربما يكون هذا الانفعال النفسي - الذي كان يعتري السلطات الحاكمة آنذاك - حالةً وشعوراً ذاتياً صادقاً بعدم شرعية وجودها على رأس السلطة المغتصبة. لذلك، فهي تَحْشَى من الشرعية الجماهيرية والامتداد الشعبي الواسع الذي كان يتمتع به الإمام الرضا عليه السلام، وخطأ أهل البيت عموماً في وجدان الناس.. وهذا ما كان يدفعها باستمرار إلى اتباع أسلوب القمع والضرب بالحديد والنار على أية حركة ثقافية أو سياسية أو اجتماعية كان يمارسها عليه السلام في هذا الموقع أو ذاك.

(٥) لقد استثمر الرضا عليه السلام هذا الأمر تماماً منذ البداية، حيث اعتبر أن في موقف المأمون ما يُثبت أحقية أهل البيت عليه السلام بالولاية والحكم.. يقول عليه السلام: «الحمد لله الذي حفظ ما صَبَّحَ الناس، ورفع منا ما وَضَعوه حتى لقد لُعِنَّا على منابر الكُفْر ثمانين عاماً، وَكُتِمَتْ فضائلنا، وَبُدِلَتْ الأموال في الكذب علينا، والله يأبى لنا إلا أن يُعْلِي ذِكْرنا وَيُبَيِّن فضائلنا». راجع: عيون أخبار الرضا ٢: ١٦٢.

(٦) كي لا يظن أحد بأن الإمام عليه السلام - المُشْرِف عموماً على جهاز الدولة - هو الذي يُصْدِر القرارات، ويُعْطِي الأوامر ويُدَبِّر الأمور ويتدخل في شؤون الخاصة والعامة.

(٧) عيون أخبار الرضا ٢: ١٤٨؛ نور الأبصار: ١٤٣، الإرشاد (للمفيد): ٣٦٠، الكافي (الكُلَيْنِي) ١: ٤٨٧، روضة الواعظين: ٢٢٤، إعلام الوري: ٣٢٠.

(٨) انظر: تاريخ الخلفاء: ١٠٢، والمجلسي، بحار الأنوار ٤٩: ٢١٠.

(٩) راجع: الطبري، تاريخ الطبري ٦: ٣٢٠.

(١٠) رسائل أبي بكر الخوارزمي، (رسالته إلى شيعة نيسابور): ٧٨، ط ١٣١٢ هـ.

(١١) يقول عنه شكيب أرسلان في تعليقه على حاضر العالم الإسلامي، والتي نقلها عنه محمد بن عقيل في الصفحة ٢٠ من كتابه «العتب الجميل» (وهو من منشورات هيئة البحوث الإسلامية في أندونيسيا): «وكان جباراً سفاكاً للدماء، على نمط من ملوك الشرق». وقد روى المؤرخون وكتاب السير والتراجم الشيء الكثير عنه، وأكدوا بغالبيتهم الغالبة على «أن هارون كان حريصاً على اللذات المحرمة، وسفك الدماء، وقتل الأبرياء، وغصب حقوق الناس، وظلم أهل البيت عليه السلام، وكانت جوائزهم خاصة لأهل اللهو واللعب والمغنين والراقصات..». راجع كتابنا: الإمام الكاظم عليه السلام.. ألقى الفكر وأصالة الانتفاء، ص ٩٠-٩١، دار الغدير، ١٩٩٩.

(١٢) كان هارون يطلع باستمرار على التفاصيل الدقيقة الخاصة بتحركات الرضا عليه السلام عن طريق عصابة من رجال الأمن كُلِّفها بمراقبته. وقد شعر الإمام الرضا عليه السلام بذلك فأراد التخلص منه، فمضى ذات مرة إلى السوق، واشترى ديكاً وكلباً وشاة، ووصل الخبر إلى هارون فانشرح صدره،

وظَنَّ بآئه قد استراح من ناحية الإمام عليه السلام، وآئه عليه السلام ليس أهلاً أن يقوم بأيَّ تحرُّكٍ ضده، عند ذلك، أمرَ هارون رجاله بالتوقُّف عن مراقبته. راجع: سفينة البحار ١٢: ٣٢.

(١٣) يُقصد بمصطلح «العلوية» هنا الانتفاء الديني إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام، وهو خطٌّ ونهج الإمام علي وسائر الأئمة عليهم السلام، أي: هو المنهج الفكري والديني الذي يُقدِّم الإمام علي بن أبي طالب على سائر الخلفاء والصحابه، ويعتبره خليفة وأميراً للمؤمنين بنص القرآن والسنة.. وليس للمصطلح أية دلالة على طائفة دينية بعينها.

(١٤) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا ٢: ١٦١.

(١٥) ابن الصبَّاح المالكي، الفصول المهمة: ٢٤٥.

(١٦) كان الأمين (الولد المدلل لأُمّه ومربّيته زبيدة بنت جعفر بن المنصور الدوانيقي التي ربّته على حبّ الجاه والعزّ الفارغ) قبيح السيرة، وضعيف الرأي، سفكاً للدماء، يركب هواه، ويهمل أمره، ويتكل في جليلات الأمور على غيره.. ولم يكن منشغلاً بشيء أكثر من انشغاله بالشراب والنساء، وعمله بالخصيان. ووجّه إلى البلدان في طلب الملهين واستخف حنى بوزرائه وأهل بيته... (راجع: التنبيه والإشراف: ٣٠٢. والسيوطي، تاريخ الخلفاء: ٢٠١. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ومختصر تاريخ الدول: ١٣٤. والقلقشندي، مآثر الأناقة ١: ٢٠٤. والطبري، تاريخ الطبري.. إلخ..). ويكفي الأمين ما ذكر عنه من قبل العبري، وكذلك ابن الأثير الجزري، في الكتابين الموسومين بـ أخبار الدول: ١٣٤، والآداب السلطانية: ٢١٢، إذ قال: «إنّه لم يجد للأمين شيئاً في سيرته يستحسنه فيذكره...».

(١٧) كانت أيام الأمين على الناس أيام حروبٍ ودمارٍ وويلاتٍ وسلْبٍ ونهبٍ وقتلٍ وتشريدٍ.. إلخ.

(١٨) من الجائز أن يكون اجتماع وتضافر تلك العناصر والظروف قد ساهم - إلى حدٍّ كبير - في دفع الأمين عن الرضا عليه السلام، وانصراف جهاز حُكمه عن مراقبته وتتبع آثاره وملاحقته، كما كان يفعل أسلافه من ملوك وطواغيت الملوك العضوض.. الأمر الذي كان يسمّح للإمام عليه السلام بالمباشرة العملية في الدعوة إلى قيم الإسلام الأصيل، ونشر مبادئ ونهج الأئمة عليهم السلام في ذلك المناخ العصيب.

(١٩) عُرِف عن المأمون دهاؤه وحنكته السياسيّة وقدرته على التلوّن والمجاملة. جاء في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه (١: ١٢٣): «بيّن المأمون للفضل بن سهل أنّ أخاه الأمين كان يستطيع أن ينتصر عليه لو أنّه أرسل إلى أهل البلاد التي يحْكُمها يُخبرهم: أنّه قد رَفَعَ عنهم الخراج في سنة (كذا) من السنين، فحينئذٍ: إن لم يُقبل المأمون قامت الدنيا ضده، وإن قُبِل، لم يجد ما يُعطي الجُند، فيقومون ضده، وفي كلتا الحالتين يكون النصر للأمين، لو وقَّعت بينهم الحرب. فَحَمَدَ الفضل ربّه

على أنه لم يَتَّبِدِ الأمين وأتباعه إلى هذا الرأي».

(٢٠) اعتاد المأمون على اتباع مختلف وسائل وأساليب التصفية والقتل المنظم ضد كل شخص يشعر (المأمون) بأنه يُشكِّلُ خطراً على مصالحه وعرشه. وقد رأينا كيف قَتَلَ الفضل وبكى عليه. ثم قَتَلَ أخاه الأمين. وهكذا اغتال الإمام الرضا عليه السلام ثم بكى عليه بكاءً شديداً، و.. إلخ.. مما يدل على دهائه ومكره الشديدين. وبالرغم من كل ذلك، فقد كان يطلب من الفضل باستمرار، أن يُشيع عنه الزهد والتقوى والورع، ففعل. راجع: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي ٤: ٢٦١. وبالإضافة إلى ذلك، كان المأمون ولعاً باللَّهو والمتع والملاذات والتبذير وشرب الخمر. راجع: العقد الفريد ٣: ٢٥٤. و جاك س. ريسلر، الحضارة الإسلامية: ١٠٨.

(٢١) كان الإمام الرضا عليه السلام واعياً تماماً - كما قلنا - لطبيعة نوايا ودوافع المأمون. وقد تحدَّث عن ذلك إلى بعض أصحابه قائلاً: «لا تغتروا بقوله، فما يَقْتُلَنِي - والله - غَيْرُهُ، ولكنه لا بد لي من الصبر حتى يَبْلُغَ الكتاب أَجَلَهُ». راجع: عيون أخبار الرضا ٢: ١٨٣، وسفينة البحار ٤٩: ١٨٩.

(٢٢) عيون أخبار الرضا: ١: ١٥٢.

(٢٣) لا يُوجَد سببٌ تافهٌ عند المأمون وأمثاله من فراعنة وطواغيت الحُكْم السلطوي في تاريخنا الإسلامي، ولذلك لم يَكُنْ يَتَوَرَّع عن ارتكاب أيِّ عملٍ قبيحٍ وشنيعٍ وظالمٍ ضدَّ أصغر الناس أو أعظمهم إذا سَعَرَ (مجرد شعورٍ بسيط) بأنهم يُمكن أن يُشكِّلوا خطراً حقيقياً على مصالحه وسياساته.

(٢٤) يقول أحمد بن علي الأنصاري، سألت أبا الصلت الهروي فقلتُ له: كيف طابَتْ نفس المأمون بقتل الرضا عليه السلام مع إكرامه ومحَبَّتِه له وما جَعَلَ له من ولاية العهد بَعْدَه؟! فقال: إنَّ المأمون إنَّما كان يُكْرِمه ويُحِبُّه لمعرفته بفضلِه، وجَعَلَ له ولاية العهد مِنْ بَعْدِه ليرى النَّاس أَنَّهُ راعِبٌ في الدنيا فيَسْقُط محله في نفوسهم، فلمَّا لم يَظْهَر في ذلك منه للناس إلَّا ما ازداد به فَضْلاً عندهم، ومَحَلًّا في نفوسهم، جَلَب عليه المتكلمين من البُلدان طَمَعاً في أن يَقْطِعه واحد منهم، فيَسْقُط محله عند العلماء، ويَشْتَهَر نَقْصه عند العامة، فكان لا يُكَلِّمه خَصَمٌ من اليهود أو النصارى والصابئين والبراهمة والمُلجدين والذهريَّة - ولا خَصَمٌ من فرق المسلمين المخالفين - إلَّا قَطَّعه وألَزَمَه الحِجَّة، وكان الناس يقولون: والله إنَّه أوَّلُ بالخلافة من المأمون، وكان أصحاب الأخبار يرفعون ذلك إليه فيغتاظ وَيَشْتَدُّ حَسَدُه له، فلمَّا أَعْيَنَت الحيلة في أمرِه اغتاله فَقَتَلَه بالسِّم. راجع: عيون أخبار الرضا ١: ٢٦٥.

(٢٥) عيون أخبار الرضا ١: ١٢٦.

(٢٦) لقد أدَّى ذلك في مرَّاتٍ كثيرةٍ جدًّا إلى قيام الرضا عليه السلام بنقد سوء تصرُّف المأمون بشؤون العباد

والبلاد. يقول أبو الصلت: «وكان الرضا عليه السلام لا يُجاي المأمون من حق، وكان يُجيبه بما يكره في أكثر أحواله، فيغيظه ذلك ويحقد عليه ولا يظهر له. ولما أغيته الحيلة قتلته بالسّم»، بحار الأنوار ٤٩: ١٣٥، ومسند الإمام ١: ٧٧، وعيون الأخبار ٢: ١٥٣. وأما الشيخ المفيد فقد أورد في إرشاده (ص ٣١٥) أمثلة عديدة عن مواعظ ونقديّات الرضا عليه السلام للمأمون، حتى أنّه عليه السلام قال له ذات مرّة: «أتق الله في أمة محمد ﷺ وفكر في إصلاح أمرهم»، راجع: مسند الإمام ١: ٧٤.

(٢٧) الكافي ١: ٤٩٠، عيون الأخبار ٢: ٢٦٥، وروضة الواعظين: ٢٧٧.

(٢٨) كان من أبرز هذه الثورات التي حدثت في عهد الإمام الرضا عليه السلام: أ. ثورة ابن طباطبا عام ٢٠٠هـ التي اجتمع حول قائدها أنصارٌ وجيشٌ كبيرٌ قوامه عشرة آلاف مقاتل، دخلوا مع العباسيين في معارك ومناوشات عديدة انتهت بنتائج مأساوية خطيرة. حيث قُتل قائد الثورة وحُمل رأسه إلى المأمون، ونُصبت جُثته على جسر بغداد بعد أن دامت حركته مدّة عشرة أشهر فقط. راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٦: ٣٠٢، والأصفهاني، مقاتل الطالبين: ٥٣١. ب. ثورة محمد بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام بالمدينة المنورة. مقاتل الطالبين: ٥٣٤. ج. حركة إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم عليه السلام. مقاتل الطالبين: ٥٣٤، الكامل في التاريخ ٦: ٣٠٠.

(٢٩) لم يظهر الإمام الرضا عليه السلام - مع ما له من مقام ديني وسياسي واجتماعي رفيع ومرموق - أي تحرّك، ولم يُعلن رأيه الصريح أمام الناس بشأن تلك الثورات؛ لأنّه كان يعلم مسبقاً بطبيعة النتائج التي ستؤول إليها تلك الحركات. وهذا الأمر لم يكن يعني عند الإمام الرضا عليه السلام عدم العمل والتحرّك لمواجهة واقع الظلم والفساد الذي كان سائداً في عصره، لكنّه كان يُنظر إلى الأمور والقضايا الحياتية بعين ثابتة (ومن منظورٍ مختلفٍ تماماً عن نظرة الآخرين) وعقلٍ حركيٍّ واعيٍّ لحقائق الأشياء وخلفيات المسائل والأمور، خصوصاً ما كان يتصل منها بطبيعة الأجواء والظروف السياسية والاجتماعية العامة المسيطرة آنذاك، والتي لم تكن مهيأةً قطعاً للدخول إلى مواقع العمل الحركي الميداني، وإعلان الثورة بوجه الحكومات العباسية الظالمة. ولهذا السبب، كان المأمون يخاف الرضا عليه السلام ويخشاه جداً إلى درجة الفرع والرعب، نظراً لحركية الإمام العميقة الصامتة، تماماً كما هي حالة غيره من الطغاة والحكام الظلمة عندما يصلون إلى الحُكم بطرق وأساليب دموية غير شرعية.

(٣٠) أثارت هذه الخطوة من المأمون الدهشة والحيرة والسخط لدى العائلة العباسية، ووصل أمرها مع المأمون إلى حدّ إعلان بعض أفراد العائلة الثورة ضدّ المأمون، ومبايعتهم لعمّ المأمون (إبراهيم بن المهدي). لكنّ ذلك لم يستمرّ طويلاً بسبب ظهور الأمور وانكشافها على حقيقتها، عندما ردّ المأمون على هؤلاء، وصارحهم ببواطن الأمور، قائلاً: «أما ما كنْتُ أردْتُ من البيعة لعلّي بن

موسى الرضا عليه السلام، فما كان ذلك مني إلا أن أكون الحاقن لدمائكم والذائد عنكم باستدامة المودة بيننا وبينهم، وإن تزعموا أنني أردت أن يؤول إليهم عاقبة ومنفعة، فإنني في تدبيركم والنظر لكم ولعقبكم وأبنائكم من بعدكم، وأنتم ساهون لاهون في غمرة تعمهون، لا تعلمون ما يراد لكم، إنه يؤكدهم استمرارية الخلافة في أبناء العباس والدفاع عنها، والوقوف في وجه المضاعفات والمؤامرات التي كانت تُحاك ضده. راجع: الحسني، سيرة الأئمة الإثني عشر ٢: ٣٨٤، نقلاً عن البحار.

(٣١) قيل: إن الأمر قد اقتصر على الفضل بن سهل وشقيقه الحسن.

(٣٢) راجع بهذا الخصوص: رواية علل الشرائع، ومقاتل الطالبين: ٥٦٢ - ٥٦٧.

(٣٣) استدعى المأمون الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان لِعَرْض الولاية عليه.. وبعد مراسلات ومكاتبات تدل على رفض الإمام لهذا الأمر، لم يجد الرضا عليه السلام بداً من تلبية دعوة المأمون فور المضي إلى خراسان، وفعلاً، غادر عليه السلام بيت الله متوجّهاً إلى خراسان، وكان يُقابل في كل مدينة أو بلد ينزل بها بمُنْتَهَى الخفاوة والتقدير والإجلال. وعندما مرَّ بمدينة نيسابور أحاط به علماء كثر، وعندما رآه الناس المحتشِدون وهو بتلك الهيبة والرياسة التي تحكي هيئة جدّه رسول الله صلّى الله عليه وآله، تعالت أصواتهم بالتهليل والتكبير مشفوعة بالأسى والبكاء، وقد ضجّت البقعة بالبكاء، فنادى العلماء والحفاظ: «معاشر الناس، أنصتوا وعوا ولا تؤذوا رسول الله في عترته». وألقى الإمام عليه السلام على العلماء حديثاً شريفاً (الحديث الذهبي) فقال: «سمعتُ أبي موسى بن جعفر يقول: سمعتُ أبي جعفر بن محمد يقول: سمعتُ أبي محمد بن علي يقول: سمعتُ أبي علي بن الحسين يقول: سمعتُ أبي الحسين بن علي يقول: سمعتُ أبي أمير المؤمنين يقول: سمعتُ النبي صلّى الله عليه وآله يقول: لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي». ولما مرّت الراحلة نادى أهل نيسابور فقال: «ولكن بشر وطها، وأنا من شروطها». راجع: عيون أخبار الرضا ٢: ١٣٥. ويقال: بأنّه قد كتّب هذا الحديث ما يتيف على عشرين ألفاً من العلماء والحفاظ. ثم بعد ذلك، وصلت القافلة إلى خراسان، وأمر المأمون باستقبال الرضا عليه السلام استقبلاً رسمياً حافلاً. وكان هو - وكبار المسؤولين وقادة الجيوش - في مقدّمة المستقبّلين، فصافح الإمام بحرارة، وخصّص له داراً فخمة، وعُني به عناية فائقة.

(٣٤) البداية والنهاية ١٠: ٢٥٠، القندوزي الحنفي، ينابيع المودة: ٣٨٤، الآداب السلطانية: ٢١٧.

(٣٥) عيون أخبار الرضا ٢: ١٤٩، وبحار الأنوار ٤٩: ١٣٤.

(٣٦) مقاتل الطالبين: ٥٦٢ - ٥٦٣، والإرشاد (الشيخ المفيد): ٣١٠.

(٣٧) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٦٣، عيون أخبار الرضا ٢: ١٤٠، الصدوق،

- الأملاني: ٤٢، علل الشرائع ١: ٢٣٨.. إلخ.
- (٣٨) علل الشرائع ١: ٢٣١، البحار ٤٩: ١٣٠، روضة الواعظين ١: ٢٦٨، أمالي الصدوق: ٧٢.. إلخ.
- (٣٩) ضحى الإسلام ٣: ٢٩٤.
- (٤٠) ينابيع المودة: ٢٨٤.
- (٤١) إثبات الوصية: ٢٠٥.
- (٤٢) عيون أخبار الرضا ١: ١٩، ويُمكن مراجعة نص الوثيقة في مصادر تاريخية كثيرة، من أهمها: الفلقشندي، صبح الأعشى ٩: ٣٩١-٣٩٣، مآثر الأنافة في معالم الخلافة ٢: ٣٢٥-٣٣٦، ابن الصبّاح المالكي، الفصول المهمة: ٢٩٣، مسند الإمام الرضا عليه السلام ١: ١٠٢-١٠٧، والبحار ٤٩: ١٤٨-١٥٨، بالإضافة إلى: المناقب وتذكرة الخواص لابن الجوزي، والمجالس الشيعية، و.. إلخ.
- (٤٣) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين: ٥٦٤، الإرشاد: ٣١١.
- (٤٤) ذكر المدائني أنه لما جلس الرضا في ذلك المجلس بجانب المأمون وهو لابس تلك الخلع، والخطباء يتكلمون، وتلك الألوية تحقّق على رأسه، نظر أبو الحسن الرضا عليه السلام إلى بعض حواريه الحاضرين، ممّن كان يختصّ به، وقد داخله من السرور ما لا عليه مزيد، وذلك لما رأى، فأشار إليه الرضا عليه السلام، فدنا منه وقال له في أذنه سرّاً: «ألا تشغل قلبك بشيء مما ترى في هذا الأمر، ولا تستبشر فإنه لا يتم».
- (٤٥) مقاتل الطالبين: ٥٦٤، والسيد محسن الأمين، في رحاب أهل البيت ٤: ١٢١، والمفيد، الإرشاد: ٣١١.
- (٤٦) مؤسسة البلاغة ٢: ٤٧١.
- (٤٧) ذكرنا سابقاً - في أحد الهوامش - ردّ فعل العباسيين علىبيعة الإمام عليه السلام، عندما قاموا بمبايعة إبراهيم ابن الخليفة المهدي ولياً للعهد، وقد كان هذا الرجل معروفاً بولعه الشديد بالغناء والطرب وحسن المنادمة. راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٦: ٣٢٧، وابن خلّكان، وفيّات الأعيان ١: ٣٩، و٣: ٢٧٠.
- (٤٨) جاء في كتاب نثر الدرر: «أنّ المأمون قال للرضا عليه السلام: يا أبا الحسن أخبرني عن جدك عليّ بن أبي طالب بأيّ وجه هو قسيم الجنة والنار، فقال عليه السلام: يا أمير المؤمنين، ألم ترو عن أبيك عن آبائه عن عبد الله بن عباس أنّه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: حُبّ عليّ إيمانٌ وبُغضه كُفْرٌ، قال: بلى، قال الرضا عليه السلام: بذلك كان قسيم الجنة والنار، قال له المأمون: لا أبقي الله بعدك يا أبا الحسن، أشهد أنّك وارث علم رسول الله ﷺ». راجع: الحسيني، سيرة الأئمة ٢: ٤٠٢.

(٤٩) نحن لا نقصد من خلال استخدامنا لكلمة «الشخصي» هنا، أن الإمام عليه السلام كان يهدف من وراء عمله العلمي إلى بناء مجيّد شخصي على حساب الإسلام والمسلمين، ولكن نريد بذلك أن نُؤكّد أنّ هذه المناظرات والندوات التي كانت تُعقد باستمرارٍ خلال ولايته للعهد، ويخضرها علماء ومفكرون وفلاسفة من مختلف الانتماءات والمشارب الفكرية والأيدولوجية قد قدّمته عليه السلام بصفة حامل لواء مشروع ونهج ثقافي ومعرفي كبير، يركز على مبادئ وقواعد الإيمان الديني الإسلامي، وأبرزته كقائد رساليّ فذاً استطاع أن ينفع الناس بالإسلام (أكثر ممّا انتفع هو) من خلال وجوده الشخصي كوليّ للعهد بالرغم من رفضه المطلق لهذه الولاية (الشكلية).

(٥٠) راجع: الحسني، سيرة الأئمة الاثني عشر ٢: ٤٦٠.

(٥١) هذا المنطق الرافض بالمطلق إعطاء أية شرعية تُعطى أنظمة الاستبداد والظلم والفساد والإفساد في أيّ زمانٍ ومكان، لم يكن يعني بالضرورة عدم وجود استثناءات أو بدائل واقعية لكيفية التعامل مع أولئك الظلمة بما يضمن المحافظة على الخطوط الإسلامية الأساسية.

(٥٢) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة ٦: ١٣٨.

(٥٣) انظر: الطوسي، الاستبصار ٦: ٣٣٣، والذي يجدر ذكره هنا هو أنّ هذا الحديث نفسه يُنسب للإمام الكاظم عليه السلام.

(٥٤) عيون الأخبار ٢: ٦٦.

(٥٥) جاء في رواية العيون عن محمد بن يزيد النحوي عن أبيه أنّه قال: إنّ المأمون وهب جرّم زيد بن موسى إلى أخيه الرضا عليه السلام وقال له: يا أبا الحسن لئن خرج أخوك وفعل ما فعل، فلقد خرج قبله زيد بن عليّ وقُتل، ولولا مكانك مني لقتلته، فليس ما آتاه بصغير. فقال الإمام الرضا عليه السلام: «يا أمير المؤمنين، لا تقس أخِي زيداً إلى زيد بن عليّ بن الحسين، فإنّه من علماء آل محمد عليه السلام، غَضِبَ اللهُ عزَّ وجلَّ، فجاهد أعداءه حتى قُتل في سبيله، ولقد حدّثني أبي موسى بن جعفر: أنّه سمع أباه جعفر بن محمد يقول: رَجِمَ اللهُ عمِّي زيداً، إنّهُ دعا إلى الرضا من آل محمد، ولو ظفّر لوفى بما دعا إليه، ولقد استشارني في خروجه فقلتُ له: يا عمّ، إنّ رَضِيْتَ أَنْ تكون المقتول بالكناسة فشأنك، فلما ولي، قال جعفر بن محمد: ويلٌ لمن سمع داعيته فلم يجبه»، فقال له المأمون: يا أبا الحسن، أليس قد جاء فيما ادّعى الإمامة بغير حقّها ما جاء، فقال الإمام الرضا عليه السلام: «إنّ زيد بن عليّ لم يدع ما ليس له بحق، وإنّه كان اتقى الله من ذلك، إنّهُ قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد، وكان زيدٌ والله ممّن خطب بهذه الآية: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾». راجع: الحسني، سيرة الأئمة الاثني عشر ٢: ٤٠١. ونلاحظ بعد دراسة هذه الرواية أنّ الإمام عليه السلام يركّز على معنى الثورة الواعية المستنيرة التي تقوم على أساس وجود أهداف رسالية

إسلامية واضحة، وتُمارس أعمالاً شرعيةً منظّمةً (نموذج ثورة زيد بن علي) ويدافع عليه السلام عنها بقوة، ويعتبرها ثورة تقوى لله.

(٥٦) الحسيني، سيرة الأئمة الاثني عشر ٢: ٣٩٨.

(٥٧) لقد كانت معظم تلك الثورات انفعاليةً ساذجةً وملئيةً بالتناقضات الذاتية حتى من قبل قواعدها الشعبية الملتزمة بها، ولذلك كانت النتائج التي أدت إليها هذه الثورات سلبيةً، وأحياناً، كارثيةً، ولم تُقدّم أية خدمة للمجتمع. وبطبيعة الحال، يعود سبب إخفاق مُعظم تلك الثورات - في وعيها وسلوكها - إلى انعدام الإدراك الكامل، والوعي الموضوعي الواقعي بأهداف وغايات الدولة الإسلامية والإيمان بواقعيتها وأهميتها التاريخية.

(٥٨) راجع بعض أعماله وتجاوزاته وروايات أخرى عنه في كتاب: الحسيني، سيرة الأئمة الاثني عشر ٢: ٣٩٦.

(٥٩) قلنا بأن الأئمة عليهم السلام كانوا - من جهة أولى - يَنهون بشدّة عن التعاون والتقارب مع الجهاز السياسي (وغير السياسي) الحاكم لبني أمية وبني العباس.. بينما كانوا - من جهة ثانية - يُعطون رُخصاً شرعيةً لبعض الأفراد تُقضي بالإمضاء والموافقة على انخراطهم في جهاز هذه الدولة أو تلك من أجل تحقيق بعض المصالح والأهداف الإسلامية العليا المتصلة بمصير وجود الأمة، ومحاولة تخفيف بعض المظالم والشور عن كاهل المجتمع الإسلامي. ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر: علي بن يقطين، أو إسماعيل بن بزيع.. حيث توجد روايات وأقوال كثيرة تُمدّح وتُثني على أداء هذين العاملين في خطّ الله وأمثالهما، من قبيل: «أن هؤلاء «من أولياء الله الأول». ولزيادة الإطلاع على موضوع «ولاية الجائر» يمكن مراجعة: الأنصاري، كتاب المكاسب.

(٦٠) العلامة الشهيد مرتضى مطهري، سيرة الأئمة عليهم السلام : ١٨٧، ط دار الهادي، الطبعة الثانية.

(٦١) إنّنا نعتقد أنّه من الضروريّ والمفيد جدّاً لحركة الإسلام أن يفتح الفقيه المسلم على شؤون وقضايا المجتمع كلّها، ويتصل بكلّ امتداداته الخاصّة والعامة؛ لأنّ ذلك هو الذي يُمكن له أن يحمي المبادئ والقضايا الأساسية العامة من الذاتية والتفرد، ويُعطي للفقيه مساحةً واسعةً ورؤيةً شاملةً للواقع بما يؤهله أكثر لاتخاذ المواقف الأكثر عقلانيةً وصوابيةً، والأكثر قُرْباً من الحقيقة، وبما يَحتميه من الوقوع في الخطأ عند إصدار الفتوى أيضاً. كما أنّه يُحمّل الأمة مسؤولية قراراتها المرتبطة بالفقيه والمرجع من خلال مشاركتها معه في صنع هذه القرارات.

(٦٢) تُعتبر مشكلة القبليّة السياسيّة والثقافيّة المسيطرة عندنا من أهمّ المشاكل القائمة المُزمنة، وهي تؤدّي إلى تكريس وجود العلاقات الأنانيّة والمصالح الانتفاعيّة الشخصية، وغياب إرادة الإصلاح والتغيير.. وقد كان من أهمّ أسباب نزول الدين الإسلاميّ هو محاربة مفاهيم القبيلة



وإسقاط عقلية القبليّة والطغيان السياسيّ باعتبارها من أشرس الظواهر المرصّة التي لا تزال تُفعل فغلها السلبيّ في داخل اجتماعنا الدينيّ والسياسيّ العربيّ والإسلاميّ.

(٦٣) راجع: أصول الكافي ٢: ٢٠٣، والمفيد، الاختصاص ٤: ٥١. وقد يظنّ البعض: أنّ هذا الحديث مختصّ بالجانب العاطفيّ الوجدانيّ (النفسيّ) من حياة الإنسان؛ لأنّه يحضّه على التزام النقد والمحاسبة على صعيده الذاتيّ فقط، ولكننا نؤكد - بالرغم من اعتقادنا بالصحة النسبية لهذا الرأي الذي يتمّ تداوله في بعض الأوساط التي تُعتبر أنّ الدين (الإسلاميّ خصوصاً) هو مجرد علاقةٍ روحيةٍ بين العبد وخالقه، ولا علاقة له بالحياة والواقع - نؤكد على أنّ المراد منه أيضاً ممارسة الإعداد الروحيّ والبناء الأخلاقيّ الإسلاميّ المتين، وتوعية الإنسان المسلم، كجزءٍ أساسيٍّ من مسيرته التكاملية نحو تمثّل قيم الإسلام العادل وتحقيق تشريعاته ومبادئه في الحياة كلّها، في السياسة والاجتماع والاقتصاد .. إلخ. فبناء النفس وتنمية الروح (والأخلاق المعنويّة الذاتية) هو أساس بناء وتنمية الواقع الخارجيّ، ليكون بالتالي تغيير ما بالنفس هو الأساس لتغيير ما بالواقع. من هنا جاء تركيز الإسلام على ضرورة تعميق منهج وخطّ الإعداد الروحيّ عند الإنسان المسلم (الجهاد الأكبر) ليكون ذلك مقدّمة لازمة حيويّة لتغيير الحياة والواقع في الاتجاه الذي يحقق كرامة الإنسان وعدالة الوجود.

(٦٤) أكّدنا دائماً على أنّ سيطرة العقلية القبليّة على قطاعاتٍ واسعةٍ من أجهزة الحُكم السياسيّ العربيّ والإسلاميّ بكلّ أحواله وامتداداته، تشكّل إحدى أهمّ المسببات والدوافع الرئيسيّة لأزمات واقعا المتلاحقة التي تكبله وتمنعه من الانطلاق نحو مواقع العمل والإنتاج والتصاعد الحضاريّ، وترهن وجوده لصالح نزعاتٍ طغيانيةٍ ذاتيّةٍ ليس لأصحابها من همّ سوى تكريس مصالحهم وأهوائهم وامتيازاتهم على حساب الدّولة والأمة ككلّ. ويبدو أنّ جذور هذه الأزمات العربيّة والإسلاميّة التي تعصف بمجتمعاتنا الإسلاميّة اليوم تمتدّ إلى زمنٍ بعيدٍ نسبياً منذ سيطرة عقلية القبيلة والملّك العضوض على فكر ونهج الدول العربيّة الإسلاميّة.. وقد أفضّت تلك العقلية حاليّاً إلى بناء مجتمعاتٍ عربيّةٍ حديثةٍ مشوّهةٍ غير قادرةٍ على النهوض من تحلّفها وسباتها التاريخيّ الطويل. والأمل الوحيد المتبقيّ أمامها للخروج من هذه الأزمة العميقة (وحدائثها المزيّفة الكسيحة) هو في البدء بتوجيه معاول النقد الموضوعيّ إلى الجذور النفسيّة والفكرية التي أنتجت وولدت هذه الحداثّة، وتهيئة شروطٍ جديدةٍ لتجاوزها والخروج من أخطارها العقيمة. والواجب يقتضي منّا - في هذا المجال - العمل على إنجاز ما يلي: (١) نقد الدّولة الوطنيّة الحديثة بالذات في مفهومها، ومصدر قيمها. (٢) نقد عقيدة ارتباط التقدّم التاريخيّ بالدّولة. (٣) نقد فكرة تعظيم دور الطليعة الحزبيّة المُعلّقة، والإدارات القائمة، وفضح تضخيمها لأجهزة القمع والضغط والردع والكبت بوسائلها الخاصّة والعامة التي أصبحت استراتيجيّة سياسيّة وثقافيّة

عامّة للدولة الوطنية (والقومية) العربية الحديثة، بحيث بات مُعدّل بناء السجون والمعتقلات والمنافي الصحراوية ومُعسكرات المراقبة والتجميع ونقاط التفتيش وأجهزة المخابرات، أكبر بكثير من مُعدّل بناء المستشفيات والمدارس ومرافق الخدمات الاجتماعية الأخرى.

(٦٥) العلامة السيّد محمد حسن الأمين، مجلّة الشاهد، عدد: ١٠٠، ص ٨٠.

(٦٦) لقد حَصَرَت السلطات السياسيّة القائمة في عالمنا الإسلاميّ (منذ تاريخها الماضي وحتى الآن) مهمّة التبليغ بأشخاصٍ قامت بتعيينهم بمراسيم قانونيّة، وخصّصت لهم رواتب من خزينتها، ونظّمت لهم مجالات العمل والدعوة والتبليغ. وقد أدّى ذلك إلى تقليص الشعور لدى الأفراد والجماعات بواجب المشاركة في نشر الدعوة والقيام بمهمّة التبليغ والنقد، وبالتالي: تراجع حسّ المسؤولية الفرديّة والمجتمعيّة تجاه انحرافات هذه السلطة ومؤسساتها وأشخاصها عن نهج وقيم ومبادئ الإسلام. فصار الوعظ ترفاً، والواعظ موطّأً عند السّلطة السياسيّة وخادماً لها، ومنقذاً لسياساتها، وأحياناً كثيرة، مدافعاً عن صنميتها وتغوّها. ولعلّ التقليد الذي زرعه النظام الأمويّ على يد معاوية في داخل الاتجاه التبليغيّ السلطويّ - إذا صحّ التعبير - في تكريس فقره من خطبة الجمعة للنيل من الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، وشتمه علناً على امتداد حقبة طويلة من العصر الأمويّ، وتعميم ذلك على امتداد رقعة العالم الإسلاميّ، هو أبغ دليلاً على العلاقة العضويّة بين مشروع تنظيم الوعظ، والهدف السياسيّ النفعيّ (الذرائعيّ) لهذا التنظيم. وقد أفضى هذا الإجراء (إجراء تحويل التبليغ والنقد والدعوة إلى وظيفة ومهنة خاصّة للسلطة السياسيّة نفسها) إلى تعطيل سُلطة المجتمع وانحصار ممارسة الواقع السياسيّ بأشخاص ورموز السّلطة القائمة، وانفصال الدولة عن الأمّة. ولا يزال هذا الانفصال مُكرّساً وقائماً حتى عصرنا الراهن. ويبدو لنا: أنّ السجالات الدائر حالياً حول مفهوم الشورى والديمقراطية (وما يتفرّع عنها من حقوق النقد والمعارضة وتداول السُلطة وحقّ تشكيل الأحزاب والإعلام الحرّ وو...) ليس إلّا مظهرًا لحسرة مكبوتة وكامنة في وجدان إنساننا العربيّ والمسلم.. وهي حسرة أنّنا كنّا من أوائل مَنْ عمِلَ على المساهمة في بناء وإطلاق وتأسيس هذا النموذج السياسيّ (المدنيّ) القائم على قاعدة ترسيخ حقّ النقض والمساءلة والاعتراض، ثمّ لمْ نعملْ به، بل بقي صامتاً طوال قرونٍ طويلة. وهنا يجب ألاّ ننسى: أنّ مشروع السُلطة التاريخيّ الذي نجح في إنجاز فصل السُلطة عن المجتمع، والإبقاء على النموذج السابق طيّ الكتان العمليّ - إذا صحّ التعبير - لم يَمْنَعِ المجتمع من ممارسة واتباع أساليب مختلفة للتعبير عن رفضه الحاسم لتلك السياسات الظالمة. وما المانع من المضيفة على صورة الثورات الانتفاضات (ومن أبرزها ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)) في وجه استبداد السلطة عبر تاريخنا، سوى ثمرة من ثمار تلك المُعطيات المُشار إليها.

# المباني الفقهية للمقاومة المسلّحة

## أسس ومبادئ ومقومات

□ الشيخ محمد مهدي الأمشي (\*).

### فقه المقاومة وفقه الدولة

تتزايد الحاجة في المجتمعات الإسلاميّة المعاصرة إلى فقهين لم تكن إليهما حاجة من قبل بهذه الصورة الواسعة المتزايدة، وهما: (فقه المقاومة) و(فقه الدولة).

ف (فقه المقاومة) للإجابة على الأسئلة الكثيرة التي تتردد في الأوساط الإسلاميّة، من شرعيّة المقاومة المسلّحة، ووجوبها العينيّ أو الكفائيّ، وأقسام المقاومة، واختلافها في الشرعيّة والوجوب، أو اتّحادها في الحكم الشرعيّ، والدليل الشرعيّ على ذلك من الكتاب والسنة والإجماع والعقل، ومسائل كثيرة أخرى من هذا النوع.

والفقه الآخر (فقه الدولة)، وهو فقه واسع يتناول مسائل الحُكْم والقضاء، وولاية الفقيه، والعقوبات والجزاء، ومسائل العملة والمصارف، والأمن والدفاع والعلاقات الخارجيّة، وشكل الحُكْم، والفقه الدستوريّ، والشورى،

(\*) عالم دين، ومفكّر إسلاميّ كبير.

والعلاقة بين الشورى والولاية والانتخابات، ومسائل أخرى كثيرة من هذا القبيل.

وتتزايد الحاجة إلى هذين الفقيهين؛ لأنّ عصرنا يشهد تطوّراتٍ وأحداثاً حركيّةً كثيرة، على شكل المقاومة المسلّحة في مواجهة الاحتلال ومواجهة الحكّام الظلمة المستبدّين بالحكم.

وتشهد كثيرٌ من البلاد الإسلاميّة اليوم حالة المقاومة وتصاعدها، أو تشهد ظهور البدايات الأولى للمقاومة، كالعراق، وإيران في عهد النظام البهلويّ، وفلسطين، وجنوب لبنان، والجزائر، وتونس، وأفغانستان، والمناطق الإسلاميّة في شرق آسيا، والبلدان الإسلاميّة في آسيا الوسطى الواقعة تحت الاحتلال الروسيّ، ومناطق التبت الإسلاميّة الواقعة تحت الاحتلال الصينيّ، وليبيا، وغيرها من أقاليم العالم الإسلاميّ التي تتعرّض للاحتلال الأجنبيّ.

وسوف تطول معاناة المسلمين وعذاباتهم من ناحية الاحتلال، فإنّ الاستراتيجية الأمريكيّة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي هي مدّ نفوذها السياسي والاقتصادي والعسكريّ، بل والثقافيّ إلى المنطقة الإسلاميّة.

والآليّة المفضلة لدى الأمريكان في بسط نفوذهم في المنطقة الإسلاميّة هي نشر عملائهم في مواقع الحُكْم والقرار في العالم الإسلاميّ، الذين يمثّلون إرادتهم في الحُكْم والإدارة، ويُغطّون الحضور الأمريكيّ بغشاءٍ وطنيّ رقيقٍ لا يُخفي ما تحته. وهؤلاء هم الحُكّام الذين تُسمّيهم أمريكا بـ (الحكّام المعتدلين) في الأنظمة المعتدلة.

وبطبيعة الحال، فهؤلاء الحُكّام لا يمثّلون إرادة شعوبهم، وسبيلهم الوحيد إلى المحافظة على مواقعهم هو الإرهاب والاضطهاد.

وهذان تحديّان صعبان تُواجههما الأمة الإسلاميّة في أكثر مناطق العالم الإسلاميّ اليوم، وهما: الاحتلال، والاستبداد والاضطهاد السياسيّ.

وقد كان مخاض هذه المواجهة المزدوجة للاحتلال من جانب، وللاستبداد والاضطهاد السياسي والأمني من جانب آخر، تنامي حركة المقاومة الإسلامية على جبهتين: جبهة مقاومة الاحتلال الكافر الأجنبي، وجبهة مقاومة الاستبداد السياسي والاضطهاد الأمني.

ومع تنامي حالة الاحتلال والاستبداد السياسي، تتنامى حالة المواجهة والمقاومة.. ومع ولادة وتنامي الاستراتيجية الأمريكية الأخيرة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي بدأت استراتيجية أخرى تتكامل وتتقن وتجمع وتتظم خيوطها في العالم الإسلامي في المقاومة المسلحة على جبهتين: الجبهة الخارجية، والجبهة الداخلية.

وقد اتسعت هذه الحركة اتساعاً واسعاً، وبطبيعة الحال، فهذه الحركة الإسلامية الواسعة تحتاج إلى تنظير وتقنين فقهي تجري عليه هذه الحركة العالمية الكبيرة.

كما شهد عصرنا ولادة الدولة الإسلامية، وكان أوسعها وأوضحها الجمهورية الإسلامية الإيرانية، التي تكونت منذ الأيام الأولى لولادتها على الخط الفقهي، وقادها فقيه نائز مقاوم من ذرية رسول الله ﷺ، وهي تجري إلى اليوم على الخط الفقهي، ولم تعدل عنه، ويتولى المواقع الحساسة فيها فقهاء ملتزمون بالأحكام والحدود الشرعية.

وهذه الدولة الفتية تتطلب نظريات وتقنيات فقهية، ربما للمرة الأولى في عصرنا الحاضر.

### أقسام المقاومة المسلحة

ذكرنا قريباً أن عصرنا يشهد تنامي حركتين للمقاومة: المقاومة الداخلية، والمقاومة الخارجية.

المقاومة الداخلية في مواجهة الأنظمة الفاسدة والظالمة التي تُمارس تسلُّطها على أقاليم العالم الإسلامي بالعنف والإرهاب والاضطهاد.

والمقاومة الخارجية في مواجهة الاحتلال. وقد شهدنا في القرن الميلادي المنصرم وبدايات القرن الجديد ألواناً ونماذج شتى من الاحتلال، كالاحتلال الإنجليزي والإيطالي والصهيووني والبرتغالي والسوفييتي والروسي والأمريكي وغيرها.

ولكلٍّ من هاتين المقاومتين مبادئها الفقهية الخاصة بها.

أما المبادئ الفقهية للمقاومة الداخلية من الكتاب والسنة، فهي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلى مراتبها: التغيير باليد، وهو معنى المقاومة المسلحة، وأدنى مراتبها: كراهية الظالم والسخط عليه، وعدم الرضا به، وعدم الركون إليه.

وأوسط مراتبها: المقاطعة السياسية والإدارية والاقتصادية للنظام الفاسد الظالم والإعلام المضادّ له، والتشهير بالظالم وتسقيطه، وتشيت الناس من حوله، وعزله اجتماعياً وسياسياً، وهي مرحلة بين المقاومة المسلحة والمقاومة النفسية.

وأما المبادئ الفقهية لمقاومة الاحتلال الكافر من الكتاب والسنة، فهي: آية القتال من سورة النساء (الآية: ٧٥)، والأحاديث الكثيرة عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليه السلام من طرق الفريقين، في وجوب الدفاع عن بيضة الإسلام عندما تتعرض بلاد المسلمين للعدوان الأجنبي، وهي روايات كثيرة في وجوب الدفاع وإغاثة المسلمين ونصرتهم ومقاومة قوات الكفر من موقع الدفاع عن بلاد المسلمين.

ومن مباني هذه المسألة: إجماع المسلمين، بلا استثناء في وجوب الدفاع، وإذا كان لبعض الطوائف الإسلامية شبهة أو تشكيك في وجوب أو جواز مقاومة

الحاكم المسلم الظالم، فليس هناك في المذاهب الإسلامية مذهبٌ فقهيٌّ يُقرّ وجود الاحتلال الكافر في بلاد المسلمين ويُجرّم الدفاع بالتأكيد. ومن المباني الفقهية لهذه المسألة: حُكْم العقل القطعيّ بوجوب الدفاع، وتقبيح العقل للاستسلام للظالم مع القدرة على دفعه. وفي هذه الدراسة، سوف نتوفّر - إن شاء الله - على دراسة المباني الفقهية للمقاومة المسلّحة في مواجهة ومقارعة الاحتلال الكافر وقوّاته في بلاد المسلمين.

وأما المباني الفقهية لمواجهة الاستبداد السياسي والأنظمة الظالمة الفاسدة في العالم الإسلامي، فقد خَصَصْنَاهُ من قَبْلُ بدراسةٍ فقهيةٍ تحت عنوان (حوار في التسامح والعنف) فلا نعيد الكلام فيه. ونأتي الآن على دراسة المباني الفقهية لمقاومة الاحتلال الكافر لبلاد المسلمين:

### المباني الفقهية للمقاومة المسلّحة

بإمكاننا أن نصنّف الأدلّة الفقهية على وجوب المقاومة المسلّحة إلى أربعة أصناف:

- ١- القرآن الكريم.
  - ٢- السنّة النبويّة على صاحبها الصلاة والسلام، وسنّة أهل بيته عليهم السلام، التي هي امتداد لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله.
  - ٣- الإجماع.
  - ٤- الدليل العقليّ.
- وسوف نستعرض الأدلّة الثلاثة الأولى من خلال المناهج الفقهية لعموم المذاهب الإسلامية، أعني: مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومدرسة الخلفاء.

أمّا الدليل العقليّ، فالاحتجاج به يختصّ بمدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ المدارس الفقهيّة السنيّة لا تحتجّ بالدليل العقليّ.

### كلمات الفقهاء

قبل أن ندخل في تفصيل البحث عن أدلّة وجوب الدفاع أو (المقاومة المسلّحة) تجاه العدوّ الذي يداهم بلاد المسلمين، نستعرض بعض كلمات الفقهاء في حُكم الدفاع (المقاومة) وشروطه، ثمّ نبحث عن أدلّة وجوبه من الكتاب والسنة.

يقول ابن إدريس في السرائر:

«اللّهم إلّا أن يَدَهمُ المسلميّن - والعياذ باللّهِ - أمرٌ من قِبَلِ العدوِّ يُخاف منه على بَيضة الإسلام، ويُخشى بواره. وبيضة الإسلام: مجتمع الإسلام وأصله، أو يخاف على قوم منهم، وجب حينئذٍ أيضاً جهادهم ودفاعهم، غير أنّه يقصد المجاهد والحال ما وصفناه الدفاع عن نفسه، وعن حوزة الإسلام، وعن المؤمنين»<sup>(١)</sup>.

ويقول العلامة الحليّ في قواعد الأحكام:

«يجب الدفاع عن النفس والحريم بما استطاع، ولا يجوز الاستسلام. وللإنسان أن يُدافع عن المال كما يدافع عن نفسه... ولو قُتل الدافع كان كالشهيد»<sup>(٢)</sup>.

ويقول العلامة أيضاً في تذكرة الفقهاء:

«ومتى قتل الم رابط كان شهيداً»<sup>(٣)</sup>.

وقتل الم رابط من موقع الدفاع عادةً، فيكون من الجهاد الدفاعيّ.

ويقول فخر المحقّقين ابن العلامة في إيضاح الفوائد:

«يجب الدفاع عن النفس والحريم بما استطاع، ولا يجوز الاستسلام»<sup>(٤)</sup>.



ويقول الشهيد الأول في الدروس:

«إلا أن يخاف على بيضة الإسلام، وهي أصله ومجتمعه، من الاصطلام، أو يخاف من اصطلام قوم من المسلمين، فيجب على مَنْ يليهم الدفاع عنهم»<sup>(٥)</sup>.  
ويقول المحقق الأردبيلي في (زبدة البيان) في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]:

«يدخل فيه الدفاع عن المسلمين والذبّ عن الدين»<sup>(٦)</sup>.

ويقول الشيخ جعفر الكبير في كشف الغطاء:

«ثم إنَّ هناك أنواعاً أُخر من الحرب السائغ أو الواجب بحسب الشرع، يُطلَق عليها اسم (الدفاع)، وهي أقسام ثلاثة:  
أحدها: الدفع عن نفسه.

ثانيها: الدفع عن عِرْضه، أو عن نفس مؤمن، أو عِرْضه، فيجب عليه ذلك مع ظنّ السلامة.

ثالثها: الدفع عن ماله أو مال مؤمن فيستحبّ الدفاع»<sup>(٧)</sup>.

ويقول الفقيه النجفي في موسوعته الفقهيّة الكبيرة (جواهر الكلام):

«ولو بدأ العدو بالقتال وَجَب، وكان جهاداً واجباً من غير حاجةٍ إلى إذن الإمام عليه السلام»<sup>(٨)</sup>.

ثم يوضح رحمه الله: أن الشروط التي يذكرها الفقهاء في الجهاد، من أمر الإمام العادل أو إذنه يختصّ بالجهاد الابتدائي في الدعوة إلى الإسلام. وأمّا في الجهاد الدفاعي، فلا يلزم شيء من ذلك، ويجب من دون شرط إذن الإمام العادل.

ثم يقول رحمه الله: إنَّ الدفاع من أقسام الجهاد، ويدخل في إطلاق الجهاد، والمقتول فيه شهيد شرعاً، ولا يُغسَل ولا يُكفَّن. وإليك نصّ كلامه:

يقول رحمه الله: «بل ظاهر غير واحد كون الدفاع عن بيضة الإسلام مع هجوم

العدو ولو في زمان الغيبة من الجهاد؛ لإطلاق الأدلة، واختصاص النواهي بالجهاد ابتداءً للدعاء إلى الإسلام من دون إمام عادل، أو منصوبه، بخلاف المفروض الذي هو من الجهاد من دون اشتراط حضور الإمام ولا منصوبه ولا إذنهما في زمان بسط اليد، والأصل بقاءه على حاله، واحتمال عدم كونه جهاداً حتى في ذلك الوقت مخالف لإطلاق الأدلة»<sup>(٩)</sup>.

ويقول في موضع آخر:

«الجهاد أعم، كما يُشعر به تقسيمهم إياه إلى الابتداء وإليه، بل قد تقدّم في كتاب الطهارة تصريح جماعة بكون المقتول فيه شهيداً، كالمقتول بين يدي الإمام عليه السلام، فلا يُغسل ولا يُكفّن»<sup>(١٠)</sup>.

ويقول صاحب الجواهر في أقسام الجهاد:

«والثاني أن يدّهم المسلمين عدو من الكفار يُخشى منه على البيضة»<sup>(١١)</sup>، أو يريد الاستيلاء على بلادهم وأسرهم وسبيهم وأخذ أموالهم. وهذا واجب على الحر والعبد، والذكر والأنثى، والسليم والمريض، والأعمى والأعرج وغيرهم إن احتيج إليهم، ولا يتوقف على حضور الإمام عليه السلام ولا إذنه، ولا يختص بمن قصدوه من المسلمين... ويتأكد الوجوب على الأقربين فالأقربين»<sup>(١٢)</sup>.

ونتحدث عن الأدلة الأربعة لإثبات وجوب الدفاع شرعاً بالتسلسل الآتي:

#### ١- القرآن الكريم:

يقول تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

لا خلاف بين المفسرين في أن الآية نزلت في تحريض المسلمين الأنصار

والمهاجرين للدفاع عن المسلمين المستضعفين في مكة. فقد بقي بعد الهجرة نفر من المسلمين في مكة لم يتمكنوا من الهجرة، فاستضعفتهم قريش وبالغت في إيذائهم واستضعافهم وإذلالهم، فكانوا يدعون الله تعالى أن يُنقذهم من هذا الظلم الذي يجري عليهم بأيدي المشركين من قريش في تلك القرية الظالم أهلها، وهي مكة المكرمة.. فحرّض الله تعالى المؤمنين على قتال قريش لاستنقاذ هذه الفئة المستضعفة من المسلمين من ظلمهم واستضعافهم وإذلالهم.

يقول الزخشري في الكشاف، في تفسير هذه الآية:

«والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدّهم المشركون عن الهجرة، فبقوا بين أظهرهم مستذلّين مستضعفين، يلقون منهم الأذى الشديد، وكانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه، فسّر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة، وبقي بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير وليّ وناصر...»<sup>(١٣)</sup>.

والآية الكريمة تدعو إلى الجهاد في سبيل الله لإنقاذ أولئك المستضعفين من المسلمين في مكة من أيدي المشركين، فهي دعوة إلى جهاد من نوع الجهاد الدفاعي، الدفاع عن مسلمي مكة المستضعفين بيد المشركين من قريش. فهي إذاً تخصّ الجهاد الدفاعي، وهو ما نسّميه اليوم في أدبياتنا الحركية المعاصرة بـ (المقاومة). هذا أولاً.

وثانياً: الآية الكريمة تُحرّض المسلمين على مجاهدة العدو، وهو آية الوجوب وأمارته.

يقول الرازي في تفسير هذه الآية: «قوله: (وما لكم لا تقاتلون)، يدلّ على أنّ الجهاد واجب، ومعناه: أنّه لا عُذر لكم في ترك المقاتلة»<sup>(١٤)</sup>.

ورأى أيضاً في تفسير (وما لكم لا تقاتلون): أنّه خطاب للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة في التحريض عليه، وتأكيداً لوجوبه<sup>(١٥)</sup>.

إذاً: فالآية الكريمة (٧٥ من سورة النساء) واضحة الدلالة وظاهرة في

وجوب جهاد الكافرين دفاعاً عن المسلمين المستضعفين، واستنقاذاً لهم من ظُلم الكفار وإذلالهم وتسلطهم عليهم.

وهذا الذي ذكرناه دليل على وجوب المقاومة دفاعاً عن المسلمين، لإنقاذهم من ظلمهم واستضعافهم لهم وإذلالهم. وفي القرآن الكريم آيات أخرى بهذا الصدد، نقصر منها على ما ذكرنا. وننتقل إلى الدليل من السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام.

## ٢- السنة النبوية الشريفة وسنة أهل البيت عليهم السلام:

وردت روايات كثيرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من طريق الفريقين في وجوب إغاثة المسلمين إذا داهمهم العدو واستغاثوا بالمسلمين لنصرتهم ودفع العدو عنهم، وأن من يتقاعس من المسلمين عن تلبية استغاثة المسلمين وإغاثتهم، فهو ليس منهم، وهو أبلغ تحريض وتأكيد على وجوب إغاثتهم ونصرتهم ودفع العدو عنهم.

ونحن نشير هنا إلى طائفة من هذه النصوص من طريق الفريقين:

روى الكليني في الكافي عن علي بن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»<sup>(١٦)</sup>.

وفي نواتج الراوندي عن موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس في شيء، ومن شهد رجلاً يُنادي يا للمسلمين، فلم يجبه فليس من المسلمين»<sup>(١٧)</sup>.

وروى الكليني في الكافي عن محمد بن يحيى، عن سلمة بن الخطاب، عن سليمان بن سماعة، عن عمه عاصم الكواز، عن أبي عبد الله عليه السلام، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قال: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً يُنادي:

يا للمسلمين، فَلَمْ يُجِبْهُ، فليس بمسلم»<sup>(١٨)</sup>.

وروى الكليني في الكافي في باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن محبوب، عن محمد بن القاسم الهاشمي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «من لم يَهْتَمَّ بأمور المسلمين فليس بمسلم»<sup>(١٩)</sup>.

وورد الحديث من طريق أهل السنة، في المعجم الصغير للطبراني، عن حذيفة بن اليمان، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من لا يَهْتَمَّ بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لا يُضَيِّحُ ويُمَسِّي ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم»<sup>(٢٠)</sup>.

وأوردته كذلك الطبراني في الأوسط عن حذيفة<sup>(٢١)</sup>.

وأوردته السيوطي في جامع الأحاديث (حرف الميم)<sup>(٢٢)</sup>.

وأورده ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم، وقال: «قد ذكرنا في أول الكتاب عن أبي داود: أن هذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور عليها الفقه. وقال الحافظ أبو نعيم: هذا الحديث له شأن عظيم. وذكر محمد بن أسلم الطوسي: أنه أحد أرباع الدين»<sup>(٢٣)</sup>.

وفي مُستدرك الصحيحين بتعليق الذهبي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من لم يَتَّقِ الله فليس من الله في شيء، ومن لم يَهْتَمَّ بأمور المسلمين فليس منهم»<sup>(٢٤)</sup>.

ونقتصر من طرق الحديث على هذا المقدار. وهو من الأحاديث المستفيضة لفظاً ومعنى.

وسواء أخذنا بما ورد من طريق أهل البيت عليهم السلام من التعقيب بما روي عنه صلى الله عليه وآله: «ومن سمع رجلاً ينادي: يا للمسلمين، فلم يُجِبْهُ، فليس بمسلم»، أم بالطرق الأخرى التي لم يرد فيها هذا التعقيب.. فإن الحديث واضح في وجوب الاهتمام بما يحل بالمسلمين من النكبات وإغاثتهم ونصرتهم.

وروى البرقي في المحاسن عن محمد بن علي، عن أبي فضال، عن محمد، عن إبراهيم بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ما من مسلمٍ يُخَذِّل أخاه وهو يَقْدِر على نُصْرته إِلَّا خَذَلَهُ الله في الدنيا والآخرة» <sup>(٢٥)</sup>.

وروى الصدوق في ثواب الأعمال، عن أبيه، عن سعد، عن البرقي، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ما من مؤمنٍ يُعين مؤمناً مظلوماً إِلَّا كان أفضل من صيام شهرٍ واعتكافه في المسجد الحرام، وما من مؤمنٍ يَنْصُر أخاه وهو يَقْدِر على نُصْرته إِلَّا نَصَرَهُ الله في الدنيا والآخرة.. وما من مؤمنٍ يُخَذِّل أخاه، وهو يَقْدِر على نُصْرته إِلَّا خَذَلَهُ الله في الدنيا والآخرة» <sup>(٢٦)</sup>.

والرواية صحيحة.

وفي قرب الإسناد، عن هارون، عن ابن صدقة، عن الصادق، عن أبيه، قال: «لا يحضرن أحدكم رجلاً يُضَرَّ به سلطان جائرٌ ظلماً وعدواناً، ولا مقتولاً ولا مظلوماً، إذا لم ينصره؛ لأنَّ نُصْرَةَ المؤمن على المؤمن فريضة واجبة إذا حضره، والعافية أوسع ما لم يلزمك الحجة الظاهرة» <sup>(٢٧)</sup>.

وفي ثواب الأعمال عن ابن الوليد، عن محمد بن أبي القاسم، عن هارون مثله <sup>(٢٨)</sup>.

وفي قرب الإسناد بهذا الإسناد: «أنَّ النبي صلى الله عليه وآله أمر بِسَبْع: عيادة المرضى، واتباع الجنائز، وإبرار القسم، وتسميت العاطس، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي» <sup>(٢٩)</sup>.

وروى الصدوق في الأمالي، عن ابن إدريس، عن أبيه، عن ابن عيسى، عن ابن فضال، عن حماد بن عيسى، عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي عبد الله عليه السلام: «ما من مسلمٍ يُخَذِّل أخاه وهو يَقْدِر على نُصْرته إِلَّا خَذَلَهُ الله في الدنيا والآخرة» <sup>(٣٠)</sup>.

والرواية صحيحة.

وفي ثواب الأعمال للصدوق، وعلل الشرائع، عن ابن الوليد عن الصفار، عن السندي بن محمد، عن صفوان بن يحيى، عن صفوان بن مهران، عن أبي عبد الله عليه السلام: «أُفْعِدَ رجل من الأخيار في قبره، ف قيل له: إِنَّا جَالِدُوكَ مائة جَلْدَةٍ من عذاب الله، فقال: لا أُطيقها، فلم يَزَالُوا به حتى انتهوا إلى جَلْدَةٍ واحدة. فقالوا ليس منها بُدٌّ. فقال: فيها تَجْلِدُونِيهَا؟ قالوا: نَجْلِدُكَ لَأَنَّكَ صَلَّيْتَ يوماً بغير وضوء، ومَرَرْتَ على ضعيفٍ فلم تَنْصُرْهُ. قال: فجلدوه جَلْدَةً من عذاب الله عز وجل فامتلاً قبره ناراً»<sup>(٣١)</sup>.

والرواية صحيحة.

هذه الطائفة من الروايات، وفيها روايات صحاح، واضحة وظاهرة في وجوب نُصْرَةِ المسلمين والإسراع إلى إغاثتهم ونُصْرَتِهِمْ ودَفْعِ العُدُوَانِ عنهم.

### ٣- الدليل العقلي:

الدليل العقلي حجة لدى الإمامية (الأصولية) خاصة.. وهو يتألف من مقدمتين (صُغْرَى وكُبْرَى) والنتيجة المترتبة عليهما هو حُكْمُ الله في المسألة التي يَحْكُمُ بها العقل.. لا لأنَّ العقل مُسَرَّعٌ والشرع يَتَّبِعُ العقل، بل العكس؛ لأنَّ العقل يَكْشِفُ عن الحُكْمِ الشرعي، فحُكْمُ العقل يكون كاشفاً عن الحُكْمِ الشرعي.

والمقدمتان التي يتألف منها الدليل العقلي هما كما يلي:

١. إثبات أنَّ العقل يَحْكُمُ بِحُسْنِ الدِّفَاعِ عن نفس الإنسان وماله وعرضه وحريمه وبَلَدِهِ ومُجْتَمَعِهِ.. وهذا هو حُكْمُ العقل العملي، وهو الصغرى في هذا القياس.

٢. إثبات الملازمة بين حكم العقل بِحُسْنِ الدِّفَاعِ وضرورته وقُبْحِ

الاستسلام للعدو الذي يُداهم بِلَدِّهِ وَيَغْتَصِبُ مِنْهُ حَقُوقَهُ وَأَمْوَالَهُ، وَيَسْتَذِلُّهُ، وَيَسْتَضْعِفُهُ، وَيَبِينُ حُكْمَ الشَّرْعِ بِوُجُوبِ الدِّفَاعِ وَحُرْمَةِ الاسْتِسْلَامِ لِلْعَدُوِّ، وَهُوَ حُكْمُ الْعَقْلِ النَّظَرِيِّ، وَهُوَ الْكُبْرَى فِي هَذَا الْقِيَاسِ.

وليس معنى ذلك أنَّ هناك عقليْن للإنسان: عقلاً عمليّاً وعقلاً نظريّاً، وإنَّما المقصود بالعملِ والنظريِّ هنا هو متعلِّق حُكْمِ الْعَقْلِ.. فقد يكون متعلِّق حُكْمِ الْعَقْلِ أمراً عمليّاً، مثل قُبْحِ الظلم، وحُسْنِ العدل، وقُبْحِ الاستسلام للعدوِّ مع القُدرة على المقاومة واحتمال النصر، وحُسْنِ الدِّفَاعِ وضرورته.. فهذه أحكام عقلية تتعلّق بأمور عمليّة من الظلم والجور والدِّفَاعِ والاستسلام.

وهناك نحو آخر من الحُكْمِ الْعَقْلِيِّ يتعلّق بقضايا نظريّة بحثيّة، مثل: حُكْمُ الْعَقْلِ بِالْمُلَازِمَةِ بَيْنَ حُكْمِهِ وَبَيْنَ حُكْمِ الشَّرْعِ، فهو حُكْمٌ نظريٌّ للعقل.

ومن تأليف هاتين المقدّمتين (حُكْمُ الْعَقْلِ الْعَمَلِيِّ وَالنَّظَرِيِّ) يُنتِجُ الْقِيَاسُ حُكْماً شرعيّاً، وهو أنَّ الدِّفَاعَ واجبٌ شرعاً، وأنَّ الاستسلام للعدوِّ مع القُدرة على المقاومة واحتمال النصر (احتمالاً معقولاً) حرامٌ شرعاً.

وقد اكتشف العقل هذا الحُكْمَ الشرعيّ بناءً على قاعدة الملازمة بين حُكْمِ الْعَقْلِ وحُكْمِ الشَّرْعِ.

وإليك توضيحاً موجزاً لهذا القياس العقليّ وما يُنتِجه من الحُكْمِ الشرعيّ بوجوب المقاومة وحرمة الاستسلام.

أمّا صغرى القياس، وهو حُكْمُ الْعَقْلِ بحُسْنِ ضرورة دِفَاعِ الْإِنْسَانِ عَنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَعِرْضِهِ وَحَرِيمِهِ وَبَلَدِهِ وَجُمُوعِهِ وَثَرَوَاتِهِمْ، فهو ممّا لا يشكُّ فيه عاقلٌ، والعقلاء يَحْمَدُونَ وَيَمْدَحُونَ مَنْ يَقَابِلُ الْعَدُوَّ الْغَاصِبَ بِالْمَقَاوِمَةِ وَالِدِّفَاعِ الْمُسَلَّحِ، وَلَا يَشْكُونَ فِي قُبْحِ الاسْتِسْلَامِ لِلْعَدُوِّ، مع القُدرة على الدِّفَاعِ واحتمال النصر على العدوِّ احتمالاً معقولاً.. بل يُمكن أن نقول: إنَّ هذا الحُكْمَ الْعَقْلِيَّ حُكْمٌ فطريٌّ أيضاً، وإنَّ فطرة الإنسان السليمة تأبى الرضوخ والاستسلام مع



الْقُدْرَة على المقاومة، ويجري هذا الحُكْم الفطريّ في الحيوانات أيضاً، من خلال الغرائز الحيوانية. وهذا معنى حُكْم العقل بحُسن المقاومة وضرورتها وقُبْح الاستسلام للعدوّ، وهذا هو صغرى القياس.

وأما كُبرى القياس، وهو حكم العقل بالملازمة بين ما يحكم به العقل وحكم الشرع، فهو أيضاً مسألة ضرورية واضحة لا نشك فيها.

وليس معنى الملازمة هنا: الملازمة بين الاستحسانات والاستهجانات العقلية غير القطعية، بل المقصود بحُكْم العقل: ما يَقْطَع به العقل من الحُسن والقُبْح، وما يُحَسِّن العقل ويقبّحه العقل بالقطع واليقين بالضرورة.

وفي مثل هذه الحالة، لا يُمكن أن يَحْكُم الشرع بخلاف العقل وبما يُقْبِّحه العقل تقبيحاً ضرورياً، مثل قُبْح الظلم، ولا يُمكن أن يأمر الشارع بالظلم في الناس، ولا أن ينهى عن العدل. ولا يُمكن أن يؤمن المكلف بأن الشارع يَحْكُم بما يَقْطَع العقل بقُبْحِهِ، وينهى عما يَقْطَع العقل بحُسْنِهِ وضرورته. وعليه: فتكون الملازمة تامة بين حُكْم العقل وحُكْم الشرع، وهو كُبرى القياس.

والنتيجة المترتبة على هاتين المقدمتين للقياس نتيجة قطعية لا يُمكن التشكيك فيها، وهي وجوب الدفاع والمقاومة تجاه العدو المداهم، وحُرْمَة الاستسلام للعدوّ مع احتمال النصر احتمالاً معقولاً والقُدْرَة على المقاومة.

\* \* \*

الهوامش:

(١) الحليّ، ابن إدريس، السرائر ٢: ٤، ط مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٠هـ.

(٢) العلامة الحليّ، يوسف ابن المطهر، قواعد الأحكام ٣: ٥٧١، ط مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٣هـ.

(٣) العلامة الحليّ، تذكرة الفقهاء ٩: ٤٥٣، ط مؤسسة آل البيت، قم، الطبعة الأولى.

- (٤) الحلبي، فخر المحققين، إيضاح الفوائد ٤: ٥٤٥، ط مؤسسة اسماعيليان، قم، الطبعة الأولى، ١٣٨٧ ش.
- (٥) الشهيد الأول، محمد بن مكي العاملي، الدروس الشرعية ٢: ٣٠، ط مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٣ هـ.
- (٦) المقدس الأردبيلي، أحمد بن محمد، زبدة البيان في أحكام القرآن: ١٤٤، ط المكتبة الجعفرية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران، الطبعة الأولى.
- (٧) كاشف الغطاء، الشيخ جعفر، كشف الغطاء: ٣٨٢، ملخصاً، الطبعة القديمة.
- (٨) النجفي، الشيخ محمد حسن، جواهر الكلام ٢٠: ١٤٠، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة السابعة.
- (٩) جواهر الكلام ٢١: ١٥، مصدر سابق.
- (١٠) المصدر نفسه ٢١: ١٦.
- (١١) البيضة: مجتمع المسلمين.
- (١٢) المصدر نفسه ٢١: ١٨.
- (١٣) الزمخشري، جار الله، تفسير الكشاف ١: ٥٤٣، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٦ م.
- (١٤) الفخر الرازي، التفسير الكبير ١٠: ١٨١، الطبعة الثالثة.
- (١٥) المصدر نفسه.
- (١٦) انظر: المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٧١: ٣٣٧، ط دار إحياء التراث العربي. والنوفاي وإن لم يرد فيه توثيق، ولكن تأكيد الفقهاء والمحدثين على الأخذ بروايات السكوني يتضمن السكون إلى روايات النوفي؛ لأن نسبة كبيرة جداً من روايات السكوني وردت عن طريق النوفي.
- (١٧) بحار الأنوار ٧٢: ٢١، الباب ٣٣، باب نصر المسلمين، مصدر سابق.
- (١٨) ن. م.
- (١٩) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ١٦٤، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، ط دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥ ش.
- (٢٠) الطبراني، المعجم الصغير ٢: ٥٠، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٢١) الطبراني، المعجم الأوسط ٧: ٢٧٠، ط دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ.
- (٢٢) السيوطي، جامع الأحاديث ٢١: ٣٧٩، (حرف الميم)، ح ٢٣٧٧.

- (٢٣) الحنبلي، ابن رجب، جامع العلوم والحكم: ٧٧، ط دار المعرفة، بيروت.
- (٢٤) الحاكم النيسابوري، مستدرک الصحيحين، بتعليق الذهبي ٤: ٣٥٢ و ٣٥٦.
- (٢٥) بحار الأنوار ٧٢: ٢٢، مصدر سابق.
- (٢٦) بحار الأنوار ٧٢: ٢١، مصدر سابق.
- (٢٧) بحار الأنوار ٧٢: ١٧، الباب ٣٣.
- (٢٨) ن.م.
- (٢٩) ن.م.
- (٣٠) ن.م.
- (٣١) ن.م.

## دفاع عن هشام بن الحكم

دراسة تحقيقيّة علميّة في الأحاديث التي اتهم فيها بالتجسيم والتشبيه

□ الشيخ يحيى الدوخي (\*)

مختصر

في هذه الدراسة، نسلط الضوء حول شخصيّة عملاقة وكبيرة في سماء التشيع، كثر الجدل عليها في تراث الفريقين، لا سيّما في الروايات التي تُنسب إليه، وفيها تهمة التجسيم والتمثيل والتشبيه للخالق جلّ ذكره، ألا وهي شخصيّة هشام بن الحكم. ممّا حدا بالبعض أن يرمي التشيع بهذه الفرية، ومن هؤلاء: ابن تيمية الحرّاني، ومن نسج على منواله، كالشيخ عبد القاهر البغدادي والدكتور القفاري<sup>(١)</sup> وغيرهم.

ولتوضيح هذا الأمر واستجلاء الحقيقة بجميع أبعادها وزواياها، وجدنا أنفسنا ملزمين بتأصيل هذا الموضوع وبيانه بصورة تحقيقيّة علميّة، متّبعين في ذلك المنهج الحديثي الاستقرائي والتحليلي للروايات، ومناقشتها سنداً ودلالةً وفق الموازين المتّبعة في مباني الجرح والتعديل، ومن ثمّ استخلاص النتيجة

(\*) باحث في علوم الحديث / العراق.

النهائية بما يتلاءم ويتوافق مع معطيات البحث.

### ابن تيمية يتهم هشام بن الحكم بالتجسيم

لقد اتهم ابن تيمية هشام بن الحكم بشبهة التجسيم في كتابه مجموع الفتاوى قائلاً: «أول من قال في الإسلام: إن القديم جسم هو هشام بن الحكم»<sup>(٢)</sup>. وجاء بعده من قلده بهذه التهمة، كما نجد ذلك في كلمات الدكتور القفاري في كتابه (أصول مذهب الشيعة) ناقلاً عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال:

«وقد حدّد شيخ الإسلام ابن تيمية أول من تولى كبر هذه الفرية من هؤلاء فقال: وأول من عرف في الإسلام أنه قال: إن الله جسم هو هشام بن الحكم»<sup>(٣)</sup>. ثم أردف كلامه بنقل كلام آخر، قائلاً:

«يقول عبد القاهر البغدادي: زعم هشام بن الحكم أن معبوده جسم ذو حدّ ونهاية، وأنه طويل عريض عميق، وأنّ طوله مثل عرضه.. إلخ»<sup>(٤)</sup>.

### التحقيق:

ليس من العدل والإنصاف أن تُتَّهم الشيعة بهذا الوصف، فهم بعيدون كل البعد عما ألصق بهم من تهمة التجسيم والتشبيه، وقد حفلت آثار الشيعة وأحاديث أئمتهم عليهم السلام وكتب علمائهم بما ينفي هذا الكلام جملةً وتفصيلاً.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصّف الله سبحانه فقد قرّنه، ومن قرّنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد

حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيمّ، فقد ضمنه، ومن قال: علام، فقد أخلّى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شيءٍ لا بمقارنة، وغير كلّ شيءٍ لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه...»<sup>(٥)</sup>. إلى آخر خطبته عليه السلام.

فهذه الكلمات العظيمة والدقيقة تتدفّق من فم سيّد الموحدين وإمام المتّقين عليه السلام، تنفي كلّ الصفات التي تطرأ على الذات الإلهيّة، فمن وصفه بالجسم فقد قرّنه، ومن قرّنه فقد ثنّاه، فمن لوازم الوصف: التثنية والعدد والحدّ والجزء، وكلّها لوازم باطلة، فهو جلّت قدرته فوق ما يصفه الواصفون.

ومن الغريب: أنّ الدكتور القفاري يستشهد بكلام ابن تيميّة ولم يلتفت إلى كتب شيخه التي أشبعت بهذا الأمر، وكأنّه بعيد عن هذا الفكر الذي عاش في أحضانه ونشأ وترعرع منذ نعومة أظافره ينهل منه، ومسألة التجسيم هي واحدة من تلك المسائل التي آمن بها ودافع عنها.

قال الشيخ محمّد أبو زهرة<sup>(٦)</sup>:

«يرى (أي: ابن تيميّة) أنّ مذهب السلف يثبت لله اليد من غير كيفٍ ولا تشبيه، والوجه من غير كيف، والفوقيّة والنزول وغير ذلك من ظواهر النصوص القرآنيّة، ويقصد الظواهر الحرفيّة، لا الظواهر، ولو مجازيّة، وهو يعدّ ذلك المذهب ليس مجسّماً ولا معطّلاً، ويقول في ذلك: ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، فيعطّلوا أسماء الحسنى وصفاته العليا ويحرّفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسماء الله وآياته، وكلّ واحدٍ من فريقَي: التعطيل والتمثيل، جامع بين التعطيل والتمثيل»<sup>(٧)</sup>.

ثم استنتج أبو زهرة من كلامه قائلاً: «وعلى ذلك يقرّر ابن تيميّة أنّ مذهب

السلف هو إثبات كلّ ما جاء في القرآن الكريم من فوقيةٍ وتحتيةٍ واستواءٍ على العرش ووجهٍ ويدٍ ومحبةٍ وبغضٍ، وما جاء في السنة من ذلك أيضاً من غير تأويل وبالظاهر الحرفي<sup>(٨)</sup>.

وقال الأستاذ سعيد فودة<sup>(٩)</sup>:

«موقف الوهابية من التجسيم ونفي تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات صار مشهوراً معلوماً، فهم يثبتون لله تعالى الحدّ والجهة وقيام الحوادث بالله تعالى والجلوس على العرش بماسة والحركة النقلة.. ولا شك أنّ هذا الاعتقاد مخالف بجملته لاعتقاد أهل السنة والجماعة وقد تبع الوهابية في هذا الاعتقاد إمامهم الأول ابن تيمية، فعنه أخذوا كل ذلك، وفهموا كلامه من شروحات تلميذه ابن قيم الجوزية، فليرجع إلى كتاب نقض أساس التقديس لابن تيمية، ومنهاج السنة، وغيرها من الكتب، وقد كتبتُ عدّة كتب في هذا المقام أثبتُ فيها أنّ ابن تيمية قائل بالتجسيم ولوازمه، وأنّه مخالف للأشاعرة جملةً وتفصيلاً، وأنّ له مذهباً كاملاً يدعو إليه، وليست أقواله هذه مجرد شطحات أو زلات قلم كما يحلو للبعض أن يتوهّم»<sup>(١٠)</sup>.

ومع هذا كلّ، نجد الدكتور القفاريّ يتّهم الشيعة بهذه الفرية التي لا نصيب لها من الصحة.

#### براءة هشام بن الحكم من تهمة التجسيم

أما ما اتّهم به هشام بن الحكم، فهي تهمة لا مبرّر لها وسوف نضعها على طاولة البحث ونقيّمها حسب المعايير العلميّة والموضوعيّة؛ لذا يقع البحث في أربعة جهات:

الجهة الأولى: بيان حال هشام بن الحكم في السقف التاريخي وتراجم الرجال.

الجهة الثانية: ملاحظة الروايات التي يستشف منها التجسيم والتشبيه التي اتهم بها، ومناقشتها سنداً ودلالة.

الجهة الثالثة: أدلة وقرائن على براءة هشام بن الحكم من التجسيم.

الجهة الرابعة: إعطاء نتيجة وحكم موضوعي لهذه الشبهة.

#### الجهة الأولى: هشام بن الحكم في السقف التاريخي وتراجم الرجال

أمّا التاريخ، فيحدّثنا أنّه كان من متكلمي الشيعة وبطائنتهم، وهو أحد كبار الشيعة الإمامية، ومن عظماء أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، الذي فتق الكلام في الإمامة، وهذب المذهب وسهّل طريق الحجاج فيه. فهو يعدّ من الشخصيات الكبيرة والفذة في تاريخ التشيع، وقد شهد له بذلك أحمد أمين بقوله: «فيظهر أنّه أكبر شخصيّة شيعيّة في علم الكلام.. وكان جدلاً، قويّ الحجّة، ناظر المعتزلة وناظروه، ونقلت له في كتب الأدب مناظرات كثيرة متفرقة، تدلّ على حضور بديهته وقوّة حجّته..»<sup>(١١)</sup>.

وكان مناظراً قلّ نظيره، فله جولاتٌ وصولاتٌ مع المعتزلة وغيرهم، فكان جدلاً قويّ الحجّة، ناظر المعتزلة وناظروه، فكان بحقّ حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب، سريع البديهة.

قال الشهرستاني:

«وهذا هشام صاحب غور في الأصول، لا ينبغي أن يغفل عن إلزاماته على المعتزلة، فإنّ الرجل وراء ما يلزمه على الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه، وذلك أنّه ألزم العلّاف فقال: إنّك تقول: الباري تعالى عالم بعلم، وعلمه ذاته، فيشارك المحدثات في أنّه عالم بعلم، ويباينها في أنّ علمه ذاته، فيكون عالماً لا كالعالمين، فلم لا تقول: إنّ جسم لا كالأجسام، وصورة لا كالصور، وله قدر لا كالأقدار، إلى غير ذلك؟!»<sup>(١٢)</sup>.



وهنا استخدم هشام أسلوب الإلزام والكناية مع أحد علماء المعتزلة، وهو العلاف، فقال له: لم لا تقول: إنّ الله جسم لا كالأجسام، وصورة لا كالصور؟ فهو لم يتبنّ هذا الرأي، بل أورده مورد الإلزام، وهو يريد أن يقول له: إنّ الله ليس كمثله شيء، فقرب له ذلك بهذا الكلام. ونعتقد أنّ شبهة التجسيم نشأت من هذا القول الذي ألزم به المعتزلة.

وقد اختلف في تاريخ الرجل، فهناك من ادّعى: أنّه كان في أول مشواره العلميّ ديصانيّاً، من أصحاب أبي شاعر الديصانيّ، وهذا ما نقله ابن تيمية في منهاج السنة، قال:

«هشام بن الحكم، مولى كندة، نشأ في أحضان أبي شاعر الديصانيّ الزنديق، وكان من غلمانه، ومن بيئة أبي شاعر رضع أفاويق الإلحاد والزندقة والتجسيم»<sup>(١٣)</sup>.

ولكنّ هذه الدعوى باطلة جزماً، فلم يحدثنا التاريخ عن مثل هذه العلاقة بين الرجلين، وإن وجدت، فلم يتأثر بها هشام بن الحكم، كما سيأتي في مناقشتنا للروايات التي تركها لنا التراث العقديّ والفقهيّ.

ثم ادّعى أنّه اعتنق مذهب الجهميّة، ورئيسهم هو الجهم بن صفوان، ولكن يبدو أنّ آراء الجهم لم تكن عميقة الجذور في تفكير هشام بن الحكم، ولم نجد لها أثراً كبيراً فيه، ووجدنا هشاماً خالف قول الجهم في خمود أهل الدارين: الجنة والنار، وسكونهم، فالجهم يقول: إنّهم يصيرون إلى سكونٍ دائم، بينما هشام يذهب إلى خلودهم. ولم يع التاريخ شيئاً عن تفصيل التحاقه بالجهم، ولا كيف كان ذلك<sup>(١٤)</sup>.

وكذلك ادّعى أنّه اعتنق مذهب الإماميّة لتأثره بفكر الامام الصادق عليه السلام وهاله ما رآه من حكمته وعلمه، وذلك عندما سأله أبو عبد الله عليه السلام عن مسألة فحار فيها هشام وبقي ساكناً، فسأله هشام أن يؤجّله فيها فأجّله أبو عبد الله،

فذهب هشام فاضطرب في طلب الجواب أيّاماً، فلم يقف عليه، فرجع إلى أبي عبد الله، فأخبره أبو عبد الله بها، وسأله عن مسائل أخرى فيها فساد أصله وعقد مذهبه، فخرج من عنده مغتماً متحيراً، قال: فبقيت أيّاماً لا أفيق من حيرتي. قال عمر بن يزيد: فسألني أن أستاذن له على أبي عبد الله، فاستأذنتُ له، فقال أبو عبد الله: لينتظرنني في موضع سمّاه بالخيرة لألتقي معه فيه غداً.. فلما بصرتُ به وقرب مني هالني منظره وأرعيني، حتى بقيتُ لا أجد شيئاً أتفوّه به، ولا انطلق لساني لما أردتُ من مناطقته، ووقف عليّ أبو عبد الله ملياً ينظر ما أكلمه، وكان وقوفه عليّ لا يزيديني إلا تهيباً وتحيراً، وتيقنتُ أنّ ما أصابني من هيئته لم يكن إلا من قبل الله عزّ وجلّ، من عظم موقعه ومكانه من الربّ الجليل. قال عمر: فانصرف هشام إلى أبي عبد الله، وترك مذهبه، ودان بدين الحقّ، وفاق أصحاب أبي عبد الله كلّهم<sup>(١٥)</sup>.

وأيّما قيل في تاريخه، فهو ذلك المدافع عن أهل بيت النبوة بقلبه ولسانه، والتاريخ لا يمكن أن يحجب هذه الحقيقة التي تنزّهه ممّا لصق به، وقد قيّمه الإمام الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام بالنزاهة وصلابة المعتقد والمذهب، وهذا ما سوف نطرقه في كلمات تراجم الرجال.

### هشام بن الحكم في التراجم الرجالية

والآن سوف نضع هشام بن الحكم في ضوء كلام أهل الخبرة من هذا الفنّ، ثمّ نستنتج خلاصة ما قالوه في هذا الرجل. قال النجاشي في رجاله: «وكان ثقةً في الروايات، حسن التحقيق بهذا الأمر»<sup>(١٦)</sup>.

قال الشيخ الطوسي في الفهرست: «كان من خواصّ سيّدنا ومولانا موسى بن جعفر عليهما السلام، وكانت له مباحثات كثيرة مع المخالفين، في الأصول وغيرها.

وكان له أصل.. له من المصنّفات كتب كثيرة، منها: كتاب الإمامة، وكتاب الدلالات على حدوث الأشياء، وكتاب الردّ على الزنادقة، وكتاب الردّ على أصحاب الاثنين، وكتاب التوحيد»<sup>(١٧)</sup>.

وذكره في رجاله في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام<sup>(١٨)</sup>.

وقال ابن النديم: «من جلة أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام. وهو من متكلمي الشيعة الإمامية، وبطائهم، وممن دعا له الصادق عليه السلام، فقال: أقول لك ما قال رسول الله ﷺ: لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك. وهو الذي فتق الكلام في الأمة وهذب المذهب، وسهّل طريق الحجاج فيه»<sup>(١٩)</sup>.

وقال العلامة الحليّ: «روى عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليه السلام، وكان ثقةً في الروايات، حسن التحقيق بهذا الأمر، ورؤيت مدائح له جليّة عن الإمامين الصادق والكاظم عليه السلام، وكان ممن فتق الكلام في الإمامة، وهذب المذهب بالنظر، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب.. ثم قال: ورؤيت روايات أخر في مدحه، وأورد في خلافه أحاديث ذكرناها في كتابنا الكبير وأجبنا عنها. وهذا الرجل عندي عظيم الشأن رفيع المنزلة»<sup>(٢٠)</sup>.

وقال ابن داود الحليّ في رجاله مدافعاً عن هشام: «مع أنّي لا أستثبت ما قاله البرقيّ قدحاً فيه؛ لأنّ حال عقيدته معلوم وثناء الأصحاب عليه متواتر، وكونه تلميذ الزنديق لا يستلزم اتّباعه في ذلك، فإنّ الحكمة تؤخذ حيث وجدت، وقوله: وهو جسمي رديء، يُحتمل عوده إلى أبي شاکر، لا إليه»<sup>(٢١)</sup>.

وقال السيّد الخوئي: «وإنّي لأظنّ الروايات الدالّة على أنّ هشاماً كان يقول بالجسميّة كلّها موضوعة، وقد نشأت هذه النسبة من الحسد، كما دلّ على ذلك رواية الكشيّ بإسناده عن سليمان بن جعفر الجعفريّ، قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن هشام بن الحكم، قال: فقال: رحمه الله، كان عبداً ناصحاً وأوذي

من قبل أصحابه حسداً منهم له»<sup>(٢٢)</sup>.

### خلاصة أقوال من ترجم له

من خلال ما تقدّم من أقوال أهل الخبرة في المجال التراجمي الرجالي، نستنتج التالي:

#### ١) شهادة النجاشي بكونه حسن التحقيق:

قال: «كان ثقة في الروايات حسن التحقيق في هذا الأمر»، ونعتقد أنّ النجاشي - والله العالم - يقصد بكونه حسن التحقيق في هذا الأمر: أنّ رواياته موافقة لرأي المذهب، ولا يوجد في أصوله وكتبه ما يخالف الأصول والقواعد العامة التي قرّرها أهل البيت عليه السلام، ومعلوم أنّ مذهب أهل البيت قائم على التنزيه المطلق وعدم التشبيه.

إذاً، هذه شهادة من النجاشي بسلامة هشام بن الحكم من التشبيه والتجسيم، بدليل قوله إنّّه حسن التحقيق.

#### ٢) أنّه من خواصّ أصحاب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

إنّ لفظ الخواصّ يطلق على الإنسان المقرّب إليه جداً، فلو وجد الإمام الكاظم عليه السلام شائبة التجسيم عند هشام لذمّه على ذلك، بل نجد أنّ المديح هي الصفة التي تلازم هشاماً من الإمام الصادق والكاظم عليهما السلام.

#### ٣) الإمام الصادق عليه السلام دعا له بكونه مؤيّداً بروح القدس:

إنّ هشاماً من جلة أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، والإمام دعا له أنّه مؤيّد بروح القدس ما نصرتنا بلسانك، وهذه مرتبة عظيمة لم ينلها إلّا المخلصون الذين وصلوا إلى مرتبة عالية وسامية من المعارف الإلهية لا يمكن أن يشوبها من يُعرف بالتجسيم أو التشبيه.

#### ٤) فتق الكلام وهذب المذهب، والعلامة يدفع عنه الشبهات في كتابه

الكبير:

إنَّ هشاماً كان ممَّن فتق الكلام في الإمامة، وهذَّب المذهب بالنظر.. وهذه العبارة نقلها ابن النديم والعلامة الحليّ، فالذي يصل إلى مرحلة تهذيب المذهب في الكلام، لا يقال عنه: مجسّم، إطلاقاً، بل هو من أزاح غبار الشبهات عن المذهب، ومنها: التجسيم؛ لذا نجد عبارة العلامة اللاحقة لكلامه: «ورويت روايات أخر في مدحه، وأورد في خلافه أحاديث ذكرناها في كتابنا الكبير وأجبنا عنها. وهذا الرجل عندي عظيم الشأن رفيع المنزلة»، فالعلامة يدافع عنه في كتابه الذي أسماه بـ (الكبير)، وأجاب عما ألصق بهشام من تهم مفتراة لا أصل لها. ثم اعتبره عظيم الشأن رفيع المنزلة. وهذه شهادة ثانية من العلامة الحليّ بسلامة عقائد هشام بن الحكم وأنّه ذو شأن ومنزلة رفيعة.

٥) البرقيّ يتّهمه وابن داود يدافع عنه:

إنَّ البرقيّ قد اتهم هشاماً أنّه من أصحاب الديصانيّ الزنديق، ولكنّ هذه التهمة دفعها ابن داود بقوله: «حال عقيدته معلوم، وثناء الأصحاب عليه متواتر، وكونه تلميذ الزنديق لا يستلزم اتّباعه في ذلك، فإنّ الحكمة تؤخذ حيث وُجدت، وقوله: وهو جسميّ رديء، يُحتمل عوده إلى أبي شاعر، لا إليه»<sup>(٢٣)</sup>. فمن كانت عقيدته معلومة عند الشيعة، وثناء علمائهم متواتراً بصحّة عقائده، ومنها: آراؤه الكلاميّة، حينئذٍ فلا اعتبار بقول البرقيّ؛ لأنّه لا تلازم بين كونه تلميذاً، وأنّه يعتنق آراء أبي شاعر، فإنّ الحكمة تؤخذ حيث وُجدت. وما قاله من شبهة التجسيم، فلعلّها ترجع إلى من يقول بها، وهو أبو شاعر؛ لذا قال ابن داود: «هشام بن الحكم، لا مرأى في جلالته، لكنّ البرقيّ نقل فيه غمراً لمجرّد كونه من تلاميذ أبي شاعر الزنديق، ولا اعتبار بذلك، وإن كان قد وقع في ألفاظه شيء يُؤوّل يخرجّه عن الطعن لبعده عن الشبهة»<sup>(٢٤)</sup>.

وهذه شهادة ثالثة ببراءته من شبهة التجسيم.

٦) السيد الخوئي يضعف الروايات، والحسد هو الدافع لنسبتها إليه:

السيد الخوئي أيضاً أعطى شهادة ببراءته من تهمة التجسيم، حينما قال بعدم ظنه في الروايات التي وصفت هشاماً بالتجسيم، ووصفها بأنها كلها موضوعة ومجمولة، وسبب هذا الوضع ومنشؤه هو الحسد والبغض لهشام، بدليل قول الإمام الرضا عليه السلام عندما سُئل عنه قال: «رحمه الله، كان عبداً ناصحاً، وأُوذي من قبل أصحابه حسداً منهم له»<sup>(٢٥)</sup>.

فالإمام الرضا عليه السلام ترحم عليه ونزّهه عن هذه الشبهة.

والنتيجة: أنّ هناك شهادات براءة تنأى بهشام بن الحكم عن تهمة التجسيم التي أثارها حاسدوه ومبغضوه.

ولنتقل إلى الروايات التي ادّعي أنّ هشاماً مجسمٌ بسببها، لنعرضها على مجهر علم الجرح والتعديل، لمناقشتها بموضوعية، وإعطاء نتيجة واضحة من خلال دراستنا لها.

**الجهة الثانية: الروايات التي اتّهم بها هشام بن الحكم بالتجسيم ومناقشتها**

١. رواية عليّ بن أبي حمزة:

روى الشيخ الكليني: بإسناده: «عن عليّ بن أبي حمزة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم أنّ الله جسم صمديّ نوريّ.. فقال عليه السلام: سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلّا هو، ليس كمثله شيء.. ولا تدركه الحواسّ، ولا يحيط به شيء، ولا جسم ولا صورة»<sup>(٢٦)</sup>.

المناقشة:

يكفي في سقوط هذه الرواية وعدم اعتبارها: أنّ فيها عليّ بن أبي حمزة

البطائني، وهو أحد أعمدة الواقفية.

قال الشيخ الطوسي في عدة مواضع: إنه واقفي. وقال أبو الحسن علي بن الحسن بن فضال: «علي بن أبي حمزة، كذاب واقفي، متهم ملعون، وقد روي عنه أحاديث كثيرة، وكتب عنه تفسير القرآن كله، من أوله إلى آخره، إلا أنني لا أستحل أن أروي عنه حديثاً واحداً»<sup>(٢٧)</sup>.

وقال ابن الغضائري: «علي بن أبي حمزة لعنه الله، أصل الوقف، وأشد الخلق عداوةً للولي من بعد أبي إبراهيم عليه السلام»<sup>(٢٨)</sup>.

فقوله ضعيف، ولا يقدر في جلالته قدر هشام بن الحكم الذي رأينا شهادات علماء الرجال بوثاقته ومدح الأئمة له. أمّا دلالتها: فإن الإمام عليه السلام لم يُمضِ كلام الراوي في أن هشاماً قائل بالجسمية، بل الإمام دفع شبهة التجسيم بصورة كلية بغض النظر عن قائلها.

## ٢. رواية محمد بن الفرج الرخجي:

وروي أيضاً بسنده: «عن علي بن محمد، رفعه عن محمد بن الفرج الرخجي، قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عما قال هشام بن الحكم في الجسم، وهشام بن سالم في الصورة، وكتب عليه السلام: دع عنك حيرة الحيران، واستعذ بالله من الشيطان، ليس القول ما قاله الهشامان»<sup>(٢٩)</sup>.

المناقشة:

وهذه الرواية أيضاً ضعيفة وغير معتبرة؛ لكونها مرفوعة، فهناك واسطة مجهولة.

أضف إلى ذلك: أن الشيخ المجلسي ناقش دلالة هذه الرواية، قال: «فقد قيل: إنهما قالاً بجسم لا كالأجسام، وبصورة لا كالصور، فلعل مرادهما بالجسم الحقيقة القائمة بالذات، وبالصورة الماهية، وإن أخطأ في إطلاق هذين اللفظين عليه تعالى»<sup>(٣٠)</sup>.

أو لعل مراده من قوله: «ليس القول ما قاله الهشامان»: ليس القول الذي حكّيته قول الهشامين.

وعلى كلّ حال، فالرواية لا يُعتمد عليها فهي ضعيفة.

### ٣. رواية محمد بن الحكيم:

وروى كذلك بسنده: «عن محمد بن أبي عبد الله، عمّن ذكره، عن عليّ بن العباس، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن محمد بن الحكيم، قال: وصفت لأبي إبراهيم عليه السلام قول هشام بن سالم الجواليقي، وحكيت له قول هشام بن الحكم أنّه جسم. فقال: إنّ الله تعالى لا يشبهه شيء، أيّ فحشٍ أو خناءٍ أعظم من قول من يصف خالق الأشياء بجسمٍ أو صورة؟»<sup>(٣١)</sup>.

المناقشة:

وهذه الرواية أيضاً ضعيفة ولا قيمة لها؛ لكونها مرفوعة، وكذلك فإنّ فيها: عليّ بن العباس الجراذيني الرازي.

قال النجاشي: «رُمي بالغلوّ وغمز عليه، ضعيف جداً»<sup>(٣٢)</sup>.

وقال ابن الغضائري: «عليّ بن العباس الجراذيني أبو الحسن الرازيّ: مشهور، له تصنيف في الممدوحين والمذمومين يدلّ على خبثه وتهالك في مذهبه، لا يُلتفت إليه، ولا يُعبأ بما رواه»<sup>(٣٣)</sup>.

### ٤. رواية محمد بن زياد:

وروى بسنده: «عن محمد بن أبي عبد الله، عن محمد بن إسماعيل، عن الحسين بن الحسن، عن بكر بن صالح، عن الحسن بن سعيد، عن عبد الله بن المغيرة، عن محمد بن زياد، قال: سمعت يونس بن ظبيان يقول: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، وقلتُ له: إنّ هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً، إلّا أنّي أختصر لك منه أحرفاً، فزعم أنّ الله جسم... فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويحه أما علم أنّ الجسم محدود متناه»<sup>(٣٤)</sup>.



#### المنافسة:

وهذه الرواية أيضاً ضعيفة؛ لأنّ فيها بكر بن صالح، قال النجاشي: «بكر بن صالح الرازي، مولى بني ضبة، روى عن أبي الحسن موسى عليه السلام، ضعيف»<sup>(٣٥)</sup>. وقال ابن الغضائري والعلامة: «ضعيف جداً، كثير التفرد بالغرائب»<sup>(٣٦)</sup>.

#### ٥. رواية عبد الرحمن الحماني:

وروى بسنده: «عن محمد بن أبي عبد الله، عن محمد بن إسماعيل، عن علي بن العباس، عن الحسن بن عبد الرحمن الحماني، قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: إن هشام بن الحكم زعم أنّ الله جسم ليس كمثله شيء، فقال عليه السلام: قاتله الله، أما علم أنّ الجسم محدود؟»<sup>(٣٧)</sup>.

#### المنافسة:

وهذه الرواية ضعيفة؛ لأنّ فيها علي بن العباس، ضعيف متهالك في مذهبه، لا يلتفت إليه ولا يُعبأ بما قال، كما تقدّم آنفاً، وأما ما ورد من كلام الإمام بدمه، فهو يتناقض مع المدح الذي أورده الإمام في بعض الروايات، فلا بد من حمل هذا الكلام: إمّا على التقيّة، أو أن نحمل هذه الكلمة (قاتله الله) على المدح، فالعرب والعرف آنذاك تستخدم هذه المفردة على نحو الكناية كما في قولهم: «قاتله الله ما أكرمه»، وهي كلمة تجرى على اللسان وتُستعمل من غير قصدٍ إلى ما وُضعت له، بل تدعم بها العرب كلامها، كقولهم: لا أمّ له، لا أب له، تربت يده، قاتله الله ما أشجعه، وعقرى حلقي، وما أشبه ذلك<sup>(٣٨)</sup>.

#### ٦. رواية الصقر بن أبي الدلف:

روى الصدوق بسنده عن الصقر بن أبي دلف، قال: «سألت أبا الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن التوحيد، وقلتُ له: إني أقول بقول هشام بن الحكم، فغضب عليه السلام، ثم قال: ما لكم ولقول هشام، إنّه ليس ممّا من زعم أنّ الله عزّ وجل جسم، ونحن منه براء في الدنيا والآخرة، يا ابن أبي دلف،

إنَّ الجسم محدث والله محدثه ومجسمه»<sup>(٣٩)</sup>.

المناقشة:

وهذه الرواية ضعيفة أيضاً؛ لأنَّ الصقر بن أبي دلف الكرخي مجهول الحال من حيث الوثاقة.

٧. رواية إبراهيم بن محمد الخزاز:

روى الصدوق بسنده: «عن علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق، قال: حدَّثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي، عن محمد بن إسماعيل البرمكي، عن الحسين بن الحسن، عن بكر بن صالح، عن الحسين بن سعيد عن إبراهيم بن محمد الخزاز، ومحمد بن الحسين عن إبراهيم بن محمد الخزاز ومحمد بن الحسين، قالوا: دخلنا على أبي الحسن الرضا عليه السلام، فحكينا له ما روي أنَّ محمدًا صلى الله عليه وآله رأى ربَّه في هيئة الشابِّ الموفق في سنِّ أبناء ثلاثين سنة، رجلاه في خضرة، وقلت: إنَّ هشام بن سالم وصاحب الطاق والميثمي يقولون: إنَّه أجوف إلى السرة، والباقي صمد، فخرَّ ساجداً، ثمَّ قال: سبحانك ما عرفوك ولا وحدوك، فمن أجل ذلك وصفوك، سبحانك لو عرفوك لوصفوك بما وصفت به نفسك..»<sup>(٤٠)</sup>.

المناقشة:

وهذه الرواية فيها من الضعفاء والمجهولين ما يسقطها عن الاعتبار. فأبو بكر بن صالح، كما تقدّم، ضعيف جداً، كثير التفرّد بالغرائب<sup>(٤١)</sup>، كما أنَّ علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق مجهول، وكذلك الحسين بن الحسن، وهو الدينوريّ وهو مجهول أيضاً<sup>(٤٢)</sup>.

خلاصة ما تقدّم:

هذه تقريباً مجموع الروايات التي قيلت بحقّ هشام بن الحكم، وقد اتّضحت الخدشة في أسانيدّها، فلا يمكن التعويل عليها أو أن تُجعل سبباً لذمّه واتّهامه بهذه الشبهة.

### الجهة الثالثة: أدلة وقرائن تنفي عن هشام بن الحكم شبهة التجسيم

لو تنازلنا عن تلك المناقشة السندية، فهناك أدلة وقرائن تنفي شبهة التجسيم عن هشام بن الحكم نبرزها بما يلي:

(١) مفهوم الجسميّة عند هشام يعني (الشيء) ولا يعني: أنّ له أبعاداً وأعراضاً وغير ذلك.

إنّ مفهوم الجسميّة عند هشام له مصطلح آخر يختلف عما هو متعارف، والذي من لوازمه: الطول والعرض والعمق. فليس المراد هو التجسيم المعنوي الحقيقي لمعنى الجسم الماديّ.

فإطلاق مقولة إنّ (جسم لا كالأجسام) على البارئ تعالى، يريد أن يصورها هشام بن الحكم بمعنى (شيء لا كالأشياء) المأخوذة من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فحقيقة الشئيّة مفهوم مشترك بين الله تعالى وغيره، كما في بعض الصفات المشتركة بينهما، كالرازق والعالم وغيرها، ولكن في هذا الأمر يمتاز البارئ عز وجلّ بخاصيّة وجوديّة قائمة بذاتها لا توجد في سائر الأشياء الأخرى، لا تشبهه ولا يشبهها، فمن حيث إثبات الشئيّة له يخرج عن حدّ التعطيل، ومن حيثيّة نفي المثل له جلّ وعلا يخرج عن حدّ التشبيه بغيره من الأشياء. وبهذا يثبت التنزيه الكامل لله تعالى من غير تعارض بين المقولتين.

لذا، نجد أنّ السيّد الخوئي يرى أنّ هشاماً أخطأ في إطلاق المصطلح والاستعمال، ولم يخطئ في الاعتقاد، فاعتقاده صحيح ولا غبار عليه، قال: «على أنّا لو سلّمنا أنّ هشاماً كان يطلق لفظ الجسم على الله سبحانه، فهو كان مخطئاً في الإطلاق، وفي استعمال اللفظ في خلاف معناه، ولم يكن هذا خطأ باعتقاده. يدلّنا على ذلك ما تقدّم من رواية محمّد بن يعقوب، بإسناده. عن الحسن بن عبد الرحمن الحماني، أنّ هشام بن الحكم زعم أنّ الله جسم ليس كمثله شيء؛ فإنّ نفي المماثلة، يدلّنا أنّه لا يريد كلمة (الجسم) معناها المعهود، وإلّا لم يصحّ نفي المماثلة،

بل يريد معنى آخر غير ذلك، وإن كان قد أخطأ في هذا الإطلاق وفي هذا الاستعمال<sup>(٤٣)</sup>.

وكذلك نقل هذا المفهوم الأشعري وابن أبي الحديد بمعنى: أنه شيء قائم بذاته.

قال أبو الحسن الأشعري في المقالات:

«وقال هشام بن الحكم: معنى الجسم أنه موجود، وكان يقول: إنما أريد بقولي: جسم، أنه موجود، وأنه شيء، وأنه قائم بنفسه»<sup>(٤٤)</sup>.

وقال ابن أبي الحديد:

«فأما من قال: إنه جسم لا كالأجسام، على معنى: أنه بخلاف العرض الذي يستحيل أن يتوهم منه فعل، ونفوا عنه معنى الجسمية، وإنما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنه شيء لا كالأشياء، وذات لا كالذوات، فأمرهم سهل؛ لأنّ خلافهم في العبارة، وهم: علي بن منصور، والسكاك، ويونس بن عبد الرحمن، والفضل بن شاذان، وكلّ هؤلاء من قدماء رجال الشيعة، وقد قال بهذا القول ابن كرام وأصحابه، قالوا: معنى قولنا فيه سبحانه: إنه جسم، أنه قائم بذاته لا بغيره»<sup>(٤٥)</sup>.

إذاً: هناك اصطلاح خاص عند هشام بن الحكم وبعض تلامذته في إطلاق لفظ الجسم على الذات الإلهية، ولا نستطيع أن نتهمه بكونه مجسماً؛ لأنها لا تخالف الأصول العقلية أو الشرعية، نعم، قد يقال: إنّ الجسم هو اسم لله، وهذا مرتبط بتوقيفية أسماء الله تبارك وتعالى، ولكن هذا بحث آخر. وقد جوز بعضهم هذا المعنى<sup>(٤٦)</sup>.

قال ابن حزم:

«ولو أننا نصّ بتسميته تعالى جسماً لوجب علينا القول بذلك، وكنا حينئذ نقول: إنه لا كالأجسام، كما قلنا في عليم وقدير وحّي»<sup>(٤٧)</sup>.

(٢) هشام يلزم الآخرين ويعارضهم دون الاعتقاد بذلك الإلزام:

عندما كان يناظر هشام بن الحكم المعتزلة وغيرهم، فأحد أساليبه المتبعة مع الخصم إلزام الآخرين ببعض ما قالوه، وهذا لا يعني: أنه يؤمن بذلك الإلزام، فعندما ألزم العلاف وقال له: «فَلِمَ لا تقول: إنه جسم لا كالأجسام، وصورة لا كالصور»، فهذا من باب إلزام الخصم، وليس بالضرورة أن يؤمن ويعتقد به، وهذا واضح عند أرباب المناظرات، وهشام من أبرز المناظرين، بشهادة كثير من العلماء، كما تقدّم في أعلام التراجع.

قال المرتضى في كتابه الشافي: «أنّه أورد ذلك على سبيل المعارضة للمعتزلة، فقال لهم: إذا قلتم: إنّ القديم تعالى شيء لا كالأشياء، فقولوا: إنه جسم لا كالأجسام. وليس كلّ من عارض بشيءٍ وسأل عنه يكون معتقداً له، ومتديناً به، وقد يجوز أن يكون قصّد به إلى استخراج جوابهم عن هذه المسألة، ومعرفة ما عندهم فيها، أو إلى أن يبيّن قصورهم عن إيراد المرتضى في جوابها. إلى غير ذلك..»<sup>(٤٨)</sup>.

وقال الشهرستاني: «لا ينبغي أن يغفل عن إزماته على المعتزلة، فإنّ الرجل وراء ما يلزمه على الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه، وذلك أنّه ألزم العلاف فقال: إنّك تقول: الباري تعالى عالم بعلم، وعلمه ذاته، فيشارك المحدثات في أنّه عالم بعلم، ويباينها في أنّ علمه ذاته، فيكون عالماً لا كالعالمين، فلم لا تقول: إنه جسم لا كالأجسام، وصورة لا كالصور، وله قدر لا كالأقدار؟!»<sup>(٤٩)</sup>.

ومن الغريب: أنّنا نجد أنّ الشهرستانيّ يعترف بهذا الأمر، ولكنه اتهمه بأمور لا تليق بمكانته العلميّة. على أن أكثر التهم وردت على لسان الجاحظ والشهرستانيّ، وهي لا تلزمنّا.

(٣) رواية هشام عن الإمام الصادق بنفي التجسيم:

لو فرضنا أن هشاماً كان يؤمن بمقالة التجسيم فلماذا يروي عن أئمّته عليهم السلام

بعض الروايات التي تنفي هذه الشبهة.

فقد روى الكليني: «عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن العباس بن عمرو، عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال للزنديق حين سأله وقال: فتقول إنه سميع بصير، قال عليه السلام: هو سميع بصير، سميع بغير جارحة، وبصير بغير آلة، بل سميع بنفسه، وبصير بنفسه»<sup>(٥٠)</sup>.

وفي هذا دلالة واضحة أنه لا يؤمن بمقالة التجسيم، وإلا لما كان يروي هذا الكلام عن الإمام الصادق عليه السلام.

#### ٤) الرائد للحق والدافع للباطل لا يكون مجسماً:

من غير المعقول أن من يكون مدافعاً عن الحق وناصرًا له أن يتهم بكونه مجسماً أو مشبهاً، فقد تقدّم في بعض الروايات أن الإمام الصادق عليه السلام قال بحقه: «هشام بن الحكم رائد حقنا، وسائق قولنا، المؤيد لصدقنا، والدافع لباطل أعدائنا، من تبعه وتبع أمره تبعنا. وقوله: هذا ناصرنا بقلبه ويده ولسانه»<sup>(٥١)</sup>.

وكذلك عندما سأل الإمام الصادق عليه السلام عن أسماء الله واشتقاقها، (إلى أن قال): «أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل (وتناقل) به أعداءنا المتخذين مع الله عز وجل غيره؟ قلت: نعم، فقال: نفعلك الله به وثبتك يا هشام»<sup>(٥٢)</sup>.

فمن غير المعقول والمنطقي أن يقدمه الإمام عليه السلام إلى المحاججة والمناظرة، وهو يعلم أن هشاماً ممن يعتقد بالتجسيم والتشبيه.

#### ٥) الأميني يردّ على الشهرستاني دعوة التجسيم المنسوبة لهشام:

الشيخ الأميني في ردّه على الشهرستاني الذي ادّعى أن هشاماً مجسّم، قال: «هذه عقائد باطلة عزّاهّا إلى رجالات الشيعة المقتضين أثر أئمتهم عليه السلام اقتصاص الظلّ لذيّه، فلا يعتنقون عقيدة ولا ينشرون تعليماً ولا يثبتون حكماً ولا يرون رأياً إلاّ ومن ساداتهم الأئمة على ذلك برهنة دامغة، أو بيان شافٍ، أو فتوى سديدة، أو نظراً ثاقب.

على أن أحاديث هؤلاء كلّهم في العقائد والأحكام والمعارف الإلهية مبثوثة

في كتب الشيعة تتداولها الأيدي، وتشخص إليها الأبصار، وتهش إليها الأفتدة، فهي وما نسب إليهم من الأقاويل على طرفي نقيض، وهاتيك كتبهم وآثارهم الخالدة لا ترتبط بشيء من هذه المقالات، بل إنما هي تدحرها وتضادها بألسنة حداد. وإطراء أئمة الدين عليهم السلام لهم بلغ حد الاستفاضة، ولو كانوا يعرفون من أحدهم شيئاً من تلكم النسب، لشنوا عليهم الغارات، كلاءةً للئيم عن الاغترار بها، كما فعلوا ذلك في أهل البدع والضلالات.

وهؤلاء علماء الرجال من الشيعة بسطوا القول في تراجمهم، وهم بقول واحد ينزهونهم عن كل شائنة معزوة إليهم، وهم أعرف بالقوم من أضدادهم البعداء، عنهم الجهلاء بهم وبترجمتهم، غير مجتمعين معهم في حل أو مرتحل. وليس في الشيعة، منذ القدم حتى اليوم، من يعترف أو يعرف بوجود هذه الفرق: هشامية، زراية، يونسية، المنتمية عند الشهرستاني ونظرائه إليهم ككثير من الفرق التي ذكرها للشيعة<sup>(٥٣)</sup>.

فالأميني رحمته الله يردع القائلين بتهمة التجسيم لهشام وينزهه عن ذلك، ونعتقد أن الأمينى آمن بأن هشاماً وإن قال بالتجسيم كمصطلح واستعمال، ولكنه لا يقصد التجسيم المعنوي ذا الأبعاد المادية والكتل الجسمية من أعراض وحيز ومكان وطول وعرض وعمق، بل كما قلنا سابقاً: إنه يقصد أن مقولة: (جسم لا كالأجسام) بمثابة قولهم: (شيء لا كالأشياء)، فصور الجسم كالشيء اصطلاحاً ولفظاً، أي: أنه يثبت وجود البارئ تعالى بكونه شيئاً، ولكن في نفس الوقت يخرجها عن حد التعطيل، وكذلك (لا كالأجسام)، أي: (لا كالأشياء)، فينفي عنه تبارك ذكره كل شبه للأجسام ومماثلة بينه وبينها، فهو إخراج له تعالى عن حد التشبيه، كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فهذه الآية نفت عن وجوده تعالى المماثلة لغيره من الأشياء. وهذا هو التنزيه الكامل الذي ليس فيه شائبة التجسيم.

### ٦) الإمام الرضا عليه السلام ينفي الجسميّة في حديث الصورة:

أمّا حديث الصورة المنسوب الى هشام، فقد فسّره الإمام الرضا عليه السلام بما يغير من يقول بالتجسيم. روى الصدوق في (عيون أخبار الرضا) بسنده: «عن الحسين بن خالد، قال: قلت للرّضا عليه السلام: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله، إنّ الناس يروون: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته، فقال: قاتلهم الله، لقد حذفوا أوّل الحديث: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبح الله وجهك ووجه من يشبهك، فقال صلى الله عليه وآله له: يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك، فإنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته»<sup>(٥٤)</sup>.  
فهذا الحديث يبيّن أنّ هناك سقوطاً في كلمات الحديث، فالمراد هو عود الضمير في (صورته) إلى الشخص الذي يشبه آدم، وليس المراد هو الله جلّ شأنه.

### رؤية الشيخ المفيد لهذه المقالة

يبقى شيء واحد، وهو قول الشيخ المفيد رحمته الله الذي قد تشبّث به البعض بأنّ هشاماً يرى التجسيم، قال: «لم يكن في سلفنا من تدبّر بالتشبيه من طريق المعنى، وإنّما خالف هشام وأصحابه جماعة أصحاب أبي عبد الله عليه السلام بقوله في الجسم، فزعم أنّ الله جسم لا كالأجسام»<sup>(٥٥)</sup>.  
الجواب:

قد طرحنا نظرتنا في هذا الأمر، والتي تنأى بهشام عن هذه الشبهة، فقول الشيخ المفيد بالمخالفة فيه شيء من المسامحة، ولعلنا نستفيد من عبارته: أنّ هشاماً خالف «بقوله في الجسم» لا أنّه خالف «في القول بالجسم»، فهذا المفهوم خالف فيه هشام جميع الشيعة كمصطلح ليس إلّا، وهو تفسير مختصّ به؛ لكثرة مناظراته ومجادلاته مع الخصم، فيشتقّ بعض المصطلحات التي لا تعبّر بالضرورة عن معتقده كما تقدّم، ولا يقصد منه التجسيم بمعناه المعنويّ.



## الجهة الرابعة: نتيجة وحكم

بعدما تقدّم نستنتج ونلخص الأمور التالية:

### (١) التاريخ يبرّؤه من هذه التهمة:

إنّ التاريخ لا يستطيع أن يثبت لنا أنّ هشاماً كان مجسّماً، بل نجد أنّ هناك تضارباً في أحواله، بل على العكس، حدّثنا بكونه شخصيّة كبيرة لها وزنها العلميّ، فهو يعدّ من أبرز المناظرين الذين قلّ نظيرهم في التاريخ الإسلاميّ، لا سيّما في ميدان العقيدة والكلام، فله صولاتٌ وجولاتٌ ومنازلاتٌ مع المعتزلة وغيرهم، ودافع عن مذهب أهل البيت وقواعده التي تتّسم بالتنزيه المطلق الذي لا يشوبه التجسيم.

### (٢) وكذلك أهل الرجال:

إنّ التراجم الرجاليّة حدّثتنا عن أنّ هذا الرجل، بعيدٌ كلّ البعد، عما اتّهم به، فهو يعدّ من متكلمي الشيعة وبطائهم، وهو الثقة في الروايات، ومدحه أئمة الشيعة، كالإمام الصادق والكاظم عليهما السلام في أكثر من موقع، وترحم عليه الإمام الرضا، وعلّل من وصفه بهذه الشبهة بالحسد منهم له.

### (٣) شهادات ووثائق تنزّيه عن شبهة التجسيم:

ذكرنا شهادات تنزّيه عن شبهة التجسيم، كما في قول النجاشيّ، إنّّه حسن التحقيق، وقلنا: إنّ المراد من هذا الوصف أنّ ما يؤمن ويعتقد به هشام مطابق للمذهب وأصوله وقواعده المبتنية على التنزيه بجميع أبعاده. وكذلك شهادة العلامة الحليّ الذي دافع وأجاب عما اتّهم به في كتابه الكبير، ومن ثمّ وصفه بالرجل العظيم الشأن والرفيع المنزلة. وكذلك شهادة ابن داود الذي قال عنه: إنّ حال عقيدته معلوم وثناء الأصحاب عليه متواتر، وكذلك شهادة السيّد الخوئيّ ببراءته من هذه التهمة، حينما قال: بعدم ظنّه في الروايات التي وصفت هشاماً بالتجسيم، ووصفها بأنّها كلّها موضوعة ومجعولة، وسبب هذا الوضع

هو الحسد والبغض لهشام.

(٤) ضعف جميع الروايات التي وصفته بهذه التهمة:

ناقشنا جميع الروايات التي اتهم بها، وقد اتضح أنّها واهنة وضعيفة ولا ترتقي إلى الاعتبار.

(٥) القرائن والدلائل تبطل هذه الشبهة التي ألصقت به:

ثم استدللنا على نفي هذه الشبهة بأدلة وقرائن تنزهه عما اتهم به، نذكر منها: أنّه أورد هذا المفهوم، أي: الجسم، بمعنى: الشيء، لفظاً لا معنىً، وكذلك أورد هذا المصطلح على نحو الإلزام دون الاعتقاد به، وغير ذلك من القرائن. إذاً: نستطيع أن نحكم، من خلال بحثنا، أنّ هشاماً يعدّ من العلماء الكبار الذين لهم الباع الكبير في الدفاع عن المذهب، وهذا المذهب قائم على نفي التجسيم والتشبيه، فهذه الشبهة لا يمكن أن يتلبس بها هشام بن الحكم (رضوان الله عليه) وغيره من رواتنا الأجلاء بمقتضى ما تقدّم من مجموع بحثنا. والحمد لله ربّ العالمين..

\* \* \*

الهوامش:

(١) الدكتور ناصر بن عبد الله القفاري، كاتب وأستاذ في العقيدة في جامعة أمّ القرى في المملكة العربية السعودية.

(٢) ابن تيمية الحرّاني، مجموع الفتاوى ١٣: ١٥٤، تحقيق: عبد الرحمن العاصمي النجدي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، ط ٢.

(٣) ناصر القفاري، أصول مذهب الشيعة ٢: ٦٤٠، الناشر: دار الرضا - الجيزة، ط ٣، ١٤١٨ هـ.

(٤) المصدر نفسه ٢: ٦٤٠.

(٥) الإمام محمد عبده، نهج البلاغة ١: ١٥-١٦، الناشر: دار الذخائر، قم - إيران.

- (٦) هو الشيخ محمد أحمد مصطفى أبو زهرة، ولد (١٣١٦ هـ - ١٨٩٨ م)، من مواليد المحلة الكبرى، إحدى مدن محافظة طنطا، بالوجه البحري بمصر، حصل على عالمية القضاء الشرعي مع درجة أستاذ بتفوق عام ١٣٤٣ هـ، عمل مدرّساً للعلوم الشرعية والعربية في كليتي: دار العلوم وأصول الدين بجامعة الأزهر، والحقوق بجامعة القاهرة، شغل منصب أستاذ محاضر للدراسات العليا بالجامعة عام ١٣٥٤ - ١٩٣٥ وعضو المجلس الأعلى للبحوث العلمية، ورئيس قسم الشريعة، ووكيل كلية الحقوق ومعهد الدراسات الإسلامية. من مؤلفاته: محاضرات في تاريخ المذاهب الإسلامية، ابن تيمية آراؤه وفقهه، أبو حنيفة حياته وعصره، الامام الصادق حياته وعصره، ابن حنبل حياته وعصره، تاريخ الجدل، خاتم النبيين، الأحوال الشخصية وأصول الفقه، العلاقات الدولية في الإسلام، موسوعة الفقه الإسلامي، التكافل الاجتماعي في الإسلام، الخطابة في المجتمع الإسلامي، الوحدة الإسلامية، وغيرها. قضى حياته مقاتلاً بالخطابة وبالكتابة وبالمحاضرة في سبيل أفكاره ومعتقداته، توفي في ١١ أبريل سنة ١٩٧٤ م. انظر: لمعي المطيعي، موسوعة هذا الرجل من مصر: ٤٨٩ - ٤٩٠، بتصرف في العبارة. الناشر: دار الشروق - مصر.
- (٧) أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ١٨٢ - ١٨٣، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة.
- (٨) المصدر نفسه: ١٨٢ - ١٨٣.
- (٩) هو الأستاذ المحقق سعيد بن عبد اللطيف فودة، من أصل فلسطيني، من قرية بيت دجن، شافعي المذهب، وقد التقى كثيراً من العلماء المعاصرين، وأجازوا له بالرواية وأثنوا على علمه، مثل الشيخ محمد علوي المالكي، والشيخ عبد الله سراج، والعلامة إبراهيم خليفة، وقد أجازاه الأخير في مختلف العلوم كعلم التفسير ودقائقه وشرح الحديث، وعلم التوحيد وغيرها. من مؤلفاته: الكاشف الصغير، والتعليقات على الإخيمي، وتهذيب شرح السنوسية، وتدعيم المنطق، وشرح صغرى الصغرى، ونقض التدمرية، وشرح السلم المنورق،.... وغيرها.
- (١٠) سعيد فودة، من محاضرة له بعنوان: السلفية المعاصرة وأثرها في تشتيت المسلمين، موقع منتدى الأصلين: <http://www.aslein.net>.
- (١١) أحمد أمين، ضحى الإسلام ٣: ٢٦٨، الناشر: مكتبة النهضة، مصر.
- (١٢) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل ١: ١٨٥، ط دار المعرفة، بيروت.
- (١٣) الذهبي، منتقى منهاج الاعتدال: ٢٤، شبكة المشكاة الإسلامية.
- (١٤) انظر: عبد الله نعمة، هشام بن الحكم: ٦٠، ط دار الفكر اللبناني، ١٤٠٥ هـ، بيروت.
- (١٥) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ٢: ٥٢٩، ط مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ١٤٠٤ هـ.
- (١٦) النجاشي، رجال النجاشي: ٤٣٤، ط مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، الطبعة

- الخامسة، ١٤١٦هـ، قم.
- (١٧) الطوسي، الفهرست: ١٥٨، ط مؤسسة نشر الفقاهة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- (١٨) الطوسي، رجال الطوسي ٢: ٥٢٩، ط مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤١٥هـ.
- (١٩) ابن النديم، الفهرست: ٢٤٩، الناشر: دار المعرفة، ١٣٩٨-١٩٧٨، بيروت.
- (٢٠) العلامة الحلي، خلاصة الأقوال: ٢٨٨-٢٨٩، ط مؤسسة نشر الفقاهة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- (٢١) ابن داود الحلي، رجال ابن داود: ٢٠٠، ط منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.
- (٢٢) الخوئي، السيد أبو القاسم، معجم رجال الحديث ٢٠: ٣٢١، ط مركز نشر الثقافة الإسلامية، الطبعة الخامسة.
- (٢٣) ابن داود الحلي، رجال ابن داود: ٢٠٠.
- (٢٤) المصدر نفسه: ٢٨٤.
- (٢٥) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ٢: ٥٤٧؛ والأردبيلي، جامع الرواة ٢: ٣١٣، ط مكتبة المحمدي.
- (٢٦) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ١: ١٠٤، الطبعة الخامسة ١٣٦٣ش، ط دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (٢٧) الطوسي، اختيار معرفة الرجال ٢: ٧٠٦؛ والحلي، خلاصة الأقوال: ٣٣٤.
- (٢٨) العلامة الحلي، خلاصة الأقوال: ٣٦٣.
- (٢٩) الكليني، الكافي ١: ١٠٥.
- (٣٠) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٣: ٢٨٨، الطبعة الثانية، ط مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ، بيروت.
- (٣١) الكليني، الكافي ١: ١٠٥.
- (٣٢) النجاشي، رجال النجاشي: ٢٥٥.
- (٣٣) الخوئي، معجم رجال الحديث ١٣: ٧٢.
- (٣٤) الكليني، الكافي ١: ١٠٦.
- (٣٥) النجاشي، رجال النجاشي: ١٠٩.
- (٣٦) أحمد بن الحسين الغضائري، رجال الغضائري: ٤٤، الطبعة الأولى، ط دار الحديث، ١٤٢٢هـ، والحلي، خلاصة الأقوال: ٣٢٧.

- (٣٧) الكليني، الكافي ١: ١٠٦.
- (٣٨) النووي، شرح صحيح مسلم ٩: ٧٤، ط دار الكتاب العربي، بيروت.
- (٣٩) الشيخ الصدوق، توحيد الصدوق: ١٠٤، ط منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.
- (٤٠) الشيخ الصدوق، توحيد الصدوق: ١١٣-١١٤.
- (٤١) العلامة الحلي، خلاصة الأقوال: ٣٢٧.
- (٤٢) مضافاً إلى عدم نقل القول بالتجسيم فيها عن هشام بن الحكم، ولكن لما كان حال من ذكر فيها كحال هشام بن الحكم أوردها صاحب المقال هنا. (التحرير).
- (٤٣) الخوئي، معجم رجال الحديث ٢٠: ٣٢٠-٣٢١.
- (٤٤) الأشعري، أبو الحسن، مقالات الإسلاميين: ٣٠٤، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٤٥) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٢٨، ط دار إحياء الكتب العربية.
- (٤٦) وهذا ما نجده في كلمات الجبائي، قال: «إنَّ العقل إذا دلَّ على أنَّ الباري عالم، فواجب أن نسميه عالماً، وإن لم يسم نفسه بذلك، إذا دلَّ على المعنى، وكذلك في سائر الأسماء. وخالفه البغداديون من المعتزلة فزعموا أنه لا يجوز أن نسمي الله عزَّ وجلَّ باسمٍ قد دلَّ العقل على صحَّة معناه إلاَّ أن يسمي نفسه بذلك...»، انظر: مقالات الإسلاميين ١: ٥٢٥.
- (٤٧) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢: ٩٣، ط مكتبة الخانجي، القاهرة.
- (٤٨) السيّد المرتضى، الشافي في الإمامة ١: ٨٤، ط ٢ مؤسسة اسماعيليان، قم، ١٤١٠هـ.
- (٤٩) الشهرستاني، الملل والنحل ١: ١٨٥.
- (٥٠) الكليني، الكافي ١: ١٠٩.
- (٥١) انظر: المرتضى، الشافي في الإمامة ١: ٨٥.
- (٥٢) الكليني، الكافي ١: ٨٧.
- (٥٣) الأميني، الغدير ١: ١٤٣، ط ٤ دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٧هـ.
- (٥٤) الصدوق، عيون أخبار الرضا ٢: ١١٠، تصحيح وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي، ط مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٤هـ، بيروت.
- (٥٥) الشيخ المفيد، الحكايات: ٧٧-٧٨، ط ٢ دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ، بيروت.

من  
وهي المناسبات  
﴿﴾

الإمام جعفر الصادق عليه السلام  
إطالة موجزة على حياته النورانية المشرقة

□ الشيخ علي محسن

تقديم

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتن بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»<sup>(١)</sup>.

كلمة قالها نبيّ الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله منذ نيّف ألف وأربعمائة عام.. وهي فترة طويلة، وطويلة جداً. ولكنها ليست كلمة قيلت في الأزمنة الغابرة وانقضت الأمر، وليست مجرد كلمة تفوّه بها رجل عظيم، وليست مجرد كلمة قيّمة بالنظر إلى ما تحمله من بُعد تاريخي، أو بالنظر إلى ملابسات صدورها الظرفيّة والآنيّة.. وإنما هي كلمة خالدة، باقية أبد الدهر، وصوتٌ صادق لا يزال صداه آخذاً بالصعود والتردد والانتشار في مسامع وآذان كلّ من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

هي كلمة لها كل الحق في أن تُسمّى: «كلمة الإسلام»، أو «كلمة الإيمان»؛ لأنها - ببساطة - تتضمن دستور الحياة الإسلامية والإيمانية الصحيحة، وهي - على إيجازها - تضمنت كل ما يحتاجه (المسلم - المؤمن) في مسيرته الأخروية، وفي حياته الدنيوية..

هذه هي الحقيقة الناصعة التي لا مرأى فيها، وهذا هو نور الحقيقة الساطع، الذي لا تستطيع أن تحجبه سحائب التشكيك الداكنة.

فالقرآن الكريم والعتر الطاهرة (أهل البيت) عدلان، لا يفترقان أبداً، منذ عالم التكليف والعمل والابتلاء والمسؤولية، وحتى عالم الجزاء والحساب المعبر عنه في الحديث بـ (ورود الحوض على رسول الله ﷺ)..

وعدم افتراقهما الأبدي (لن يفترقا)، كناية - بل تصريح - عن أنه كما لا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر، فكذلك لا يمكن أن يُستغنى بأحدهما عن الآخر.. وهو - أيضاً - إشارة واضحة إلى أنه يُستدَل على أحدهما بالآخر، بمعنى: أن أي مسلم ومؤمن أراد أن يعرف حقيقة إسلامه وإيمانه، وموقعيته من كتاب ربه، وأنه ممن اهتدى وآمن به واتبع آياته، أم أنه من الفريق الذي أوتي كتاب الله فنبذ وراء ظهره، فعليه أن يعتبر حاله بالنسبة إلى موقعيته من آل البيت (عليهم السلام)، في الصعد كافة: في الحب والمودة، في الاتباع والافتداء والتأسي، وفي التولي لهم والتمسك بهم والتبري من أعدائهم..

وكذلك العكس، فإن أراد المسلم أن يختبر حقيقة إيمانه وإسلامه، وأنه ممن تمسك بالآل واهتدى بهداهم، فالطريقة المتاحة له لذلك هي أن يقوم بعرض نفسه وأعماله وأفكاره على تعاليم القرآن الكريم وآياته..

وورودهما الحوض على النبي ﷺ دليل على أن كل من يدعي الانتماء إليه ﷺ والتدين بشريعته فهو مسؤول يوم القيامة عن موقفه من القرآن والعتر، وأنه هل خالف وصية النبي ﷺ ففرق بينهما في حياته؟ أم أنه امتثل

الأمر النبويّ الذي لا يصدر عن هوى، بأن حافظ على كونها عدلين لا يفترقان، ولم يفرّق بينهما، لا على مستوى مبادئه العقائدية والإيمانية والفكرية، ولا على مستوى العمل والجانب السلوكي؟ ويؤيد هذا المعنى - أيضاً - الفقرة الواردة في بعض نسخ الحديث، وهي قوله ﷺ: «فانظروا كيف تخلفوني فيها»<sup>(٢)</sup>. كما يؤيد هذا المعنى - أيضاً -: تسمية كل من الكتاب والعترة (ثقلاً)، للثقل الكائن في وجوب رعاية حقوقهما.

وفي قوله ﷺ (ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً)، يجعل نبي الرحمة ﷺ شرطاً وجزاءً، سبباً ونتيجةً.

فالشرط والسبب هو (التمسك بهما)، أي: بالقرآن والعترة، وعنوان (التمسك بهما)، كما هو واضح، لا يمكن أن يتحقّق إلاّ بالأخذ بهما معاً، وعدم التفريق بينهما في شيء أصلاً، حيث إنّ ﷺ لم يقل: ما إن تمسّكتم بأحدهما، وإنّما قال: بهما.

وأما الجزاء والنتيجة المسببان عن التمسك بهما، فهو نجاة الأمة من الضلالة، حيث أُسند الفعل (تضلّ) إلى واو الجماعة. ونجاة الأمة من الضلالة عبارة عن دخول الأمة - ككل - إلى حصن منيع يحول دون تحبّطها وتيهيها وانحرافها، وبما أنّ كلامه ﷺ مطلق غير مقيّد، فيكون مراده من عدم الضلالة: عدم الضلالة في المجالات كلّها وعلى كافّة الصعد: المعنوية منها والمادّية، الدنيوية والأخروية. وهذا يعني: أنّ الأمة عندما تتخذ من آيات القرآن دستوراً ونبراساً لها، وعندما تستنير بتعاليم أهل البيت عليهم السلام، وعندما تُقدّمهم ولا تتقدّم عليهم، وعندما تتمسّك بهم ولا تقصّر في حقوقهم، فبمقدورها - ساعتئذٍ - أن تضمن لنفسها احتلال المواقع الريادية في المجالات كافّة، لتكون كما قال عز وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهكذا يكون حال الأمة عندما تُقدّم من يُقدّمه الله، وعندما تُمكن من يعصمه الله، كما قال ﷺ - في بعض



روايات حديث الثقلين -: «فلا تُقدموها فتَهْلِكُوا، ولا تُقَصِّروا عنها فتَهْلِكُوا، ولا تعلموهم فهم أعلم منكم»<sup>(٣)</sup>. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال - أيضاً -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وأحد هؤلاء الصادقين المطهرين من الرجس هو الإمام الهمام «جعفر بن محمد الصادق عليه السلام»، إمام المسلمين، وأستاذ الفقهاء والمحدثين، ومرجع العلماء والمفكرين، الذي مرّت بنا أخيراً - في الخامس والعشرين من شهر شوال - ذكرى شهادته الأليمة.

هذه الشخصية الإسلامية الجامعة، والنفس الطاهرة الزكية، وهذا المؤمن الذي تقلّب، طيلة فترة حياته العابقة جهاداً وتضحيات، وعلماً وعبادة، تقلّب بين أحضان الفضيلة، وسار، على خطى جدّه النبي ﷺ وآبائه الطاهرين عليه السلام، فكان ملتقى للفضائل في كلّ ناحية من نواحي حياته، واستطاع أن يجسّد التربية المحمّدية بأروع صورها وأبهى حللها، وكيف لا؟! وهو ابن هذه الدوحة، وفرع هذه الشجرة الطيبة..

وأقلّ أقلّ الوفاء لهذا الإمام العظيم هو أن نقف لدى ذكرى حياته وشهادته، وقفة تأملية متأنية تكون لنا مدداً وعوناً في مواجهة تحديات واقعنا المعاصر؛ لتتعلّم منه عليه السلام كيف نتخذ المواقف الشجاعة، وكيف نختار الخيارات المشرفة، وكيف نعمل في أحلك الأوقات وأصعب الظروف وأكثرها عتمةً وسواداً للوصول إلى نور الاطمئنان النفسي برضا الله عزّ وجلّ، ولنتعلّم منه السبل والأساليب الصحيحة لممارسة الجهاد العلمي والسياسي والكلامي.. لغرض تحقيق الإرادة الإلهية أولاً، والنهوض بالأمّة في مختلف ميادين الحياة ثانياً.

وفي هذا المجال، لا يسعنا أن نتطرّق لكافة جوانب حياته وسيرته عليه السلام؛ إذ ذلك - لا محالة - خارجٌ عن قدرات وطاقات البشر العاديين، ولا غرو،

فالشخصية التي نتحدث عنها ليست شخصية عادية، وإنما هي شخصية واحد من الأئمة المعصومين الذين هم موضع عناية الله ولطفه ورحمته وتسديده المباشر، وهو أحد أعلام أهل البيت عليه السلام الذين رُقوا العلم زقاً، فقد رباهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وأدبهم فأحسن أدبهم، فكانوا قوامين بأمر الله، عاملين بما أمرهم به، وتاركين لما نهاهم عنه، حتى صار رضاه تعالى في رضاهم، وصارت طاعته في طاعتهم، بل صارت ولايتهم شرطاً في قبول الأعمال..

وإنما - ومن باب أن الميسور لا يسقط بالمعسور - نكتفي بتقديم الإمامة سريعة حول حياته المباركة، وإطلالة موجزة على المفاصل الأساسية من سيرته عليه السلام، لنعرج بعدها على نقل بعض ما قيل فيه من سطور وكلمات تظهر عظمتة وإجماع المسلمين على فضله وعلمه ولزوم تقديمه، وتكشف عن موقعيته ومرجعيته في الواقع الإسلامي، وصولاً إلى استعراض بعض المقاطع النورانية من كلماته وأقواله ومناظراته التي أفحم بها الخصوم، وأسهم بها في تشييد أركان الدين وأسس العلم وأصول الثقافة، وفي تسريع دولا ب الحركة الحضارية الإسلامية والنهوض بها، حتى غدا لمعارف الإسلام ولمنظومته الحضارية منزلة السبق وحقّ التقدّم على سائر الحضارات، وبات التقدّم العلمي، الذي يتشددّ به الغرب، عيالاً علي الجامعة العلمية الكبرى التي بناها إمامنا الصادق عليه السلام بإخلاصه وجهوده المنقطعة النظير، كلّ ذلك، ليعلم الناس، جميع الناس، ما الذي خسروه ويخسرونه، إذ تركوا ويتركون لأهوائهم أن تسيّرهم فتجعلهم يقدّمون المفضول على الأفضل.. وليدرك الناس، جميع الناس، ما الخير الكثير الذي يفوتونه على أنفسهم بعدم تمكينهم لمن أمرهم الله تعالى ونبيه صلى الله عليه وآله بتمكينه.. كما قال - عزّ من قائل - : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فنقول وبالله التوفيق:

## (١) ميلاده ونشأته:

هو الإمام جعفر بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين الشهيد بن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، من كان لنبيّ الله الأعظم صلّى الله عليه وآله نفساً وأخاً وصهرًا وخليفةً ووصياً وحبیباً ونجياً وابن عمّ ومستودعاً للعلم وحاملاً للواء و... و... وهكذا ينتهي نسب إمامنا الصادق عليه السلام إلى عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، من زوجته الطاهرة، سيّدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء، بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله وبضعته..

وأمّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام هي النجبية الجليلة المكرّمة: فاطمة، المعروفة بـ (أم فروة)، وهي بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأمّها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر. ولذلك كان الإمام عليه السلام يقول: «ولَدني أبو بكرٍ مرّتين»<sup>(٤)</sup>. كانت من الصالحات القانتات، ومن أتقى نساء أهل زمانها، وفيها يقول إمامنا الصادق عليه السلام: «وكانت أمّي مَن آمنّت واتّقت وأحسنّت والله يحبّ المحسنين»<sup>(٥)</sup>.

وكانت ولادته عليه السلام في المدينة المنورة، في السابع عشر من شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث وثمانين من الهجرة - على المشهور -، وهو نفس اليوم الذي وُلِد فيه جدّه النبيّ صلّى الله عليه وآله على أشهر الرويات. كنيته: أبو عبد الله، وله ألقاب كثيرة، أشهرها: الصادق، ومنها: الصابر والفاضل والطاهر.

عاصر عليه السلام خمسةً من حكام بني أميّة واثنين من حكام بني العبّاس؛ أمّا حكام بني أميّة، فهم: هشام بن عبد الملك، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد بن مروان بن الحكم. وأمّا الاثنان من حكام بني العبّاس، فهما: أبو العبّاس السفّاح وأبو جعفر المنصور.

تربّى الإمام الصادق عليه السلام وترعرع في كنف والده الإمام محمد الباقر عليه السلام وجده الإمام زين العابدين عليه السلام، وكان والده الباقر عليه السلام في عصره إمام المسلمين ومرجع علمائهم وفقهائهم ومحدثيهم، فقد تتلمذ عليه المئات من مشايخ العلم والحديث؛ إذ كان عليه السلام قد جعل مسجد النبي صلى الله عليه وآله جامعةً لبث علوم الشريعة الإسلامية وتفجير عيونها، حتى اعترف القاضي والداني بجليل قدره وعظيم شأنه وغزير علمه، ولُقّب بـ «الباقر» لأجل ذلك.. وهذا «عبد الله بن عطاء» - أحد أعلام التابعين - يشهد فيه شهادةً للتاريخ، فيقول:

«ما رأيتُ العلماء عند أحدٍ أصغر علماً منهم عند أبي جعفر»<sup>(٦)</sup>.

وإذا كان إمامنا الصادق عليه السلام قد تربّى في ظلال هذا البيت المنتهي في العلم والإيمان والأخلاق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا عجب - إذاً - في أن يكون له عليه السلام منزلة علمية مرموقة على صغر سنّه.

يقول الأستاذ عبد الحليم الجندي في كتابه: «الإمام جعفر الصادق عليه السلام»: «والصبي من أهل البيت لا ينفق صباه في (عمل لا شيء)، فذلك هو اللهو، أو في (عدم عمل شيء)، فهذا هو الفراغ.. وعلى الأجيال المتعاقبة منهم تبعات في تعاقب الإمامة لا تدع لهم محيصاً عن الإحاطة الكاملة بما لدى غيرهم من علم، فوق علمهم، وما هو إلا القرآن والسنة والسيرة، والقرآن - كما يقول ابن عباس -: في بيتهم نزل، والسنة من بيتهم صدرت، والسيرة سيرتهم..»<sup>(٧)</sup>.

وفي ملخص القول، فإن السلسلة العلمية للإمام الصادق عليه السلام تنتهي عند جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالتالي: عند العلم الإلهي الموحى على قلب نبينا صلى الله عليه وآله، كما يؤكد الإمام الصادق عليه السلام نفسه هذه الحقيقة بقوله:

«حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير

المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله قول الله عز وجل<sup>(٨)</sup>.

وهنا بالذات، يتّضح لنا بشكل جلي: أنّ حياة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، هي - كعلمهم وتربيتهم - حلقات متواصلة ومتراصة ومتفاعلة، تنتمي إلى سلسلة واحدة، لا فاصلة فيما بينها، ولا يمكن تقطيعها ولا تجزئتها ولا خرق امتدادها الواحد، فهم نورٌ واحدٌ متّصلٌ بالحلقة النورانية الأعظم، أعني بها: الحلقة المحمدية النبوية الخاتمة.. وتشكّل هذه السلسلة مدرسة متكاملة، وتجربة حيّة، يتجسّد من خلالها الإسلام، وتطبّق فيها أحكامه، وتُحفظ عندها تعاليمه وقيمه..

وهذا - بدوره - يفرض علينا أن نفضّل النظرة الكلية الشمولية إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام، التي تقوم على أساس النظر إلى الأئمة عليهم السلام ككلّ مترابط، له - بتعبير شهيدنا الكبير السيد محمد باقر الصدر رحمته الله - ملامحه العامة، وأهدافه المشتركة، ومزاجه الأصيل، وهذا - بدوره - ما يجعلنا نرّجح هذه النظرة العمومية على النظرة التجزيئية القائمة على دراسة كلّ إمام بصورة مستقلة، وإن كانت هذه الدراسة التجزيئية، هي في حدّ ذاتها، تُعتبر خطوةً ضروريةً، وتمثّل مقدّمةً لازمةً ولا يمكن الاستغناء عنها في سبيل إنجاز الدراسة الشاملة، والحصول على النظرة الكلية.

وفي هذا يقول الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر رحمته الله:

«في عقيدتي: إنّ وجود دورٍ مشتركٍ مارسه الأئمة جميعاً، ليس مجرد افتراضٍ نبحث عن مبرراته التاريخية، وإنّما هو ممّا تفرضه العقيدة نفسها، وفكرة الإمامة بالذات؛ لأنّ الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها، فيجب أن تنعكس انعكاساً واحداً في شروط الأئمة عليهم السلام وأدوارهم، مهما اختلفت أدوارها الطارئة بسبب الظروف والملابسات، ويجب أن يشكّل الأئمة بمجموعهم وحدةً

مترابطة الأجزاء، ليواصل كل جزء من تلك الوحدة الدور للجزء الآخر ويكمله»<sup>(٩)</sup>.

وإذا عرفنا كل ذلك، استطعنا أن نقف على حقيقة الأجواء والبيئة والمدرسة العلمية والفكرية التي نشأ فيها إمامنا الصادق عليه السلام؛ لنعرف أن هذا الإرث الضخم الذي تركه هذا الإمام للعالم الإسلامي، وهذا العطاء الثر في مجالات: الحديث والتفسير والكلام ومعارف التوحيد والفقه وسائر فروع الشريعة وعلومها، ما هو إلا النقل الأمين، والامتداد الصادق، والاستمرار النزيه، والبيان العملي الواضح، لمعارف النبوة وامتليقات الوحي. إذ لم يكن أهل البيت عليه السلام، وهم مفسرو الوحي الحقيقيون، ليقصروا في علمهم على الفقه، بل كانوا في الطليعة دائماً، وكانوا هم النبع الرقراق، والطريق المضيء في دروب علوم الإسلام الأخرى، وفي كل ما يحتاجه المسلمون، بل الفكر الإنساني برمته، من تفسير وكلام وأخلاق وتربية...

## ٢) المعالم العامة للأجواء العلمية في عصر الإمام عليه السلام:

يرى عدد كبير من المؤرخين والملاحظين - بحق - أن العصر الذي عاش فيه إمامنا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام هو عصر متميز وفريد من نوعه، فقد كانت تلك السنين - على الرغم من الكثير مما شابها من الظلم والفتن والحروب ومظاهر التخلف والركود - سنين مضيئة ومشرفة في الحياة العلمية للأمة الإسلامية، بل يمكن اعتبار ذلك العصر عصراً مصيرياً كان له الدور البالغ في الدفع بموقع الأمة - في سلم الحركة العلمية والحضارية - نحو الأمام، وإلى أعلى الدرجات، فقد شكّلت تلك الحقبة بالنسبة إلى المسلمين حقبة النمو العلمي والازدهار الحضاري، وفي الوقت عينه، فهي حقبة شهدت الكثير الكثير من المبادلات الثقافية بين الحضارات، ولا سيما بين الحضارة الإسلامية -

التي بلغت ذروة مجدها وربيع عمرها ونشاطها في تلك الأثناء - وبين غيرها من الحضارات وثقافات الشعوب والأمم وعقائدها وعاداتها وأعرافها وأدبياتها. ففي ذلك العصر، كان نمو الترجمة كظاهرة ضرورية في اتصال الشعوب من أبناء اللغات المختلفة بعضهم ببعض، الأمر الذي أسفر عن انتقال كثير من العلوم والمعارف والجهود العلمية من لغات أجنبية إلى اللغة العربية، وبدأ المسلمون بتلقي هذه العلوم والمعارف والعمل على دراستها وتنقيحها، وتجلى ذلك من خلال تقديمها لها وإبداء ملاحظاتهم عليها تارة، والإضافة إليها وتوسعة دائرتها والزيادة عليها تارة أخرى، وتعميق أسسها وأصولها ثالثة، وهكذا.. ما أدى إلى نشوء حركة علمية وفكرية ناشطة تمكنت من إحياء روح البحث العلمي وإعادة بعثها من جديد في أوصال ذلك المجتمع الذي لم يكن قد تسنى له بعد أن يتعافى من الفتن والثورات التي كانت تعصف به وتأخذ بتلابيبه بين الفينة والأخرى.

وعلى إثر ذلك، تحوّل المسلمون إلى شعبٍ محبٍّ للعلم، ميّالٍ إلى طلبه، مندفع نحو الإمام به والإحاطة بمجماعه، عاملٍ على تطويره وتحسينه وفتح آفاق وأبوابٍ جديدةٍ فيه، فكان - لذلك - أن رأينا اندفاع المسلمين نحو الاشتغال بعلوم الطبّ والفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء وغيرها من دوحات العلوم وغصونها، على تنوعها وتشعبها واختلافها.

والذي أسهم - أيضاً - في دفع العجلة العلمية أكثر فأكثر، تلك العلوم التي نُقلت عن اليونانية والفارسية وغيرها إلى اللغة العربية، كالفلسفة ومبادئها ونظرياتها، والمنطق وأصوله وقواعد التفكير والاستدلال، التي تعرّف المسلمون من خلالها على نهج جديد من التفكير العقائدي والفلسفي.

وقد كان من الطبيعي - أيضاً - أن يكون لهذا التفاعل الحضاري الجديد أثره السلبي والإيجابي - معاً - على الساحة الفكرية الإسلامية، ففي ردّات الفعل

والمواقف المتَّخِذة إزاء هذه الهجمة الحضاريّة الوافدة: نشأ - في داخل الوسط الإسلاميّ - تيّار من الشكّ والإلحاد، وعدد لا بأس به من الفرق الكلاميّة الباطلة، ومذاهب شاذّة، وآراء وأفكار ما أنزل الله بها من سلطان. وعلى الطرف المقابل، برز للخطّ الإسلاميّ الأصيل موقفٌ علميّ وعقائديّ متين، تمكّن هذا الخطّ بقوة منطقته، ورجاحة حجّته، ووضوح براهينه، وبفضل الرؤية الثاقبة والبصيرة الواحدة التي تطبّع بها أصحابه وأتباعه، تمكّن من إيقاف زحف الغزو الحضاريّ الجديد، أو على الأقلّ: من شلّ حركته والحدّ من سرعة انتشاره، وذلك عبر الكشف عن مخططاته ونواياه، وفضح زيف ما يدعو إليه، وتبسيط الضوء لدى الرأي العامّ على ما فيه من مكامن الضعف والخلل، وقد أثرى ذلك كثيراً أبحاث الفكر والكلام والعقائد والرؤية الكونيّة لدى المسلمين، ولا سيّما في مجال المناظرات والجدل وأساليب ردّ الشبهات..

وقد ترافقت هذه النهضة العلميّة الواسعة التي نتجت عن هذا التفاعل أو (الغزو) الحضاريّ الجديد، ترافقت مع العديد من الوقائع والأحداث السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي استطاعت أن تفرض نفسها - بقوة - على الساحة الإسلاميّة في عصر الإمام الصادق عليه السلام. ومع هذه الأحداث المتسارعة والقضايا المتعدّدة الذبول والآثار، برزت الحاجة الملحة إلى وجود من يتصدّى لبيان الحكم والموقف الشرعيّ منها، وتحديد رأي الشريعة المقدّسة فيها، وكانت الحصيلة القهرية والتلقائيّة لذلك - ولا سيّما بالنظر إلى الظروف والعوامل المتنوّعة الداعية إلى الاختلاف آنذاك -: هي نشوء المذاهب الفقهيّة المتعدّدة، ووجود اجتهادات وآراء فقهيّة مختلفة، مع ما يعنيه ذلك من اختلافٍ وتعدّدٍ على صعيد قراءة النصّ الدينيّ واستكشاف مداليه وأبعاده، ومن صعود وارتفاع درجة النشاط الفقهيّ والاجتهاديّ إلى أرفع المستويات.

وبهذا تتكشف لنا ملامح الصورة العامّة للأجواء العلميّة والتيّارات الفكرية



والمذاهب والمدارس الفقهيّة التي عايشها الإمام الصادق عليه السلام... وبعد هذه الإطلالة السريعة على تلك الأجواء، نحاول أن نتعرّف على موقف الإمام عليه السلام والدور الذي اضطلع به والمقام العلمي الذي تبوّأه في ذلك العصر.

### ٣) دور الإمام عليه السلام ومقامه العلمي:

تلقّى إمامنا الصادق عليه السلام علومه ومعارفه عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام عن الأئمة الطاهرين من آبائه عليه السلام وصولاً إلى جدّهم رسول الله صلى الله عليه وآله. وقد بدأ عليه السلام، ومنذ أن كان في ظلّ أبيه الباقر عليه السلام، بالقيام بوظائفه الشرعيّة والمهامّ الدينيّة المنوطة به بوصفه إماماً مسؤولاً عن نشر شريعة جدّه صلى الله عليه وآله وصونها والحفاظ على أصالتها ونقائها. فقد ساهم مع أبيه الإمام الباقر عليه السلام في تأسيس الجامعة العلميّة الأعظم على مرّ التاريخ، التي تُدرّس العلم وتنشره على ضوء تعاليم أهل البيت عليه السلام وعلى هديّ نهجهم، وذلك في مسجد النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة المنورة، حيث قاما عليه السلام بنشر العلم والمعرفة وبثّها في أوساط العلماء من الفقهاء والمحدّثين والحفّاظ والمفسّرين وطلّاب العلوم المختلفة، فكان مسجد النبي صلى الله عليه وآله يستقطب مشائخ العلم ويغصّ بالحاضرين فيه من رواد المعرفة، الذين كانوا يَفِدون من كلّ حدبٍ وصوب على هذين الإمامين العظيمين في مسجد جدّهما النبي صلى الله عليه وآله وينهلون العلم والدين من نبعها الصافي وموردتها العذب.

وبالرّغم من المحاولات الحثيثة التي قام بها الملوك والحكّام في مواجهة حركة الإمام الصادق عليه السلام وإيجاد عقباتٍ في طريق نشاطه العلميّ، وبالرّغم من إيجاءاتهم المتكرّرة إلى بعض وعّاظ السلاطين من خطباء المنابر وكتّاب التاريخ وغيرهم من المأجورين، إيجاءاتهم إليهم بأن يعملوا كلّ بوسعهم في سبيل طمس الحقيقة وخنق هذا النور المحمّديّ المتصاعد، الذي أدركوا جيّداً أنّه لو

عمّ وفشا لملأ الأرجاء، ولكان فيه فضيحتهم وفضيحة جميع من يلوذ بهم، بالرغم من ذلك كله، إلا أنه لم يمنع من سطوع نجم الإمام عليه السلام وتحوله إلى مصدر غني من مصادر الإسلام؛ إذ على كل من الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام تتلمذ أئمة الفقه، وعنهما أخذ رواة الحديث، وبهما علا شأن العلم والمعرفة، ومنهما أخذ تفسير القرآن، وقد شهد بذلك الفقهاء والعلماء والمحدثون والمتكلمون والفلاسفة وعلماء الطبيعة وغيرهم، الذين أشادوا بعلم الإمامين عليهما السلام ومقاميهما، ولم يخفوا مقدار ما استفادوه من الجامعة العلمية التي أسساها وشيّدوا أركانها.

وما أكثر الكلمات التي قيلت في هذا الشأن، وما أكثر الشهادات التي نطق بها العلماء في بيان عظمة مقام الإمام الصادق عليه السلام ووفرة علمه، ولكن، نظراً إلى أنّ مقالتنا هذه لا تتسع لجميع ما قيل، نكتفي باستعراض عددٍ يسير منها فيما يلي:

#### أ. الإمام أبو حنيفة النعمان:

روى حسن بن زياد أنه سمع أبا حنيفة وقد سُئِلَ: مَنْ أَفْقَهُ مَنْ رَأَيْتَ؟ فقال: «ما رأيتُ أحداً أفقه من جعفر بن محمد عليه السلام»، لما أقدمه المنصور الحيرة بعثَ إليّ فقال: يا أبا حنيفة، إنّ الناس قد فُتِنُوا بجعفر بن محمد، فهَيِّئْ له من مسائلك الصّعب، قال: فهَيِّئْتُ له أربعين مسألةً، ثمّ بَعَثَ إليّ أبو جعفرٍ، فأَتَيْتُهُ بالحيرة، فدخلْتُ عليه، وجعفر جالسٌ عن يمينه، فلَمَّا بَصُرْتُ بهما دَخَلَنِي لجعفرٍ من الهيبة ما لم يَدْخُلَنِي لأبي جعفر، فقال: يا أبا عبد الله، تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا أبو حنيفة، ثمّ أَتَبَعَهَا: قد أَنَانَا، ثمّ قال: يا أبا حنيفة، هَاتِ من مسائلك نسأل أبا عبد الله، وابتدأتُ أسأله، وكان يقول في المسألة: أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن نقول كذا وكذا، فربّما تَابَعْنَا وربّما تَابَعَ أَهْلَ المدينة، وربّما خالفنا جميعاً، حتى أَتَيْتُ على أربعين مسألةً ما أْخَرَمَ منها مسألةً، ثمّ

قال أبو حنيفة: أليس قد رَوَيْنَا أَنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ أَعْلَمُهُمْ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ؟<sup>(١٠)</sup>  
وَنُقِلَ عَنْهُ أَيْضاً أَنَّهُ يَقُولُ: «لَوْلَا السِّتَانُ لَهْلَكَ النِّعْمَانُ»<sup>(١١)</sup>، يُرِيدُ بِالسِّتَيْنِ:  
السِّتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَتَلَمَّذُ فِيهِمَا عِنْدَ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاسْتِفَادَ مِنْ عِلْمِهِ، يَقُولُ  
الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الْحَلِيمِ الْجَنْدِيُّ: «انْقَطَعَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى مَجَالِسِ الْإِمَامِ طَوَالَ عَامَيْنِ  
قَضَاهُمَا بِالْمَدِينَةِ، وَفِيهِمَا يَقُولُ: لَوْلَا الْعَامَانُ لَهْلَكَ النِّعْمَانُ، وَكَانَ لَا يُخَاطَبُ  
صَاحِبُ الْمَجْلِسِ إِلَّا بِقَوْلِهِ: جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا ابْنَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»<sup>(١٢)</sup>.  
وَقَالَ الْعَلَّامَةُ الْمَنَاوِيُّ فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ: «عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأُمِّهِ فَرُوءَةَ بِنْتِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَأُمِّهَا أَسْمَاءُ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي  
بَكْرٍ، ... وَثَقَّهُ ابْنُ مَعِينٍ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ أَفْقَهَ مِنْهُ»<sup>(١٣)</sup>.  
ب. الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ:

قَالَ فِي الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَ كَثِيرَ الدَّعَابَةِ وَالتَّبَسُّمِ، فَإِذَا  
ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْفَرَ، وَمَا رَأَيْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ، وَلَقَدْ اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ زَمَانًا، فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عَلَى  
ثَلَاثِ خِصَالٍ، إِمَّا مَصْلِيًّا وَإِمَّا صَامِتًا وَإِمَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ،  
وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادِ الَّذِينَ يُحْشَوْنَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١٤)</sup>.

ج. الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ:

فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ أَبُو الصَّلْتِ الْمَهْرُويُّ عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ  
عَدَّةً مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ تَعَلَّقُوا بِلِجَامِهِ وَقَدْ دَخَلَ نِيسَابُورَ قَائِلِينَ لَهُ: بِحَقِّ آبَائِكَ  
الطَّاهِرِينَ، حَدَّثَنَا بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ أَبِيكَ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حَدَّثَنِي أَبِي الْعَدْلُ  
الصَّالِحُ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ مُوسَى: حَدَّثَنِي أَبِي الصَّادِقُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ،  
حَدَّثَنِي أَبِي أَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ بَاقِرُ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: حَدَّثَنِي أَبِي عَلِيُّ بْنُ  
الْحُسَيْنِ سَيِّدُ الْعَابِدِينَ، حَدَّثَنِي أَبِي سَيِّدُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنِي أَبِي سَيِّدُ

العرب عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليهم، قال: سألتُ رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ قال معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان». يُعلّق أحمد بن حنبل على سند هذا الحديث قائلاً: «إن قرأت هذا الإسناد على مجنون برئ من جنونه، وما عيبُ هذا الحديث إلا جودة إسناده»<sup>(١٥)</sup>.

د. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:

قال الأستاذ المستشار عبد الحليم الجندي: «الجاحظ كبير النّقد يقول بعد مائة عام: جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويُقال: إنّ أبا حنيفة من تلاميذه، وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب»، ثم يُعلّق الأستاذ الجندي بنفسه على كلام الجاحظ هذا فيقول: «الجاحظ يذكّر تلاميذ العراق، ولو ذكر تلاميذ المدينة لما نسي مالِك بن أنس»<sup>(١٦)</sup>.

هـ. محمد بن إدريس، أبو حاتم الرازي:

قال في الإمام عليه السلام: «جعفر بن محمد ثقة لا يُسأل عن مثله»<sup>(١٧)</sup>.

و. أبو عبد الرحمن السلمي:

قال في طبقات مشايخ الصوفيّة: «جعفر الصادق، فاق جميع أقرانه من أهل البيت، وهو ذو علمٍ غزيرٍ في الدين، ورُؤهدٍ بالغٍ في الدنيا، وورعٍ تامٍّ عن الشهوات، وأدبٍ كاملٍ في الحكمة»<sup>(١٨)</sup>.

ز. أبو نعيم الإصبهاني:

قال في «حلية الأولياء» في ترجمة الإمام الصادق عليه السلام: «الإمام الناطق، ذو الزمام السابق، أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق، أقبل على العبادة والخشوع، وآثر العزلة والخشوع، ونهى عن الرئاسة والجموع»<sup>(١٩)</sup>.

ح. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني:

تحدّث الشهرستاني في كتابه الشهير (الملل والنحل) عن الإمام الصادق عليه السلام فقال: «جعفر بن محمد الصادق، وهو ذو علمٍ غزير، وأدبٍ كاملٍ في الحكمة،

وزُهِدَ بالغِ في الدنيا، وورِعَ تامًّا عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدةً يُفيد الشيعة المتتمين إليه، ويُفيض على الموالين له أسرار العلوم..»<sup>(٢٠)</sup>.  
ط. الفخر الرازي:

قال في تفسيره الكبير، عند تعرّضه للأقوال في معاني كلمة (الكوثر) - ما لفظه -: «والقول الثالث: الكوثر أولاده، قالوا: لأنّ هذه السورة إنّما نزلت ردًّا على مَنْ عابه عليه السلام بعدم الأولاد، فالمعنى: أنّه يُعطيه نسلًا يبقون على مَرِّ الزمان، فانظر كم قُتِلَ من أهل البيت، ثمّ العالم ممتلئٌ منهم، ولم يبقَ من بني أُمّية في الدنيا أحدٌ يُعبأ به، ثمّ انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء، كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام»<sup>(٢١)</sup>.

ي. الشيخ كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي:

قال في كتابه (مطالب السؤل في مناقب آل الرسول):

«الإمام جعفر الصادق عليه السلام، هو من عظماء أهل البيت وساداتهم عليه السلام، ذو علومٍ جمّة، وعبادةٍ موفّرة، وأوراد متواصلة، وزهادةٍ بيّنة، وتلاوةٍ كثيرة، يتبع معاني القرآن الكريم، ويستخرج من بحره جواهره، ويستنتج عجائبه، ويقسم أوقاته على أنواع الطاعات، بحيث يُحاسب عليها نفسه، رؤيته تذكّر الآخرة، واستماع كلامه يُزهد في الدنيا، والافتداء بهديه يُورث الجنة، نور قسماته شاهد أنّه من سلالة النبوة، وطهارة أفعاله تصدّع أنّه من ذرّية الرسالة. نُقل عنه الحديث، واستفاد منه العلم جماعةٌ من الأئمة وأعلامهم، مثل: يحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريج، ومالك بن أنس، والثوري، وابن عُيينة، وشُعبة، وأيوب السجستاني، وغيرهم (رض)، وعدّوا أخذهم عنه منقبةً شرفوا بها، وفضيلةً اكتسبوها... إلى أن قال: وأمّا مناقبه وصفاته، فتكاد تفوت عدد الحاصر، ويحارُّ في أنواعها فهم اليقظ الباصر، حتّى أنّ كثرة علومه المفاضة على قلبه من سجال التقوى صارت الأحكام التي لا تُدرَك عللها، والعلوم التي

تَقْصُرُ الأفهام عدد الإحاطة بحُكْمِها، تُضَافُ إليه وتُرَوَى عنه. وقد قيل: إِنَّ كِتَابَ الجُفَرِ الَّذِي بِالْمَغْرِبِ وَيَتَوَارَثُهُ بَنُو عَبْدِ الْمُؤْمِنِ هُوَ مِنْ كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّ فِي هَذِهِ لِمُنْقَبَةٍ سَنِيَّةٍ، وَدَرَجَةً فِي مَقَامِ الْفَضَائِلِ عَلَيْهِ، وَهِيَ نَبْذَةُ يَسِيرَةٍ مِمَّا نُقِلَ عَنْهُ»<sup>(٢٢)</sup>.

ك. أَبُو زَكْرِيَّا مَحْيِي الدِّينِ بْنِ شَرَفِ النُّووي:

قال: «الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، الهاشمي المدني الصادق... روى عنه: محمد بن إسحاق ويحيى الأنصاري ومالك والسفيانان وابن جريج وشعبة ويحيى القطان، وآخرون. واتفقوا على إمامته وجلالته وسيادته، قال عمر بن أبي المقدام: كُنْتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَى جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْ سَلَالَةِ النَّبِيِّينَ»<sup>(٢٣)</sup>.

ل. أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ خَلَّكَان:

قال في (وفيات الأعيان): «أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية، وكان من سادات أهل البيت، ولُقِّبَ بِالصَّادِقِ؛ لَصِدْقِهِ فِي مَقَالَتِهِ، وَفَضْلِهِ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ، وَلَهُ كَلَامٌ فِي صِنْعَةِ الْكِيمَاءِ وَالزَّجَرِ وَالْفَالِ»<sup>(٢٤)</sup>، وَكَانَ تَلْمِيزُهُ أَبُو مُوسَى جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ الصُّوفِيَّ الطَّرْسُوسِيَّ قَدْ أَلْفَ كِتَابًا يَشْتَمِلُ عَلَى أَلْفِ وَرَقَةٍ تَتَضَمَّنُ رِسَائِلَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَهِيَ خَمْسُمِائَةٌ رِسَالَةً...»<sup>(٢٥)</sup>.

م. شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَثْمَانَ الذَّهَبِيِّ:

لِلْعَلَّامَةِ الذَّهَبِيِّ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي فَضْلِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِلْمِهِ، نَذَرَ مِنْهُ: قَوْلُهُ فِي كِتَابِهِ (سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ): «وَكَذَلِكَ ابْنُهُ أَبُو جَعْفَرِ الْبَاقِرِ: سَيِّدُ إِمَامٌ، فَقِيهٌ، يَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ، وَكَذَا وَلَدُهُ جَعْفَرُ الصَّادِقِ، كَبِيرُ الشَّأْنِ، مِنْ أُمَّةِ الْعِلْمِ، كَانَ أَوَّلَى بِالْأَمْرِ مِنْ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ...»<sup>(٢٦)</sup>.

وقوله في (تاريخ الإسلام): «قُلْتُ: مناقب جعفر كثيرة، وكان يَصْلُح للخلافة، لسؤدده وفضله وعلمه وشرفه، رضي الله عنه»<sup>(٢٧)</sup>.  
ن. ابن الصبّاغ المالكي:

قال في كتابه: (الفصول المهمة): «كان جعفر الصادق عليه السلام من بين إخوته خليفة أبيه ووصيه والقائم من بعده، برز على جماعة بالفضل، وكان أنبهم ذكراً، وأجلهم قدراً، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته وذكره في سائر البلدان، ولم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نُقل عنه من الحديث، ورَوَى عنه جماعة من أعيان الأمة مثل: يحيى بن سعيد، وابن جريج، ومالك بن أنس، والثوري، وأبو عيينة، وأبو حنيفة، وشعبة، وأبو أيوب السجستاني، وغيرهم، وصّى إليه أبو جعفر عليه السلام بالإمامة وغيرها وصية ظاهرة، ونصّ عليه نصّاً جليّاً»<sup>(٢٨)</sup>.

س. ابن العماد الحنبلي:

قال في كتاب (شذرات الذهب) في أحداث سنة (١٤٨ هـ): «وفيها توفي الإمام سلالة النبوة أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين عليّ بن الحسين الهاشمي العلوي... إلى قوله: وكان سيّد بني هاشم في زمانه، عاش ثمانياً وستين سنة وأشهرًا، وُولد سنة ثمانين بالمدينة، ودُفِنَ بالبقيع في قبة أبيه وجده وعمّ جدّه الحسَن، وقد أَلَفَ تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتاباً في ألف ورقة يتضمّن رسائله، وهي خمسمائة...»<sup>(٢٩)</sup>.

ع. شيخ الأزهر الأستاذ محمد أبو زهرة:

قال في مقدّمة كتابه: (الإمام الصادق): «أما بعد فإننا قد اعتزنا بعون الله وتوفيقه أن نكتب عن الإمام جعفر الصادق، وقد كتبنا عن سبعة من الأئمة الكرام، وما أخرجنا الكتابة عنه لأنّه دون أحدهم، بل إنّ له فضل السبعة على أكثرهم، وله على الأكابر منهم فضل خاص، فقد كان أبو حنيفة يروي عنه،

ويراه أعلم الناس باختلاف الناس، وأوسع الفقهاء إحاطةً، وكان الإمام مالك يختلف إليه دارساً راوياً، وكان له فضل الأستاذية على أبي حنيفة ومالك، فحسبه ذلك فضلاً، ولا يمكن أن يؤخّر عن نقصٍ، ولا يُقدّم غيره عليه عن فضل، وهو - فوق هذا - حفيد زين العابدين عليه السلام، الذي كان سيّد أهل المدينة في عصره فضلاً وشرفاً ودينياً وعلمياً، وقد تتلمذ له ابن شهاب الزهري، وكثيرون من التابعين، وهو ابن محمد الباقر الذي بقرّ العلم ووصل إلى لبابه، فهو ممّن جمّع الله تعالى له الشرف الذاتي والشرف الإضافي، بكريم النسب والقراة الهاشمية والعترة المحمدية <sup>(٣٠)</sup>.

ونكتفي بهذا المقدار من استعراض الأقوال والكلمات، وهو ليس إلّا النزر اليسير، وليس إلّا غيضاً من فيض، وإلّا فهي أكثر من ذلك بكثير، ولئن كانت هذه الكثرة دالة على شيءٍ، فهي إنّما تدلّ على انعقاد إجماع إسلاميٍّ وعلمائيٍّ منقطع النظير على عظمة مقام الإمام الصادق عليه السلام العلميّ ومحوريّته البارزة في كلّ العلوم الحية التي تحتاج إليها الأمة الإسلامية، وعلى أنّ له عليه السلام يداً بيضاء على الأمة الإسلامية، في ماضيها وحاضرها، نظراً إلى أنّ ما يفتخر به المسلمون من حضارة وفكرٍ وعلوم ومعارف تعود في مجملها إليه وإلى آبائه الطاهرين، وإلى جدّه النبي العربيّ الأميّ صلّى الله عليه وآله ..

ولعلّ ما نقلناه من كلام الأعلام في عظمة الإمام عليه السلام يكون محفزاً لمسلمي عصرنا وزماننا نحو المزيد من التعرّف على هذه الشخصية الفذة والاستثنائية التي قلما تجود يد الزمان بمثلها، ولعله أيضاً يكون داعياً لهم إلى مراجعة كلماته وعلومه ومعارفه ومناقبه وفضائله، فيكون لنا قدوة تشدّ من أزرنا في هذا العالم القاسي.

وفيما يلي، نتعرّض بالإشارة إلى نبذة حول الجامعة العلمية التي أسّسها عليه السلام، عسى أن تكون هذه الجامعة - بسعتها وشموليّتها واختصاصاتها وطلابها



وأساتذتها وبرنامجها ومنهجيتها -، قدوةً لجامعاتنا الإسلامية، ومعاهدنا العلمية، ومشايخنا، وعلماء زماننا، فننجز من الخلاف والشقاق، ونريح بذلك كاهل البلاد والعباد من مخططات حروب طائفية ومذهبية دامية، ونكرس بدلاً من ذلك كله، واقعاً جديداً يسود فيه الحوار الموضوعي والنقد البناء والتعاون التام..

### ٣) مدرسة الإمام الصادق عليه السلام:

عرفنا أنَّ الإمامين الصادقين عليهما السلام - أعني: جعفر بن محمد الصادق وأباه محمد بن علي الباقر عليهما السلام - قد عملا على إنشاء وتأسيس جامعة أهل البيت في مسجد جدّهما النبي محمد ﷺ في المدينة المنورة، وقد دأب الإمام الصادق عليه السلام على تنمية هذه المدرسة وتطويرها والرقى بها خدمةً للشريعة الغراء وتعاليمها، والعقيدة الحقّة ومبادئها، حتى استطاعت هذه المدرسة العلمية الباهرة أن تخلّف ثروة علمية هائلة، وأنّ تخرّج جيلاً كبيراً من جهابذة العلم وصفوة الفقهاء والمحدثين والمفكرين وكبار المتكلمين والفلاسفة وعلماء الطبيعة.. إلخ.. وقد طفحت كتب التراجم والسير والرجال بأسماء تلامذته وخريجي مدرسته، وملأت آثارهم آفاق العلم والمعرفة، وأحصاهم بعضهم فأوصلهم إلى أربعة آلاف رجل، قال الشيخ المفيد رحمه الله: في كتابه (الإرشاد):

«ولا نقلوا عنهم كما نقلوا عن أبي عبد الله عليه السلام، فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات، على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل»<sup>(٣١)</sup>.

وقال الشهيد الأوّل في كتابه (الذكرى):

«حتّى أنّ أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كُتب من أجوبة مسائله أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنّف، ودوّن من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجلٍ

من أهل العراق والحجاز وخراسان والشام»<sup>(٣٢)</sup>.

فطلّابه وتلامذته وخرّيجو مدرسته عليه السلام، وبالإضافة إلى ضخامة عددهم الذي زاد على الآلاف الأربعة - إذ هذا العدد إنّما ذُكر كعددٍ للمعروفين منهم ولمن طالتهم يد العدّ والإحصاء التاريخيّ فحسب - فهم يشكّلون نخبة المجتمع الإسلاميّ آنذاك وصفوته، فهم ممدوحون موثّقون معروفون بالعدالة وصفات المروءة والأمانة العلميّة، وهم مختلفون في الرأي والمعتقد والمقالة حتّى، ولكلّ منهم اختياره المستقلّ، إلّا أنّنا لم نر أنّ اختلافهم هذا قد انعكس سلّياً على صفاء أجوائهم العلميّة ونقاوتها، بل على العكس من ذلك، فقد كان هو ما حافظ عليها، وأسهم في تعزيزها وتوطيدها، لجهة أنّه تمكّن من تهيئة مناخٍ من الموضوعيّة والحرّيّة الفكرية اللّازمتين - جدّاً - لنموّ ورشد أجواءٍ علميّةٍ سليمة. وهم بعد ذلك كلّهم، توافدوا إلى مسجد النبي صلّى الله عليه وآله من كلّ الأقطار الإسلاميّة، من العراق والحجاز وخراسان والشام، فلا اختلاف أعراقهم ولغاتهم حال دون اجتماعهم تحت لواء العلم، ولا اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم أدّى إلى التمييز بينهم وحرمان بعضهم على حساب بعضٍ من حضور مقاعد الدراسة، ولا هم تحرّجوا في النقل والرواية عنه عليه السلام، فلم يكتموا ما تعلّموه في أحضان هذه المدرسة النبويّة - بحقّ -.

ولا شكّ في أنّ هؤلاء التلامذة ورجال العلم فضلاً وسهماً في توفير هذه الأجواء النقيّة والحضاريّة المشرقة، إلّا أنّ الذي لا شكّ فيه أيضاً هو أنّ الفضل في ذلك كلّهم يعود - بالدرجة الأولى - إلى الإمام الصادق عليه السلام نفسه، كيف لا؟! وهو - بعد أبيه - مدير هذه المدرسة، وعميد هذه الجامعة، وشيخها، والمحاضر فيها، والمسؤول عن برنامجها ومنهجيتها، والأستاذ المشرف والمربيّ لطلّابها والذي يتعاهدهم بالرعاية والعناية، ويربّيهم ويزكّيهم قبل أن يُعلّمهم، ويغرس فيهم حبّ طلب العلم والتفاني في سبيل تعلّمه، ويحثّهم على أن لا يكون ما

يتعلّمونه في مدرسته المباركة علماً جافاً لا يتجسّد بالعمل، ويعرفهم الحقّ والحقيقة كهدفٍ أسنى على كلّ واحدٍ منهم أن يضعه نصب عينيه، وعلى كلّ واحدٍ منهم أن يتحرّى الوصول إليه بكلّ ما أمكنه من الوسائل، وبجميع ما أُتيح له من طاقةٍ وقوّةٍ وعزم. وفوق ذلك كلّهُ، فهو عليه السلام يُذكرهم بمنطق رسول الله صلى الله عليه وآله وحجّته، بل وبخلقه وخلقه. ولئلا ننسى أو نغفل، فالإمام عليه السلام لم يكن يُعطي تلامذته رأيه الشخصي، وإن كان أهلاً للرأي الشخصي، وإنّما - كما تقدّم في الرواية عنه آنفاً - حديثه حديث أبيه الباقر عليه السلام، وحديث أبيه كحديث آبائه عليهم السلام ما هو إلّا عين حديث جدّه صلى الله عليه وآله، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وحيٌّ يوحى.

وفيما يتعلّق بالنهج السياسيّ لهذه المدرسة، يقول العالم الأديب الأستاذ أسد حيدر في كتابه القيم: «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة»:

«إنّ مدرسة الإمام الصادق عليه السلام كان طابعها الذي طُبِعَ عليه، ومنهجها الذي اختصّت به، هو استقلالها الروحيّ، وعدم خضوعها لنظام السلطة، ولم تُفسّح المجال لولاية الأمر بأن يتدخلوا في شؤونها، أو تكون لهم يدٌ في توجيهها وتطبيق نظامها، لذلك لم يتسنّ لذوي السلطة استخدامها في مصالحهم الخاصّة، أو تتعاون معهم في شؤون الدولة، ومن المستحيل ذلك، وإن بذلوا جهدهم في تحقيقه، فهي لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين ولا تتركّن إليهم، كما لا ترتبط وإياهم بروابط الألفة، ولم يحصل بينها وبينهم انسجام، وبهذا النهج الذي سارت عليه، والطابع الذي اختصّت به، أصبحت عُرضةً للخطر، فكان النزاع بينها وبين الدولة يشتدّ والعداء يتضحّ، الأمر الذي جعل المدرسة عُرضةً للخطر، ورغم ذلك كلّهُ، فقد صمّدت لتلك الهجمات التي توجّهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود، وقد عانت من بطش الجبارين وعسف الظالمين ما لا يُحيط به البيان. وعلى كلّ حال، فإنّ مدرسة الإمام الصادق عليه السلام كانت بعيدة

عن التأثير بآراء الحكّام الذين يفرضون إرادتهم على العلّماء، ويحاولون أن تكون لهم السّلطة الدينيّة إلى جانب السّلطة التنفيذيّة. وقد بدّل المنصور كلّ ما في وسعه لجلب رضا الإمام الصادق عليه السلام والفوز بمسايرته له، ولكنّه لم يُفلح، فقد أعلن عليه السلام مقاطعته، وأوعزَ إلى أصحابه ذلك، فسارت مدرسته على ذلك الاستقلال الروحيّ، ونالت تلك الشهرة العظيمة، وخلفت ذلك التراث الثمين والمجد العلميّ، وإنّ الحضارة الإسلاميّة مدينّة لها بالتطوّر والخلود...» (٣٣).

فيا حبّذا لو أنّ مدارسنا العلميّة الإسلاميّة المعاصرة تستفيد من مدرسة الإمام الصادق عليه السلام كيف تحافظ على استقلاليتها ومركزيتها الفكرية، وكيف لا تكون ذليلةً ومسيّرةً وتابعةً لأهواء السياسة التي بلغت درجة تقلّبها وعهرها ومجونها في زمننا الحاليّ أقصى الدرجات..

ويا حبّذا لو أنّ المشرفين على هذه المدارس يصمّمون تصميمًا جادًا على صنع رجالٍ عظام، لا يكونون وعّاظًا للسلّاطين، ولا يتهاكّون على أبواب الحكّام، ولا ينغمسون في الدنيا ومناصبها وشهواتها، ولا يرضون بأن تكون خطبهم والكلمات التي يُلقونها من على منابر رسول الله ﷺ في جمعاتهم وفي سائر أيّامهم، لا يرضون بأن تكون هذه الخطب من إعداد وتأليف هذا الجهاز الحاكم السياسيّ - الأمنيّ - المخابراتيّ أو ذاك..

#### ٤) النهج السياسيّ للإمام الصادق عليه السلام:

إنّ هذا الذي عرفناه عن النهج والخطّ السياسيّ الذي اتّخذته مدرسة الإمام الصادق عليه السلام لكفيلٌ بأن يوضّح لنا الصورة - أيضًا - فيما يتعلّق بالنهج السياسيّ الذي اتّخذه الإمام الصادق عليه السلام في حياته ومواقفه الشخصية، بعيداً عن موقفه كمديرٍ لهذه الجامعة العلميّة. وفي هذا السياق تُذكر - عادةً - نظراتٌ ثلاث:

النظرة الأولى: هي نظرة حاول البعض فرضها على المشهد السياسي في حياة الإمام الصادق عليه السلام، وتقوم هذه النظرة الخاطئة على تصوير الإمام عليه السلام على أنه مجرد عالم تقليدي له مشروعه العلمي الذي يحرص كل الحرص على بقاءه واستمراره، فيضطر في هذا السبيل إلى الانزواء وعدم التدخل في السياسة، والنأي بنفسه عن المواجهة، أو إلى سلوك طريق مسالم محايد لا لون له ولا طعم ولا رائحة، ليكون هذا الطريق قادراً على التماشي مع سياسة خلفاء زمانه، وعلى استرضائهم، أو على الأقل: على استبعاد أية شبهة قد تحوم لديهم حول نشاطه وتحركاته..

وتحاول هذه النظرة أن «تصور الإمام عالماً باحثاً، وأستاذاً كبيراً، انتهل من بحر علمه أبو حنيفة ومالك و... ولكنه كان بعيداً كل البعد عن كل مقاومة لعدوان السلطة على الدين، وعن كل ما تتطلبه مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام السلطان الجائر.. كان بعيداً كل البعد عن الثوار من أمثال: زيد بن علي، ومحمد بن عبد الله، والحسين بن علي شهيد فحّ، بل عن الجنود المقاتلين مع هؤلاء الثوار، ولم يكن يُبدي أي رد فعل تجاه ما يحل بالمجتمع الإسلامي، ولا يكثرث بما كان يكتنزه المنصور من أموال طائلة، ولا بما كان يعاني منه أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله في جبال طبرستان ومارندران، وفي رساتيق العراق وإيران من جوع، بحيث لا يجدون ما يسد رمقهم، ولا ما يسترهم إذا أرادوا الصلاة جماعة!! ولا يهتم بما كان يتعرض له أتباعه من قتل وتعذيب وتشريد، وهم صفر اليدين من كل متاع يتنعم به الأفراد العاديون من أبناء المجتمع آنذاك!! وفي ظن أصحاب هذه النظرة، أنّ الإمام الصادق لم يُبدِ أية حساسية تجاه هذا الوضع، بل كان قانعاً بأن يأتيه مثل ابن أبي العوجاء، فيقارعه بالحجج والبراهين ويغلبه، ويخرج من بيته مهزوماً، ومن دون أن يؤمن طبعاً!!»<sup>(٣٤)</sup>.

هذه هي صورة الإمام الصادق عليه السلام كما يحاول أن يرسمها أصحاب النظرة

الأولى، وهي نظرة خاطئة حتماً، كما أشرنا وسنبيّن.

والنظرة الثانية: وهي أيضاً نظرة خاطئة واهية، ولكنها تزيد على الأولى في أنفاس التعسف والإجحاف والتحامل على الإمام عليه السلام التي تتصاعد وتفوح منها؛ إذ يدّعي أصحاب هذه النظرة - وهم غير المؤمنين بإمامته عليه السلام - أنّ موقف الإمام عليه السلام تجاه ما كان يحيق بالمجتمع آنذاك كان هو موقف الإهمال واللامبالاة وعدم الاكتراث بكلّ المظالم وبكلّ أشكال الطغيان السياسي والسيطرة المقيتة على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم، بل وحتى على عقولهم وعواطفهم، والتي جعلت الأمة فاقدة للحد الأدنى من حقوقها، وهو الحق في الانتخاب وفي تقرير المصير، فلم يكن للإمام الصادق عليه السلام همّ سوى في البحث والدراسة وتربية الطلبة، ولم يكن اهتمامه منصبّاً إلّا على شيء واحد، وهو تخريج الفقهاء والمتكلمين!!

والنظرة الثالثة: وهي النظرة الصحيحة التي يمكن أن يستنبطها كلّ ثاقب نظرٍ بالرجوع إلى المصادر المعتبرة. وهي نظرة لا تُستقى من حياة الإمام الصادق عليه السلام وحده، بل تُستقى من حياة كلّ أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومنهجهم العام، ومسيرتهم الواحدة، هذا المنهج العام، وهذه المسيرة المشتركة، التي تتجسّد في الخطّ المعروف في مدرسة أهل البيت عليهم السلام وأوصياء النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله باسم مبدأ «الإمامة».

ونترك الكلام في بيان هذه النظرة، وفي تحديد ملامح هذا المنهج العام، لوليّ أمر المسلمين الإمام القائد السيّد عليّ الحسيني الخامني دام ظلّه الذي يقول في محاضرة قيّمة له تحت عنوان (قيادة الإمام الصادق عليه السلام):

«هذا المنهج ذو جانبين متلازمين: الأوّل: يرتبط بالعقيدة، والثاني: بتوفير القدرة التنفيذية والاجتماعية. ففي الجانب الأوّل، تتّجه جهودهم وهمّهم إلى نشر مفاهيم الرسالة وبَلُورتها وترسيخها والكشف عن الانحرافات التي تصدر

عن المغرضين والمنحرفين، وبيان الأطروحة الإسلامية لما يستجد من أمور، وإحياء ما اندثر من معالم الرسالة، بسبب تصادمها مع مصالح ذوي القدرة والنفوذ، وتوضيح ما خفي على الناس العاديين من كتاب الله العزيز وسنة نبيه ﷺ، فمهمة الجانب الأول - إذا - تتلخص بصيانة الرسالة الإسلامية حيّة ببناء متحركة على مرّ الأجيال.

وفي الجانب الثاني، كانوا يسعون، وفقاً لما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية والعالمية في المجتمع الإسلامي، إلى إعداد المقدمات اللازمة لاستلام زمام قيادة الحكم في المجتمع بأنفسهم بشكل عاجل، أو التمهيد لكي يستلمها على المدى البعيد من يواصل مسيرتهم في المستقبل.

هذا موجز هدف حياة الأئمة الأطهار، وهذه هي الخطوط العامة لأهدافهم، من أجلها عاشوا، ومن أجلها استشهدوا.

وإذا كان ما وصلنا من تاريخ حياة الأئمة لا يُثبت ما ذهبنا إليه، فإن عقيدتنا في الأئمة عليهم السلام كافية في أن تصوّر حياتهم بهذا المنظار ليس غير، فما بالك إذا كان التاريخ طافحاً بما يُقنع كل باحث بأن حياة أئمة آل البيت عليهم السلام إنما كانت في هذا الاتجاه؟!» (٣٥).

والخلاصة: أنّ الأئمة عليهم السلام، ومنهم الإمام الصادق عليه السلام، عاشوا ما يُسميه الشهيد السيد محمد باقر الصدر تثنؤ (تنوّع الأدوار ووحدة الهدف)، وبمقتضى أنّ هدفهم عليهم السلام كان واحداً، وبمقتضى أنّهم كانوا يسرون وفق منهج عام مشترك، فلا يُمكن الفصل والتفكيك بين حروب علي عليه السلام وصلح الحسن عليه السلام، ولا بين ثورة الحسين عليه السلام بكربلاء وبين الدور الذي مارسه زين العابدين عليه السلام ومن بعده الإمامان الصادقان عليه السلام، وهكذا.. تماماً كما أنّ حياة جدّهم النبي الأعظم ﷺ كانت ذات أدوار ومراحل متفاوتة، تتراوح بين الصلح والغزوات والهجرة وإعداد الجيش والتنظيم المدني والتعليم وما إلى

ذلك..

ويمكاننا أن نقول: إنّ المبدأ الذي كان يَطْبَع حياتهم وأدوارهم، والأصل الذي كان يهيمن على كلّ تحركاتهم هو المبدأ والأصل الذي أقرّه جدّهم النبي ﷺ نفسه، حين قال - برواية حفيده الإمام الصادق عليه السلام -: «مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»<sup>(٣٦)</sup>.

#### ٥) قبس من معارفه عليه السلام:

ليس في وسع هذه المقالة، ولا في طاقة الآلاف من مثيلاتها، مهما اتسعت ومهما بلغت من عمق ودقّة، أن تحوي علوم آل محمد عليه السلام، ولا أن تحيط بمعارفهم، فهم بحر علم لا ينضب، وهم مبینو الوحي وترجمانه، وهم خَزَنَةُ علوم جدّهم النبي ﷺ.. ولكن، وتطبيقاً للمبدأ القائل: بأنّ ما لا يُدْرِك كلّ لا يُتْرَك كلّ، وعملاً بما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام من قوله: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا حَبَّبْنَا إِلَى النَّاسِ وَلَمْ يَبْغِضْنَا إِلَيْهِمْ، أَمَّا وَاللَّهِ، لَوْ يَرُؤُونَ مُحَاسِنَ كَلَامِنَا لَكَانُوا بِهِ أَعَزَّ، وَمَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَتَعَلَّقَ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَكِنْ أَحَدُهُمْ يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيَحِطُّ إِلَيْهَا عَشْرًا»<sup>(٣٧)</sup>، وأيضاً عملاً بما رُوي عن حفيده الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام من قوله: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا» فقليل: «وكيف يُحْيَا أَمْرَكُمْ؟ قال عليه السلام: «يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ، فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مُحَاسِنَ كَلَامِنَا لَا تَبْعُونَا..»<sup>(٣٨)</sup>، نذكر هنا باقية من أقواله المأثورة عنه عليه السلام:

١. عن حفص بن غياث قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَمِلَ بِهِ وَعَلِمَ اللَّهُ دُعِيَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ عَظِيمًا، فَقِيلَ: تَعَلَّمَ لِلَّهِ، وَعَمِلَ لِلَّهِ، وَعَلِمَ لِلَّهِ»<sup>(٣٩)</sup>.

٢. عن معاوية بن وهب قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَتَزَيَّنُوا مَعَهُ بِالْحِلْمِ وَالْوَقَارِ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَهُ الْعِلْمَ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ طَلَبْتُمْ



- منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم»<sup>(٤٠)</sup>.
٣. عن أيوب بن الحر قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كل شيء مردودٌ إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»<sup>(٤١)</sup>.
٤. عنه عليه السلام أنه كتب قائلاً: «تعالى الله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون لله بخلقه، المفترون على الله، فاعلم رحمك الله أن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عز وجل، فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه، فلا نفى ولا تشبيه، هو الله الثابت الموجود، تعالى الله عما يصفه الواصفون، ولا تعدوا القرآن فتصلوا بعد البيان»<sup>(٤٢)</sup>.
٥. عن محمد بن يحيى عن عمه حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين». قال: قلت: وما أمر بين أمرين؟ قال: «مثل ذلك رجل رأيته على معصية، فنهيته فلم ينته، فتركته، ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية»<sup>(٤٣)</sup>.
٦. عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الله أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقون، والله أعز من أن يكون في سلطانه ما لا يريد»<sup>(٤٤)</sup>.
٧. عن يعقوب بن يزيد رفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله، فمن نصرهما أعزه الله، ومن خذلهما خذله الله»<sup>(٤٥)</sup>.
٨. عن عبد الله بن غالب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل للأصدقاء، بدته منه في تعب والناس منه في راحة...» الخبر<sup>(٤٦)</sup>.
٩. قال سفيان الثوري: دخلت على الصادق عليه السلام فقلت له أوصني بوصية

أحفظها من بعدك؟ قال عليه السلام: «وَحَفَظَ يَا سَفِيانُ؟» قُلْتُ: أجل يا ابن بنت رسول الله، قال عليه السلام: «يا سَفِيانُ، لَا مَرُوءَ لَكَ ذُوبٌ، وَلَا رَاحَةَ لِحَسودٍ، وَلَا إِخَاءَ لِمَلُولٍ، وَلَا خِلَّةَ لِمُخْتَالٍ، وَلَا سُودَدَ لِسِيءِ الْخُلُقِ»، ثُمَّ أَمْسَكَ عليه السلام، فَقُلْتُ: يا ابن بنت رسول الله، زِدْنِي. فقال عليه السلام: «يا سَفِيانُ، ثِقْ بِاللَّهِ تَكُنْ عَارِفًا، وَارْضَ بِمَا قَسَمَهُ لَكَ تَكُنْ غَنِيًّا، صَاحِبْ بِمَثَلٍ مَا يُصَاحِبُونَكَ بِهِ تَزِدْ إِيمَانًا، وَلَا تُصَاحِبِ الْفَاجِرَ فَيُعَلِّمَكَ مِنْ فَجْورِهِ، وَشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ عِزَّ وَجَلٍّ»، ثُمَّ أَمْسَكَ عليه السلام، فَقُلْتُ: يا ابن بنت رسول الله، زِدْنِي، فقال عليه السلام: «يا سَفِيانُ، مَنْ أَرَادَ عِزًّا بِلَا سُلْطَانٍ وَكَثْرَةً بِلَا إِخْوَانٍ وَهَيْبَةً بِلَا مَالٍ، فَلْيَتَّقِلْ مِنْ ذَلِكَ مَعَاصِيَ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ». ثُمَّ أَمْسَكَ عليه السلام، فَقُلْتُ: يا ابن بنت رسول الله، زِدْنِي، فقال عليه السلام: «يا سَفِيانُ، أَدَبْنِي أَبِي عليه السلام بَثَلًا وَنَهَانِي عَنْ ثَلَاثٍ؛ فَأَمَّا اللَّوَاتِي أَدَبْنِي بِهِنَّ فَإِنَّهُ قَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، مَنْ يَصْحَبْ صَاحِبَ السَّوِّ لَا يَسْلَمْ، وَمَنْ لَا يُقَيِّدَ أَلْفَاظَهُ يَنْدَمُ، وَمَنْ يَدْخُلْ مَدَاخِلَ السَّوِّ يُتَّهَمُ». قُلْتُ: يا ابن بنت رسول الله، فما الثلاث اللواتي نهاك عنهن؟ قال عليه السلام: «نَهَانِي أَنْ أَصَاحِبَ حَاسِدَ نِعْمَةٍ، وَشَامِتًا بِمُصِيبَةٍ، أَوْ حَامِلَ نَمِيمَةٍ»<sup>(٤٧)</sup>.

١٠. عن المفضل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إِيَّاكَ وَالسَّفَلَةَ، فَإِنَّهَا شِيعَةٌ عَلِيٍّ مَنْ عَفَّ بَطْنُهُ وَفَرَّجَهُ، وَاشْتَدَّ جِهَادُهُ، وَعَمِلَ لَخَالِقِهِ، وَرَجَا ثَوَابَهُ، وَخَافَ عِقَابَهُ، فَإِذَا رَأَيْتَ أَوْلَيْتَكَ، فَأُولَئِكَ شِيعَةُ جَعْفَرٍ»<sup>(٤٨)</sup>.

#### مناظرة أحد تلامذته عليه السلام مع عمرو بن عبيد:

وفي روايةٍ أخيرةٍ أردنا لها أن تكون ختام المسك لهذه المقالة، تُظهر لنا هذه الرواية مدى عظمة مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ووفرة علومه ومعارفه من خلال بيان المقام العلمي الكبير لواحدٍ من تلامذة الإمام وشيعته المبرزين لديه، والذي كان قد حَضَرَ مجلس درس الإمام، واستفاد منه، وتعلمذ عليه، وتحلَّقَ

بأخلاقه، وانتسب ودعا إليه، وكان الإمام عليه السلام يُقدِّمه للناس، ويُعرفهم عليه، ويفتخر به أمامهم، وهو هشام بن الحكم، الذي كان الإمام عليه السلام يدَّخره للمناظرات الكلامية التي لطالما كشف بها الحق، وعَرَّى به زيغ الفرق الضالة والمذاهب الباطلة. وهذه الرواية ينقلها يونس بن يعقوب، يقول:

كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، منهم: حمران بن أعين، ومحمد بن النعمان، وهشام بن سالم، والطيار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم، وهو شاب، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا هشام، ألا تُخبرني كيف صَنَعْتَ بَعْمَرُو بن عُبَيْد، وكيف سأَلْتَهُ؟». فقال هشام: يا بن رسول الله، إني أُجَلُّكَ وأَسْتَحْيِيكَ، ولا يَعمَلُ لساني بين يَدَيْكَ، فقال أبو عبد الله: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فافْعَلُوا»، قال هشام: بَلَّغَنِي ما كان فيه عمرو بن عُبَيْد وجُلوسه في مسجد البصرة، فَعَظُمَ ذلك عليّ، فخرَجْتُ إليه ودخلْتُ البصرة يوم الجمعة، فَأَتَيْتُ مسجد البصرة، فإذا أنا بِحَلَقَةٍ كبيرة فيها عمرو بن عبيد، وعليه شملة سوداء متَّزِرٌ بها من صوف، وشملة مُرْتَدٍ بها، والناس يَسْأَلُونَهُ، فاستَفَرَجْتُ الناس، فأَفْرَجُوا لي، ثم قَعَدْتُ في آخر القوم على رُكْبَتَيَّ، ثم قُلْتُ: أيُّها العالم، إني رجلٌ غريب، تَأَذَّنْ لي في مسألة؟ فقال لي: نعم، فَقُلْتُ له: أَلَكَ عَيْنٌ؟ فقال: يا بُنَيَّ، أيُّ شَيْءٍ هذا السؤال؟ وشيءٌ تَراه، كيف تَسْأَلُ عنه؟ فَقُلْتُ: هكذا مَسَّأَلْتَنِي، فقال: يا بُنَيَّ، سَلْ، وإن كانت مَسَّأَلَتُكَ حمقاء. قُلْتُ: أَجِبْنِي فيه. قال لي: سَلْ. قُلْتُ: أَلَكَ عَيْنٌ؟ قال: نعم، قُلْتُ: فما تَصْنَعُ بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص، قُلْتُ: فَلَكَ أَنْفٌ؟ قال: نعم، قُلْتُ: فما تَصْنَعُ به؟ قال: أَشَمُّ به الرائحة. قُلْتُ: أَلَكَ أُذُنٌ؟ قال: نعم، قُلْتُ: فما تَصْنَعُ بها؟ قال: أَسْمَعُ بها الصوت، قُلْتُ: أَلَكَ قَلْبٌ؟ قال: نعم، قُلْتُ: فما تَصْنَعُ به؟ قال: أُمَيِّزُ به كُلَّ ما وَرَدَ على هذه الجوارح والحواس، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ فقال: لا، قُلْتُ: وكيف ذلك وهي

صحيحة سليمة؟ قال: يا بُنَيَّ، إِنَّ الجوارح إذا شَكَتْ في شيءٍ شَمَّتْهُ أو رَأَتْهُ أو ذاقَتْهُ أو سمعَتْهُ رَدَّتْهُ إلى القلب، فيستيقن اليقين ويُبطل الشكَّ، قال هشام: فقلتُ له: فإنَّما أقام الله القلب لشكَّ الجوارح؟ قال: نعم، قلتُ: لا بدَّ من القلب وإلا لم تَسْتَيْقِنِ الجوارح؟ قال: نعم، فقلتُ له: يا أبا مروان، فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتَّى جعل لها إماماً يُصَحِّح لها الصحيح ويَتَيَقَّن به ما شكَّ فيه، ويتركُ هذا الخلق كلَّهم في حيرتهم وشكَّهم واختلافهم، لا يُقيم لهم إماماً يردُّون إليه شكَّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردُّ إليه حيرتك وشكَّك؟ قال: فسَكَتَ ولم يَقُلْ لي شيئاً. ثمَّ التَفَتَ إليَّ فقال لي: أنت هشام بن الحكم؟ فقلتُ: لا، قال: أَمِنْ جُلَسَائِهِ؟ قلتُ: لا، قال: فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ قال: قلتُ: من أهل الكوفة، قال: فَأَنْتَ إِذَا هُوَ، ثُمَّ ضَمَّنِي إِلَيْهِ، وَأَقْعَدَنِي فِي مَجْلِسِهِ وَزَالَ عَنِ مَجْلِسِهِ وَمَا نَطَقَ حَتَّى قُمْتُ، قال: فضحك أبو عبد الله عليه السلام وقال: «يا هشام، مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا؟»، قلتُ: شيءٌ أَخَذْتُهُ مِنْكَ وَالْفَتَى، فقال: «هذا والله مكتوبٌ في صحف إبراهيم وموسى» <sup>(٤٩)</sup>.

نسأل الله تعالى أن يُوفِّقنا لنكون من شيعة جعفر الصادق عليه السلام حقاً، وأن يجعلنا من السائرين على دربه في العلم والعمل، إنَّه سميع مجيب.

\* \* \*

## الهوامش:

(١) هذا هو الحديث المعروف بـ «حديث الثقلين»، وهو حديث مشهور متواتر عن النبي صلى الله عليه وآله، ومن طرق الفريقين، أخرجه أكابر علماء الإسلام من السنَّة والشيعة وأثبتوه في صحاحهم وسننهم ومصادرهم الحديثية المعتبرة. يُراجع - مثلاً -: الترمذي في صحيحه ٥: ٦٢٢، ح ٣٧٨٨، ط دار الفكر؛ وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٢: ١٢؛ والسيوطي في الدر المنثور ٦: ٧، و٣٠٦؛ وذخائر العقبى: ١٦؛ والصواعق المحرقة: ٨٩، ط الميمنية بمصر؛ وفرائد السمطين ٢: ١٤٢، ح ٤٣٦-

- ٤٤١؛ ومسند أحمد بن حنبل ٥: ١٨٢؛ وصحيح مسلم ٧: ١٢٢-١٢٣، باب من فضائل عليٍّ عليه السلام، ط دار الفكر؛ وينايع المودة للقندوزي الحنفي: ٣٠ و٣٦ و١٩١ و٢٩٦؛ وتفسير ابن كثير ٤: ١٢٣؛ وجامع الأصول لابن الأثير ١: ١٨٧؛ وكنز العمال ١: ١٨٥، ح ٩٤٢-٩٤٥؛ وأما كتب الشيعة، فملاى به وبطرقه.
- (٢) الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٩، حققه وصححه: عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية ١٤٠٣، نشر: دار الفكر، بيروت. الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين ٣: ١٤٨، إشراف: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت.
- (٣) انظر - مثلاً -: الطبراني، المعجم الكبير ٥: ١٦٧، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، ط دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ.
- (٤) انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢: ٨٨، ط دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، بيروت.
- (٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ١: ٤٧٢، باب مولد أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الخامسة، ط دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٣ش.
- (٦) راجع: الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول عليه السلام: ٤٢٩، تحقيق: ماجد بن أحمد العطية.
- (٧) الجندي، عبد الحليم، الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ١٤٩، تحقيق وإشراف: محمد توفيق عويضة، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٧م.
- (٨) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ١: ٥٣، باب التقليد، ح ١٤، مصدر سابق.
- (٩) انظر: الصدر، الشهيد السيد محمد باقر، أئمة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية: ٥٣ - ٥٦، المجلد رقم ٢٠ من دورة الشهيد الصدر، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر عليه السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- (١٠) انظر: المزي، تهذيب الكمال ٥: ٧٩ - ٨٠، تحقيق وضبط وتعليق الدكتور بشار عواد معروف، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٣هـ؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء: ٦: ٢٥٨، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ.
- (١١) انظر: مختصر التحفة الاثنا عشرية: ٩، المطبعة السلفية، القاهرة.
- (١٢) عبد الحليم الجندي، الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ١٦٢، مصدر سابق.

- (١٣) المناوي، العلامة محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٢٥٥، تحقيق وتصحيح أحمد عبد السلام، ط دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
- (١٤) نقله القاضي عياض في كتابه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢: ٤٢، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٩ هـ؛ ونقله أيضاً ابن حجر العسقلاني بتفاوت يسير، انظر: تهذيب التهذيب ٢: ٨٩، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
- (١٥) انظر: الحافظ الإصبهاني، ذكر أخبار إصبهان ١: ١٣٨، ط بريل، ليدن المحروسة، ١٩٣٤ م.
- (١٦) عبد الحليم الجندي، الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ١٠٦، مصدر سابق.
- (١٧) الرازي، الجرح والتعديل ٢: ٤٨٧، ط مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٢ م.
- (١٨) القندوزي، ينابيع المودة لذوي القربى ٣: ١٦٠، تحقيق سيّد علي جمال أشرف الحسيني، ط دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.
- (١٩) الأصبهاني، حلية الأولياء ٣: ١٧٦، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٢٠) الشهرستاني، الملل والنحل ١: ١٦٦، تحقيق محمد سيّد كيلاني، ط دار المعرفة، بيروت.
- (٢١) الفخر الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ٣٢: ٣١٣، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ.
- (٢٢) الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ٤٣٦-٤٣٧، تحقيق ماجد بن أحمد العطية.
- (٢٣) النووي، تهذيب الأسماء واللغات ١: ١٥٥، ط دار الفكر، بيروت.
- (٢٤) حول نسبة الزجر والفال إليه عليه السلام، يقول العلامة أسد حيدر في كتابه «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة»: «ويلزمنا التنبيه على شيء مرّ ذكره في بعض هذه الأقوال، وهو نسبة الزجر والفال إلى الإمام الصادق عليه السلام، وهذا من الخطأ والاشتباه، وإنّما كان الإمام يستشف ما وراء الحجب باستقراء الحوادث السياسية، وينظر المستقبل بحكمته وصفاء باطنه، يُخبر بالحوادث قبل وقوعها، وقد أخبر بأن الخلافة للسفاح ومن بعده للمنصور... إلى أن قال: وليس في وسعنا بسط القول في علمهم عليه السلام، وانكشاف حقائق الأشياء لهم، فقد أخبروا بكثير من الحوادث قبل وقوعها، وقد صدر عن الصادق كثير من ذلك ممّا لا يتسع المجال لذكره. وأمّا نسبة الزجر والفال إليه فهو خطأ نشأ من اشتباه في الاسم وتقارب في الزمن، وذلك أنّ جعفر بن محمد البلخي المعروف بأبي معشر الفلكي كان مشهوراً بالزجر والفال وأستاذ عصره في التنجيم، ونقل الناس أخباره وشاع ذكره. قال ابن كثير: والظاهر أنّ الذي نُسب إلى جعفر بن محمد الصادق من علم

- الفال، واختلاج الأعضاء إنّما هو منسوب إلى جعفر بن أبي معشر هذا، وليس بالصادق، وإنّما يَغْلُطُونَ». انظر: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١: ٦٣-٦٤، ط دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩ م.
- (٢٥) ابن خلّكان، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١: ٣٢٧، تحقيق إحسان عبّاس، مطبعة لبنان، دار الثقافة.
- (٢٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٣: ١٢٠، تحقيق إشراف وتخريج: شعيب الأرناؤوط، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣ هـ.
- (٢٧) الذهبي، تاريخ الإسلام ٩: ٩٣، تحقيق د. عبد السلام تدمري، ط دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
- (٢٨) راجع: المالكي، ابن الصبّاغ، الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة: ٢١١-٢١٩، ط دار الأضواء، بيروت.
- (٢٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١: ٣٦٢، ط دار الكتب العلميّة.
- (٣٠) راجع: محمّد أبو زهرة، الإمام الصادق: ٣.
- (٣١) الشيخ المفيد، الإرشاد ٢: ١٧٩، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، ط دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.
- (٣٢) الشهيد الأوّل، محمّد بن جمال الدين مكّي العامليّ الجزينيّ، ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة ١: ٥٨-٥٩، طباعة وتحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، قم، الطبعة الأولى، محرّم ١٤١٩ هـ.
- (٣٣) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١: ٦٨-٦٩، ط دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩ م.
- (٣٤) الإمام الخامنتي، السيّد علي الحسيني، الدروس العظيمة من سيرة أهل البيت عليهم السلام: ١٦٤-١٦٥، بتصرّف يسير، ط الدار الإسلاميّة، مركز باء للدراسات، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣ م.
- (٣٥) المصدر نفسه: ١٦٨-١٧٢، بتصرّف يسير.
- (٣٦) المجلسي، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٧١: ٣٣٧، الباب العشرون، ح ١١٦، ط مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية المصحّحة، ١٤٠٣ هـ.
- (٣٧) الشيخ الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي ٨: ٢٢٩، ح ٢٩٣، تحقيق تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، ط دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الرابعة، ١٣٦٢ ش.
- (٣٨) انظر: الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا ٢: ٢٧٥، تحقيق وتصحيح الشيخ حسين الأعلمي،

- ط مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
- (٣٩) الشيخ الكليني، الكافي ١: ٣٥، باب ثواب العالم والمتعلّم، ح ٦، مصدر سابق.
- (٤٠) الشيخ الكليني، الكافي ١: ٣٦، باب صفة العلماء، ح ١، مصدر سابق.
- (٤١) الشيخ الكليني، الكافي ١: ٦٩، باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب، ح ٣، مصدر سابق.
- (٤٢) الشيخ الكليني، الكافي ١: ١٠٠، باب النهي عن الصفة بغير ما وُصف به نفسه تعالى، ح ١، مصدر سابق.
- (٤٣) الشيخ الكليني، الكافي ١: ١٦٠، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين، ح ١٣، مصدر سابق.
- (٤٤) المصدر نفسه، ح ١٤.
- (٤٥) الشيخ الكليني، الكافي ٥: ٥٩، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح ١١، مصدر سابق.
- (٤٦) الشيخ الكليني، الكافي ٢: ٢٣١، باب المؤمن وعلاماته وصفاته، ح ٢، مصدر سابق.
- (٤٧) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٧٥: ٢٦١، الباب الثاني والعشرون، ح ١٦٠، مصدر سابق.
- (٤٨) الشيخ الكليني، الكافي ٢: ٢٣٣، باب المؤمن وعلاماته وصفاته، ح ٩، مصدر سابق.
- (٤٩) الشيخ الكليني، الكافي ١: ١٦٩-١٧١، باب الاضطراب إلى الحجّة، ح ٣، مصدر سابق.



## فاطمة بنت موسى بن جعفر (المعصومة)

### إطلالة موجزة على السيرة العطرة

□ إعداد: لجنة المناسبات الدينية

#### مختصر

هي فاطمة المعصومة بنت الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وأخت الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، سيّدة كريمة عظيمة الشأن، مرّت في تاريخنا الإسلامي الحافل بالشخصيّات العظيمة، إلّا أنّه مع ذلك، فالكثير منّا لا يعرف شيئاً عن فضلها وحقيقة مكانتها وكرامتها وعظيم منزلتها عند الله عزّ وجلّ، وعند رسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ..

فمن هنا كان لزاماً علينا أن نسلّط الضوء على هذه الشخصيّة العظيمة، وأن نسأل أنفسنا، من هي هذه المرأة المؤمنة التي قال فيها إمامنا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«إنّ لله حرماً وهو مكّة، ألا إنّ لرسول الله حرماً وهو المدينة، ألا وإنّ لأمر المؤمنين عليهم السلام حرماً وهو الكوفة، ألا وإنّ قم الكوفة الصغيرة، ألا إنّ للجنة ثمانية أبوابٍ، ثلاثة منها إلى قم. تُقبض فيها امرأةٌ من ولدي اسمها فاطمة بنت موسى عليه السلام، وتدخل بشفاعتها شيعة الجنة بأجمعهم»<sup>(١)</sup>.

وقال أخوها الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد سُئِلَ عن زيارتها بقم: «مَنْ زارها فله الجنة»<sup>(٢)</sup>.

وكذلك قال الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام: «مَنْ زار قبر عمّتي بقم فله الجنة»<sup>(٣)</sup>.

يقول العلامة المجلسي رحمته الله: «رَأَيْتُ فِي بَعْضِ كُتُبِ الزِّيَارَاتِ: حَدَّثَ عَلِيٌّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام قَالَ: قَالَ: يَا سَعْدُ عِنْدَكُمْ لَنَا قَبْرٌ؟ قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَبْرُ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُوسَى عليه السلام؟ قَالَ: نَعَمْ، مَنْ زَارَهَا عَارِفًا بِحَقِّهَا فَلَهُ الْجَنَّةُ، فَإِذَا أَتَيْتَ الْقَبْرَ، فَقُمْ عِنْدَ رَأْسِهَا مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، وَكَبِّرْ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ تَكْبِيرَةً، وَسَبِّحْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَسْبِيحَةً، وَاحِدًا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَحْمِيدَةً، ثُمَّ قُلْ: السَّلَامُ عَلَى آدَمَ صَفْوَةَ اللَّهِ...» إِلَى آخِرِ الزِّيَارَةِ<sup>(٤)</sup>.  
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْوَارِدَةِ بِحَقِّهَا عليها السلام.

وبعد إلقاء نظرة على هذه الروايات، يتضح لنا أَنَّ من حقّ، بل من واجب كلّ محبٍّ ومُؤَالٍ لأهل بيت النبوة عليهم السلام أَنْ يسأل نفسه عن هذه الشخصية العظيمة؟ من هي؟ وما سبب كلّ هذا التعظيم لها؟

### الولادة الميمونة

هي فاطمة المعصومة عليها السلام بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، وأخت الإمام علي الرضا عليه السلام، وأمّهما واحدة، واسمها «تكتم»، وتُعرف أيضاً باسم «نجمة»، وقد كانت السيّدة «تكتم» من أفضل النساء في عقلها ودينها.  
كانت ولادة السيّدة الكريمة فاطمة المعصومة عليها السلام في واحدٍ من بيوت النبوة، وفي بيتٍ من بيوت العلم والقرآن والفضيلة، في دار والدها الكائن في المدينة المنورة، وذلك في غرة ذي القعدة من العام ١٧٣ هـ<sup>(٥)</sup>.

## حياتها بعد أبيها

ارتحل والدها الإمام موسى الكاظم عليه السلام إلى الرفيق الأعلى، وهي لا تزال بعُدُ طفلةً صغيرةً، حيث لم يكن عمرها حينئذٍ يتجاوز السنوات السبع، ولكنَّ الله تعالى أبى لهذه السيِّدة الكريمة عليها السلام أن تبقى مهملةً بلا كفيلٍ، فكان أن تكفَّلها بعد أبيها شقيقها الإمام عليّ الرضا عليه السلام بوصيةٍ من والدهما. فعاشت في كنف شقيقها الرضا عليه السلام، الذي أولَّاهَا عنايةً خاصَّةً في تنشئتها وتربيتها ورعايتها، ونشأت عليها السلام تتلقَّى من أخيها دروس العلم والحكمة في بيت العصمة والطهارة، حتى أصبحت ذات علمٍ ومقامٍ عظيمٍ، وغدت أفضل بنات الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

## من مدينة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خراسان

وبعد هجرة الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان، أُرسل عليه السلام في طلبها، وقام باستدعائها إليه، لتكون في جواره حيث كان يقيم، فهبَّت عليها السلام لإجابة طلبه مُسرَّعةً من غير ترددٍ، مدفوعةً بالشوق الغامر الذي جعلها تنتظر رؤية أخيها الرضا عليه السلام بفارغ الصبر.

وهكذا بدأت هذه السيِّدة الجليلة عليها السلام هجرتها ورحلتها - التي ارتحلت في أثناءها إلى الرفيق الأعلى - من مدينة جدِّها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، متَّجهةً إلى خراسان، وكان على رأس الرِّكب الذي ضمَّها إخوتها: أحمد ومحمَّد وحسين، وغيرهم من الذكور والإناث، لينضمَّ إليهم لاحقاً في أثناء الرحلة جمع غفير من المؤمنين الذين رغبوا في صحبتهم ومرافقتهم، طمعاً في الشرف برؤية الإمام الرضا عليه السلام ولقائه والتنعم بمجاورته والقرب منه، حتى قيل: إنَّ عدد هؤلاء المرافقين قد قارب خمس عشرة ألف نسمة.

اتَّخذت القافلة طريقها إلى خراسان عن طريق شيراز، وما إن بلغ خبر هذا الركب إلى المأمون، حتى خشيَ هذا الأخير على ملكه وسلطانه، وأبدى خوفه

من حصول انقلابٍ ما على حُكْمه لدى وصول القافلة إلى الإمام الرضا عليه السلام، فكان أن أَمَرَ وُلاته وأتباعه بالسعي إلى قطع الطريق عليهم قبل وصولهم إلى خراسان حيث كان الإمام الرضا عليه السلام بانتظار وصولهم.

وهكذا سارع حاكم شيراز بأمرٍ من الخليفة المأمون إلى قطع الطريق عليهم، محاولاً إجبارهم على الرجوع إلى المدينة من حيث قَدِمُوا، فلَمَّا أبى أصحاب القافلة ذلك، عمد حاكم شيراز إلى حشد جيشٍ كبيرٍ يتألف من أربعين ألف رجل، وجَرَّت بين الصَّفَيْن - على ما يُحدِّث التاريخ - معركة دامية، أسفرت عن قتل العديد، إلَّا أنَّ المعركة انتهت لصالح الرّكب العلويّ، حيث أبدى أفراد القافلة ولا سيَّما العلويّون من إخوة الإمام الرضا عليه السلام شجاعةً فائقة، ولا عجب في ذلك، فهم - مضافاً إلى قوّة عقيدتهم في الإمام الرضا عليه السلام - من بني هاشم، أصل الشجاعة ومعدنها ومنبت البطولة وأساسها، كما أثبتوا ذلك مراراً على مرّ التاريخ.

وعلى أثر هذه المعركة، أُسقط في يد الحاكم، الذي وجدَّ أنَّ الوسيلة الوحيدة لقطع الطريق على القافلة هي اللّجوء إلى المكر والخديعة، فتمكَّن من أن يشيع بين الرّكب أنَّ إمامهم على بن موسى الرضا عليه السلام قد قُتِل، وبالتالي: يكون الهدف المرجوُّ لهم من هذا المسير الحثيث إلى خراسان قد انتفى.

نجحت هذه الخديعة، بالإضافة إلى أسبابٍ أخرى، منها: شدّة القتال، وموت أحمد بن موسى وأخيه الحسين، في جعل القافلة تتفرَّق وتنحرف عن مسيرها. وما إن وصل بقيّة من كان في القافلة، التي كانت السيّدّة الكريمة فاطمة المعصومة عليها السلام لا تزال فيها، ما إن إلى منطقة يُقال لها «ساوة»، حتى أُرْسِلَ المأمون هناك من جديد من يهاجمهم ويعمل على قطع الطريق عليهم، فأدّى ذلك إلى قتل بعض من كان فيها، وتشريد البعض الآخر، وكان من بين الذين قُتلوا كلٌّ من تبقى لها من إختوتها. ما جعل حالها عليها السلام شبيهةً - إلى حدٍّ كبير - بحالة

عمّتها الكبرى العقيلة زينب بنت عليّ عليه السلام إثر أحداث كربلاء الأليمة، ليثبت التاريخ من جديد أنّه يأبى على نفسه إلّا أن يُعيد نفسه.

### نزولها بقم المقدسة

أدت كلّ هذه المتاعب والأحداث الموجهة، إلى ضعفها ومَرَضها عليها السلام، وحال ذلك دون قُدّرتها على متابعة الطريق للوصول إلى خراسان للقاء أخيها الإمام الرضا عليه السلام. وبعد ما نزل عليها من البلاء ما نزل، أخذت تسأل من حولها عن المسافة التي تبعد بينها وبين «قم»؟ فأخبروها بأنّ المسافة التي تفصلها عن قم تبلغ عشرة فراسخ - أي: ما يقارب الـ ٥٥ كيلومتراً -، فطلبت منهم أن يحملوها إلى «قم» التي كانت تسمع ما كان آباؤها الأَطهار عليهم السلام يروونه ويحدّثون به عن فضل هذه البلدة الصغيرة وأهلها.

ومن ذلك: ما رُوي عن جدّها الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«حدّثني أبي، عن جدّي، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لما أُسري بي إلى السماء، حملني جبرئيل على كتفه الأيمن، فنظرت إلى بقعة بأرض الجبل حمراء أحسن لوناً من الزعفران، وأطيب ريحاً من المسك، فإذا فيها شيخ على رأسه بُرنس [والبرنس قلنسوة طويلة]. فقلت لجبرئيل: ما هذه البقعة الحمراء التي هي أحسن لوناً من الزعفران، وأطيب ريحاً من المسك؟ قال: بقعة شيعتك وشيعة وصيّك على. قلت: من الشيخ صاحب البُرنس؟ قال: إبليس. قلت: فما يريد منهم؟ قال: يريد أن يصدّهم عن ولاية أمير المؤمنين، ويدعوهم إلى الفسق والفجور. فقلت: يا جبرئيل! أهو بنا إليهم. فأهوى بنا إليهم أسرع من البرق الخاطف والبصر اللامع. فقلْتُ: قُمْ يا ملعون! فشارك أعداءهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم، فإنّ شيعتي وشيعة عليّ ليس لك عليهم سلطان»<sup>(٦)</sup>.

والجدير بالذكر، أنّ هذه الرواية يتمسك بها بعض العلماء في معرض الإشارة إلى سبب تسمية «قم» بهذا الاسم، فيرى أنّ هذه التسمية مأخوذة من أمر النبي الأعظم صلى الله عليه وآله لإبليس بالقيام منها والرحيل عنها<sup>(٧)</sup>.

ومن ذلك أيضاً: ما ورد عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، أنه قال: «إِنَّ لَعَلَى قَمٍ مَلَكًا يُرْفَرُ عَلَيْهَا بِجَنَاحَيْهِ، لَا يُرِيدُهَا جَبَّارٌ بِسُوءٍ إِلَّا أَذَابَهُ اللَّهُ كَذَوْبِ الْمَلْحِ فِي الْمَاءِ»<sup>(٨)</sup>.

وكيف كان، فقد عازمت السيِّدة الكريمة عليها السلام على الرحيل إلى «قم»، وكان خبر أمرها وحالها قد شاع ووصل إلى أهل «قم»، الذين سارعوا لاستقبالها والترحيب بها واستضافتها، وكان من بين أولئك المستقبِلين موسى بن خزرج الأشعري، فعندما وصل هذا الرجل إليها عليها السلام أخذ بزمام ناقتها ودعاها للنزول عنده في داره، فلبَّت عليها السلام دعوته، ونزلت عنده، غير أنَّ مكوثها عنده لم يطل كثيراً حتى داهمها المرض واشتدَّ بها التعب، وفيما يروى: فهي عليها السلام لم تمكث عنده وبين أهل قم، إلا ستَّة عشرة يوماً، لتُسَلِّم بعد ذلك الروح إلى بارئها وترتحل إلى الرفيق الأعلى، وذلك في العام ٢٠١ من الهجرة المباركة، ليكون عمرها المبارك عند وفاتها عليها السلام ثمانية وعشرين عاماً فحسب، قضتْها كلّها في طاعة الله وعبادته، وقيل: غير ذلك..

ولكنّ الذي تسالم المؤرِّخون عليه هو أنَّ عمرها حتى وفاتها عليها السلام لم يتجاوز الثلاثين عاماً.. في مؤشِّر واضح وجليٍّ على مدى مظلوميَّتها ومعاناتها، وعلى عظيم التضحيات التي كابدها، والمصاعب التي اضطرَّت هذه السيِّدة الطاهرة إلى تحمّلها.

وبعد وفاتها، تقدّم موسى بن خزرج بتقديم أرضٍ لدفنها، وهي الأرض التي تحوّلت منذ أن دُفِنَتْ عليها السلام فيها، وإلى زماننا هذا، مزاراً لهذه العلويّة الكريمة، يعجّ بالوافدين من مختلف أقطار الأرض من المسلمين والمسلمات - على اختلاف مذاهبهم الفقهيّة والكلاميّة - الذين يرون في زيارتهم لها وفي تعظيمهم إيّاها تجسيداً للحبِّ الكبير الذي يحملونه في قلوبهم تجاه جدّها نبيّ الرحمة صلّى الله عليه وآله وتجاه أهل بيته عليهم السلام الطاهرين المطهَّرين من كلّ رجسٍ وذنس.

ومن ذلك الزمان، وإلى زماننا الحالي، وهذه المدينة المقدسة تشهد كراماتٍ عدّة جرت وتجري - بإذنٍ من الله تعالى ومشيتته - على يدي هذه السيّدة الجليلة، هذه الكرامات التي أظهرت فضلها وعلوّ درجة إيمانها وقُربها من الله عزّ وجلّ، وهي كرامات مشهورة ذائعة الصيت في الآفاق، ولا يتسع المقام لذكرها، حتّى عُرفت هذه السيّدة الجليلة بين الناس بأنّها «كريمة آل محمّد ﷺ»، وإنّه لو صُفّ لو تعلمون عظيم!!

نعم، هكذا هي سنّة الله تعالى مع أحبّائه من أوليائه، يتقرّبون إليه فيقرّبهم منه، ويجعل لهم شأنًا عظيمًا، ويُجري على أيديهم الكرامات الباهرة، ويجعلهم أبواباً إليه، يقصدها كلّ من له حوائج من خَلقه وعباده، كما روي في حديثٍ قدسي: «عبدني أطعني حتى أجعلك مثلي، أقول للشيء: كُنْ فيكون، تقول للشيء كُنْ فيكون»<sup>(٩)</sup>.

ومن بين هذه الكرامات الذائعة التي يُمكن لنا - بحقّ - أن ننسبها إلى الوجود المبارك لهذه السيّدة العظيمة هو تحوّل «قم» إلى مدينةٍ علميّةٍ كبيرة، وإلى أحد معادل العلوم الدينيّة التي تُدرّس على طبق التعاليم المستفادة من مدرسة أهل البيت ﷺ، حيث كان وجودها ﷺ بقم هو أحد الأسباب المباشرة لاستقطاب هذه الحوزة العلميّة الهائلة، فقد كان العلماء يتوافدون إليها من كلّ مكانٍ طمعاً في التبرّك بجوارها. وهذا ما يعترف به - بكلّ إجلالٍ - علماء وأساتذة وطلاب الحوزة العلميّة بقم المقدّسة، الذين يُطلقون على السيّدة المعصومة ﷺ اسم «مُستضيفة الحوزة العلميّة»، اعترافاً منهم بالامتنان الشديد لها، وبأنّ الفضل في توفيق الله تعالى لهم لتأسيس وتشيد هذه الحوزة المباركة يعود - بعد الله تعالى - إليها.

والمهمّ الذي نرغب في التركيز عليه في ختام هذه المقالة الموجزة، هو ضرورة أن تكون زيارتنا لها زيارة من هو عارف بحقّها، امتثالاً لكلام مولانا الإمام

الرضا، الذي قال - كما نقلناه آنفاً -: «مَنْ زارها عارفاً بحَقِّها فله الجنة»، ومعرفة حَقِّها لها صور وتجلياتٌ مختلفة، منها أن نعرف أنها بنت وأخت من هو مفترض الطاعة، وأن نعرف أن لها منزلةً عظيمةً عند الله تعالى، وأن لها على شيعتها حقاً لا يسقط عنهم إلا بالأداء، وأداء هذا الحق إليها لا يكون من خلال الزيارة فحسب، بل يكون في الامتثال والتطبيق العملي لأحكام الإسلام التي جاء بها رسول الله ﷺ، من حُسْن الجوار، وحُسْن الخلق، وحُسْن التعامل مع الناس، والخدمة لعيال الله، والسعي في قضاء حوائجهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحبّ أولياء الله والتبرّي من أعدائهم، .. وغير ذلك من المقدّسات والشعائر الإسلامية.

أخيراً، وليس آخرًا.. نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لزيارة هذه السيّدة الكريمة وأداء ما لها من حقّ علينا، وأن يدخلنا الجنة بشفاعتها، إنه سميع مجيب.

\* \* \*

## الهوامش:

(١) المجلسي، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٥٧: ٢٢٨، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة المصحّحة، ١٤٠٣ هـ، الشاهرودي، الشيخ علي النازي، مستدرك سفينة البحار ٨: ٢٦٢، تحقيق وتصحيح: الشيخ حسن بن علي النازي، ط مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم، ١٤١٩ هـ.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار ٩٩: ٢٦٥، مصدر سابق؛ والحرّ العاملي، وسائل الشيعة ١٤: ٥٧٦، ط مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار ٩٩: ٢٦٦، مصدر سابق، والحرّ العاملي، وسائل الشيعة ١٤: ٥٧٦، مصدر سابق.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار ٩٩: ٢٦٥-٢٦٦، مصدر سابق.

(٥) انظر: النازي، مستدرك سفينة البحار ٨: ٢٥٧، مصدر سابق.



- (٦) الشيخ الصدوق، ابن بابويه، علل الشرائع ٢: ٥٧٢، باب ٣٧٣، تحقيق وتقديم السيد محمد صادق بحر العلوم، ط منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها، النجف الأشرف، ١٩٦٦ م.
- (٧) ن. م.
- (٨) المجلسي، بحار الأنوار ٦٠: ٢١٧، مصدر سابق.
- (٩) انظر: الحائري، الشيخ محمد مهدي، شجرة طوبى ١: ٣٣، ط منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ.

# الانتصار الإلهي في لبنان

## قراءة في الدلالات السياسية والتجليات الربانية

□ الشيخ يوسف موسى رضا (\*)

### تقديم

استحوذ انتصار حزب الله في لبنان على اليهود والصهاينة على أذهان المراقبين من كتّاب وعلماء ومفكرين وصحفيين وأدباء وسياسيين في العالم، وخصوصاً في العالمين العربي والإسلامي، كلٌّ من موقعه وبحسبه، ونتيجةً لذلك، صدر العديد من الكتب، والمئات من المقالات في الصحف والجرائد والمجلات.

وبحمد الله، فبعد أن تكوّن لدي معلومات كثيرة عن حرب تموز ٢٠٠٦، كان لي نصيب في ذلك، فقد وفّقت لإصدار كتاب تحت عنوان (ملحمة النصر الإلهي، من عملية الوعد الصادق وحتى عملية الرضوان). وقد حوى توثيقاً كاملاً وشاملاً لأحداث الحرب السياسية والميدانية والإنسانية، بأسلوب قصصي وأدبي فريد، قارب الأحداث بأبعادها السياسية والدينية والمذهبية، ومع ذلك، فلا أدعي أنني وفيت بالغرض كاملاً، ولكن كتبنا على قاعدة: أن ما لا يُدرك كله، لا يُترك جلّه، ونسأل الله أن يتقبله منا خالصاً لوجهه الكريم.

(\*) خطيب وباحث إسلامي/ لبنان.

وفي هذه العجالة، أحبّ أن أتحدّث عن النصر الإلهي في عدوان تموز ٢٠٠٦ من جهتين أساسيتين، وهما: الدلالات السياسية، والتجليات الربّانية، وباعتقادي: إنّ إلهيّة النصر المذكور سوف تظهر بشكل واضح بناءً على المعطيات التي تحقّقت في هاتين الجهتين.

### الدلالات السياسيّة للنصر الإلهي:

الجهة الأولى التي قدّمت حرب تموز ٢٠٠٦ على أنّه نصر مبين وكبير على الصهاينة، هو في النتاج السياسيّ الذي تحقّق على مستوى الدلالات، التي هي - في أفقها العامّ - تُعدّ استراتيجيةً بامتياز، فالنصر غير من معادلاتٍ حاولت دويلة إسرائيل الغاصبة أن تُكرّسها خلال سياستها في ذهن الدول العربيّة والإسلاميّة لسنواتٍ طويلة، وبعد هذا النصر، سقطت، ومعها سقط كلّ الوهم الإسرائيليّ في المنطقة، وفي المقابل، قامت معادلات جديدة كانت في أذهان الكثير من الناس سخيّةً وضعيفة، وإذا بها مع هذا النصر تُصبح هي القوّة التي تقلب الموازين، وتتحكّم بقواعد الصراع، وصنع القرارات. ولكي لا نطيل في التقديم، ندخل مباشرةً لعرض أهمّ دلالات نصر حزب الله على الصهاينة:

### عودة الأمل إلى الشعوب بسقوط الأسطورة

الدلالة الأولى: بعد أيّام النكبة، وما حلّ بفلسطين الحبيبة عام ١٩٤٨م، حاولت الشعوب العربيّة قتال المحتلّين عبر محاولاتٍ فردية، ومحاولاتٍ تنظيميّة لاسترداد الحقّ السليب، ولكنّ ضخامة القدرة العسكريّة الصهيونيّة كانت أقوى من كلّ جهد، وأمنع من أن يُسجّل أيّ اختراق لدى العدو. وبعد ذلك، جرّبت الدول العربيّة حظّها في قتال إسرائيل ضمن عدّة حروب، ومعظمها باءت بالفشل، وفي بعضها انتقص من الأرض العربيّة زيادةً

على ما احتلّ منها، وهذا كان باعثاً على تنامي الإحباط واليأس لدى الشعوب من عودة الأرض ودحر المحتلّ، واستمرّ هذا الشعور حتّى صار لإسرائيل دولة على أنقاض فلسطين وتهجير أهاليها. ومن بقي منهم في أرض فلسطين قاوموا ويقاومون، ولكن جلاّد العدوّ في كلّ يوم يحصد منهم العشرات، وضمير الحكّام والأنظمة: إمّا أنّه مات، وإمّا أنّه انسجم مع الوضع القائم، خصوصاً بعد أن مُدّت بينه وبين حكّام العرب جسور من التطبيع السياسيّ والدبلوماسيّ والاقتصاديّ و... إلخ. وأمّا الشعوب، فطُورِدَتْ وحُوصِرَتْ واستُهلكت في صراعاتٍ داخلية، لم تعد معها قدرة على إحياء قضية فلسطين، وحشد القوى المقاومة ضدّ الصهاينة، وهذا ما أفقَدَ الأمل كاملاً بعودة الحقّ السليب.

وجاء حزب الله، بمقاومته الإسلامية الباسلة، وبقيادته الحكيمة، خلال عقدين من الصراع، ليُعيد الأمل المفقود، ويحيي قضية الصراع على وقع موسيقى الانتصارات الكبيرة ضدّ الصهاينة، خصوصاً في الانتصارين العظيمين في (٢٥/ أيار/ ٢٠٠٠م) وفي (١٤/ ٨/ ٢٠٠٦م).

نعم، كان الانتصار الثاني أعظم؛ لأنّه، إضافةً إلى إعادته الأمل لدى الشعوب، استطاع أن يُسقط الأسطورة الإسرائيليّة في جيش العدوّ، وفي قدراته القتالية، وإمكاناته التقنيّة والعسكريّة، فالعدوّ من خلال هزيمته للعرب على مرّ عقود من الزمن، زرع في الذهن العربيّ أنّه القوة الأسطورة، وأنّه الجيش الذي لا يُقهر، وبهذا الوهم، فرض على العرب أجنداتٍ سياسيّة، أقلّها القبول به ككيانٍ شرعيّ في أرضهم، وعقد اتّفاقيّات سلامٍ معه وعلاقاتٍ دبلوماسية وفتح سفارات... إلخ.

ولكنّ هذا كان قبل عدوان تمّوز، وأمّا بعده، فالأمر اختلف، فالأسطورة سقطت، والجيش قُهر، ومقاومة العدوّ عادت لتستأثر بالاهتمام العربيّ والإسلاميّ من جديد كأولويّة ما دام أنّ هذا العدوّ يُمكن قهره، بل ما دام

يمكن إزالته، فالمرض الذي أوجده حزب الله في جسمه من الأمراض المزمنة التي لا تكتفي بإضعافه، بل ستؤدي إلى موته إن شاء الله.

يقول العميد الركن الدكتور «أمين حطيط» عن انتصار حزب الله:

«أما العرب، فعليهم أن يتمسكوا بإنجاز المقاومة في لبنان، وبتجربتها الفذة في حرب الأيام الثلاثة والثلاثين، الحرب التي أكدت أن الشعب بإمكانه أن ينتصر من غير أن ينتظر النظام، إنها حرب النصر الشعبي...»  
وتابع:

«إنها تجربة صُنعت في لبنان، لكنّها ملك لأيّ إنسان يريد العزّة والكرامة وقرّر أن يدافع عن الحقّ في وجه عدوّ يفوقه تسليحاً ونفوذاً»<sup>(١)</sup>.

وقال رئيس حكومة لبنان الأسبق الدكتور «سليم الحصّ»:

«إنّ حرب لبنان ستكون داعياً لتنمية ثقافة المقاومة، بعد أن ثبّت عُقْم الرهان على الحروب التقليدية، وجدوى الرهان على منطق المقاومة الشعبية، وستكون للشعوب العربيّة بعد اليوم كلمتها، فقد تحدّث حكّامها في التعبير عن تضامنها مع لبنان بصوت مجلجل، في وقتٍ كانت الأنظمة العربيّة تلتزم مواقف تُشجّع العدوّ على مواصلة عدوانه، وتمتنع عن عقد قمّة لنصرة لبنان وفلسطين»<sup>(٢)</sup>.  
وقال الدكتور «سمير التقي»:

«حطّم انتصار حزب الله في هذه الحرب الأوهام التي زرعتها إسرائيل في الذهنيّة العربيّة منذ عشرات السنين بأنّها تملك جيشاً لا يُهزم، وغرس بدلاً من ذلك عامل الثقة بالقدرة على تحقيق النصر بدون جيوش تقليديّة»<sup>(٣)</sup>.  
وعلى غرار هذه الإفادات، كثير من الإفادات لرجال السياسة والفكر والرأي، نعرض عنها روماً للاختصار.

العدوّ لا يفهم إلّا منطق القوّة

**الدلالة الثانية:** كرّس انتصار حزب الله منطق القوة كوسيلة وحيدة لاسترجاع الحقوق، وفرض الشروط على العدو، دون أيّ منطق سواه، فعلى مدار سنين طويلة، خاض العرب مفاوضات سلام مع الصهاينة في عدّة أمكنة، وكلّها باءت بالفشل، بل على العكس، استغلّ العدو الضعف العربيّ من خلال الاستمرار في سياسة توسعة الاستيطان وفرض الإرهاب على الشعب الفلسطينيّ الأعزل، وحصاره أمنياً واقتصادياً... إلخ، وزجّ أبنائه في السجون، وملاحقة كواد المقاومة بالاغتيال والقتل، وسياسة تناسي الحقوق العربيّة لديه في الجولان السوريّ ومزارع شبعا وتلال كفرشوبا. وبهذا يكون العدو قد أعطى الوقت الكافي كي يبرهن عن جدّيته في السلام وإعادة الحقوق، ولكنّه لم يفعل، فكلّ شيء بقي على حاله؛ الأرض والأسرى والحصار والمجازر والإرهاب بكلّ أشكاله.

وجاء انتصار حزب الله، وعن طريق القوة، استطاع لبنان أن يستعيد الجزء الأكبر من أرضه المحتلّة في (٢٥/ أيار/ ٢٠٠٠م)، كما أنّه من خلال أسر الجنديّين الإسرائيليّين في خراج «عيننا الشعب»، بتاريخ (١٢/ ٧/ ٢٠٠٦م) استطاع أن يُنهي ملفّ الأسرى والمفقودين ورفات الشهداء، اللبنانيّين وغيرهم، لدى العدو الصهيونيّ، فعميد الأسرى «سمير القنطار» لم تستطع الحلول السياسيّة على مدى ثلاثين سنة أن تُخرجه من وراء القضبان، ولكن بفعل منطق القوة خرج من ورائها، وبهذا المنطق سيكمل حزب الله مسيرته لتحرير كامل الأراضي اللبنيّة، وخلق توازن رعب ضمن استراتيجيّة دفاعيّة لحفظ الوطن، وصيانتته من الأخطار والأطماع الإسرائيليّة.

والحاصل: أنّ انتصار حزب الله أسقط الرهان على الحلول السياسيّة، من خلال ما يُسمّى بـ «عملية السلام مع إسرائيل» في تحرير الأرض والدفاع من الأوطان، وأحيا منطق القوة على أنّه اللّغة الوحيدة التي يفهمها هذا العدو، على

قاعدة ما قاله الزعيم العربي «جمال عبد الناصر»: «ما أخذ بالقوة لا يُستردُّ إلاَّ بالقوة».

وبالإضافة إلى هذا: مناداته باللاءات الثلاث: (لا اعتراف)، (لا مفاوضات)، (لا صلح)، ولكن، للأسف، حوّلها العرب من بعده إلى (أنعام) ذليلة مع الكيان الغاصب.

وإلى جانب هذا الزعيم، كانت كلمات الإمام الخميني، عندما وصف إسرائيل بأنّها «غدة سرطانية يجب استئصالها»، وأيضاً كلمات الإمام المغيب السيّد موسى الصدر، عندما وصف إسرائيل بأنّها «شرٌّ مطلق»، وعليه: حرّم التعامل معها، ودعا إلى مقاتلتها بالقول:

«قاتلوا إسرائيل بأسنانكم وأظافركم وسلاحكم مهما كان ضعيفاً».

كلّ هذه الكلمات، مع أنّها قيلت منذ أكثر من عقدين من الزمن، ولكنّها وعت حقيقة هذا العدو، والمنطق الذي يفهمه. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فقد أسقط انتصار حزب الله الرهان أيضاً مع هذا العدو على قرارات مجلس الأمن، الذي ضربت إسرائيل كلّ قراراته بعرض الحائط، ولم تطبّق أيّاً منها، هذا إذا استطاع مجلس الأمن أن يصدر قراراً يدين إسرائيل، أو يفرض عليها شروطاً يعود نفعها للعرب؛ لأنّ الفيتو الأمريكي دوماً في خدمة مصالح إسرائيل، ويمنع أيّ قرار يضرّ بذلك...

#### معادلات استراتيجيّة في انتصار حزب الله

الدلالة الثالثة: غير انتصار حزب الله معادلات تتجاوز الموقع المحليّ والإقليميّ إلى الموقع العالميّ، من جملتها: تقويته لحلف الممانعة ضدّ الاستعمار الغربيّ والهيمنة الأمريكيّة على العالم.

فحلف الممانعة في الشرق الأوسط المتمثّل بإيران وسوريا بعد انتصار حزب الله هو غيره قبل انتصار حزب الله، والكلّ يعلم أنّ الحرب التي فرضت على

لبنان وخاضها حزب الله لم تكن حرباً موقوفة على طرفين، هما: حزب الله وإسرائيل، بل الحرب دخلت فيها أمريكا بامتياز إلى جانب إسرائيل، ومن ورائهما الكثير من دول العالم، والقوة التي استخدمت كانت قوة عالمية على كل الأصعدة، من حيث نوعية القتال، ونوعية السلاح، وكميته، ومع ذلك، انهزم الطرف (الصهيوي أمريكي)، بالرغم من إفساحه المجال للحرب إلى ثلاثة وثلاثين يوماً، في صيغة أظهرت هشاشة الموقف الأمريكي والعالمي، الذي يهدد به إيران وسوريا، في الصباح والمساء، إذا لم يقبلا بشروط العصر الأمريكي ومشروعه في المنطقة.

والحاصل: لم تتمكن أمريكا وإسرائيل ثلاثة وثلاثين يوماً من تحقيق إنجاز ضد حزب الله، ولو في عودة الأسيرين، أو منع الصواريخ على فلسطين المحتلة، أو كسر شوكة حزب الله في الميدان أو... فهل يا ترى، بهذا المنطق الهزيل، والموقف الهش، ستستطيع أمريكا تحقيق إنجاز ضد إيران، وشتان ما بين قوة إيران وقوة حزب الله! وقد صمدت إيران في أول انطلاقتها على مدى ثماني سنوات ضد حرب فرضت عليها من قبل صدام الطاغوت، ومن ورائه العالم بأسره، فكيف الآن؟! وهي التي صدرت - بفكرها الثوري - إلى فلسطين نموذجاً للحرية، هو حزب الله.

فهذا جزء من المعادلة الاستراتيجية التي صنعها انتصار حزب الله، إذ قلل من احتمالات ضرب سوريا وإيران، بعد أن جعل الأمريكي يحسب مثل هذه الحروب ألف حساب...

يقول الباحث السياسي والمتكلم البارع النائب السابق «ناصر قنديل»: «لقد خاض حزب الله حرباً عالمية، هي الحرب الحاسمة في رسم التوازنات الدولية الجديدة، بعد استنزاف المشروع الأمريكي في أفغانستان والعراق، وصمود سوريا، وصعود إيران، ونجح في إسقاط الاحتياط الاستراتيجي الذي



مثّله لنصف قرن قدرة الردع الإسرائيليّة، وأدّى بذلك إلى تفكيك التحالف المأخوذ بقوة الرهبة، وراء الحروب الأميركيّة، وفتح الآفاق أمام معادلاتٍ جديدة لن يكون فيها المستقبل أسوأ من الحاضر والماضي بالتأكيد، ولا يبدو من المبالغة بشيء أن نقول: إنّ حزب الله قد رسم مقدمات ولادة العالم المتعدّدة الأقطاب بصورة مبدئيّة، وما يُنتظر: هو تحديد الجالسين حول الطاولة بعدما بدا أنّ نصيباً من الدور الافتراضيّ إقليميّاً كان محسوماً لإسرائيل، قد جرى التسليم به لإيران<sup>(٤)</sup>.

ومن المعادلات الاستراتيجية التي أوجدها نصر حزب الله: الإمساك بالواقع الجيوسياسي للمنطقة العربيّة والإسلاميّة، فلو قدّر لإسرائيل أن تنتصر، فلن تبقى خريطة الدول العربيّة والدول الإسلاميّة على حالها، فمشروع الشرق الأوسط الجديد الذي بشرت به الإدارة الأمريكيّة، كان يهدف إلى تغيير خارطة المنطقة بأكملها، ومفتاح ذلك: سقوط حزب الله في لبنان. وعليه: فيكون هذا النصر هو الذي حافظ على كراسي الحكّام والملوك ومواقع الأنظمة، وقد أشار سيّد المقاومة إلى هذه الحقيقة في غير واحدٍ من خطاباتهِ إبّان العدوان.

### الحدّ من هجرة اليهود إلى فلسطين

الدلالة الرابعة: وضع انتصار حزب الله حدّاً للهجرة إلى فلسطين من اليهود في الشتات، فالصورة التي كانوا يستقربون بها اليهود نحو أرض الميعاد، لم تعد بعد انتصارات المقاومة الإسلاميّة بتلك الجاذبيّة والكاريزما؛ لأنّ حزب الله زرع في أرض الأحلام الصهيونيّة الموت والرعب والهلع والعقد النفسيّة والأجواء الرهيبة، خصوصاً بعد المفاجآت التي وعد بها سيّد المقاومة ويعد بها، فالمفاجأة التي قال أخيراً: «إنّها ستغيّر مصير الحرب والمنطقة»، من شأنها أن

تلغي كل حجةٍ بالمجيء إلى فلسطين، بل على العكس، هناك تقارير أفادت الهجرة المضادة من فلسطين إلى خارجها، خصوصاً بعد الذي رآه إبان هبوط الصواريخ على رؤوسهم في عدوان تمّوز.

والهجرة العكسيّة من جملة عواملها: أنّ الشعور بالوطنية لدى اليهود سجّل تراجعاً ملحوظاً، وهذا من شأنه أن يهدّد الكيان الغاصب بالتفتت والزوال. وإليك ما ورد في وثيقة «مؤتمر هرتسليا السادس - ٢٠٠٦م» استناداً إلى ما توصّل إليه استطلاع الوطنية الإسرائيلية الأول من نوعه:

«هناك نكوص في الوطنية بمرور الأجيال، ففي صفوف الشبان الإسرائيليين الذين تشكّل وعيهم في الجيل الأخير، يلاحظ وهن واضح في عاملي: التضحية والأصالة، وعلى سبيل المثال: فإنّ عدم الاستعداد للقتال دفاعاً عن الدولة لا يظهر تقريباً لدى الكبار من أبناء الجيل الذين وُلدوا إبان سنوات إقامة الدولة، في المقابل: يظهر عدم الاستعداد هذا لدى شخصٍ واحدٍ من بين كلّ سبعة شبّان يهود (٤١٪). كذلك أفاد اثنان من بين كلّ خمسة شبّان (٤٤٪): أنّهم سيغادرون الدولة إذا كان مستوى حياتهم سيتحسن بصورة ملموسة في الخارج».

وأضافت الوثيقة المذكورة: «يلاحظ وجود اغتراب في صفوف ذوي المداخل المتدنية من الجمهور اليهودي؛ إذ إنّ هؤلاء هم الأكثر تردداً فيما يتعلق بالاستعداد للمحاربة دفاعاً عن الدولة، ولا يُبدي حوالي عُشرهم استعداداً لذلك، (٩٪) كذلك يبرز لديهم إحجام واضح عن وصف أنفسهم كـ (وطنيين متحمسين)»<sup>(٥)</sup>.

### الإطاحة بجنرالات الحرب

الدلالة الخامسة: أنّ انتصار حزب الله استطاع أن يطيح بجنرالات الحرب، وبقيادة الحرب العسكريين والسياسيين، في سابقةٍ لم يشهد هذا الكيان مثلاً لجهة

التوتر والانقسام الذي انفجر مع انتصار حزب الله، وهزيمة الكيان الغاصب بين الجنرالات والقادة من جهة، وبين هؤلاء والشعب من جهة أخرى، فعقدت لجان للتحقيق والمساءلة، كما شهد الكيان الغاصب حركة احتجاجية قوية تُطالب باستقالة أولمرت وحكومته بعد أن حملوها مسؤولية الفشل في لبنان والهزيمة في تحقيق أي إنجاز.

وبدأ الجنرالات بالتدحرج، بدءاً من الجنرال «أودي آدم» قائد المنطقة الشمالية، مروراً بقائد الأركان «دان حالوتس»، ووزير الحرب «عمير بيريتس»، ورئيس الكيان الغاصب «موشي كاتساف»، ووزير المالية «أبراهام هيرشون»، وختاماً بـ «أولمرت» الذي حزم حقائبه وأُخرج من الحكم بسبب الفشل الذي أوجده لكيانه الغاصب، وبسبب الرشاوى المالية وملفات الفساد التي تلاحقه من حين لآخر، ومؤخراً: مثل أمام المحكمة القضائية، في سابقة جديدة لرئيس كيان العدو، إذ قبله لم يشهد هذا الكيان في قوانينه أن يمثل من قادته أمام المحكمة أحد بحجم رئيس وزراء .

وبالإضافة إلى هؤلاء الساقطين، جرت تعديلات في المسؤوليات والمواقع شملت معظم المؤسسات العسكرية في الجيش وقيادة الأركان، وكل ذلك ببركة انتصار حزب الله.

### تجليات النصر الإلهي

والجهة الثانية من نتاج النصر: هو في التجليات الإلهية والألطف الربانية التي رافقت مسيرة الحرب منذ البداية وحتى النهاية، وقد شاهدها القاضي والداني، والقريب والبعيد، والعدو والصديق، بمشاهد متعددة ، وبمظاهر مختلفة، وفيما يلي التفصيل في هذه الجهة:

في الفكر العقدي للإسلام: النصر دوماً من عند الله عز وجل، فهو المصدر لكل نصر، والقرآن واضح وصريح في ذلك بالعديد من آياته: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا

مَنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿آل عمران: ١٢٦﴾، ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، وهذا من العقائد الثابتة، وقد رأى المسلمون تجلياتها بأَمِّ العين، وفي معارك عدّة، قال تعالى حكايةً عن وقعة بدر: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَآئِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٢-١٢٥]، وقال تعالى حكايةً عن معركة حنين التي فرّ فيها المسلمون على الأعقاب تاركين رسول الله ﷺ مع نفرٍ قليلٍ من بني هاشم، على رأسهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿١٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

وبالعودة إلى انتصار حزب الله (تموز ٢٠٠٦ م) فقد وُصف على ألسنة قادة حزب الله بـ «الإلهي»، مع أنّ كلّ انتصارات المقاومة الإسلامية ربّانية، وذلك لظهور آيات الله بشكلٍ جليٍّ وواضح، وللعُدوّ قبل الصديق، خلال المواجهات، وفي الميدان.

وفي هذا البحث سأعرض أبرز هذه الأشكال للتجليات الإلهية في انتصار تموز/ آب/ ٢٠٠٦ م، وهي كالتالي:

الملائكة إلى جانب المقاومين:

الشكل الأول: تجلّى النصر الإلهي من خلال وجود عنصر الملائكة بمناظر مختلفة، تارةً بأثواب بيضاء، وأخرى: بأشباح مقطوعة الرأس، وقد شهد ذلك العدو قبل الصديق، وهذا ليس بغريب، ففي الروايات: أن الله يُوَكِّل بالمجاهدين آلاف الملائكة لنصرتهم وحمايتهم، فقد ورد عن رسول الله ﷺ:

«إن الغزاة إذا همّوا بالغزو كتب الله لهم براءةً من النار، فإذا تجهّزوا لغزوهم باهى الله تعالى بهم الملائكة، فإذا ودّعهم أهلهم بكى عليهم الشيطان والبيوت، ويخرجون من ذنوبهم كما تخرج الحية من سلخها، ويوَكِّل الله عز وجل بهم، كلّ رجل منهم، أربعين ألف ملك يحفظونه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ولا يعمل حسنةً إلاّ ضعفت له، ويكتب له في كلّ يوم عبادة ألف رجل يعبدون الله ألف سنة، كلّ سنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم مثل عمر الدنيا. وإذا صاروا بحضرة عدوّهم انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب إياهم، فإذا برزوا لعدوّهم، وأُشرعت الأسنة وفوّت السهام، وتقدّم الرجل إلى الرجل، حَفَّتْهم الملائكة بأجنحتهم ويدعون الله لهم بالنصر والتثبيت...» إلخ<sup>(٦)</sup>.

ونكتفي هنا بما جاء في مقابلة مع بعض الجنود الصهبانية عبر التلفاز الإسرائيلي:

نجا «مناحيم جلعاد» من الموت المحقق، لقد أبيدت مجموعته المؤلفة من ثمانية جنود، وبقي هو على قيد الحياة، لكن من الذي قاتلهم وأباد تلك المجموعة؟

القناة العاشرة الإسرائيلية «برنامج العائدون من الجبهة» تخبرنا بذلك: المذيع: مناحيم! لقد أخبرت أمراً عجبياً، وحوّلت بعده للتحقيق والاثم بآنك تدعي الجنون لعدم العودة إلى القتال في حال نشوب أية معركة أخرى. مناحيم: أبداً على الإطلاق، إنّي أقسم أنّ ما رأيته كان حقيقةً، ولم أكن أتخيّل، ولو كان أحد أفراد المجموعة غيري حيّاً لأخبركم به.

المذيع: لكنّ إخبارك هذا سبّب ذعراً بين الجنود الباقين.  
مناحيم: كيف يمكنك أن ترى مثل هذا الذي حصل، ولا يمكنك أن تخبر به الجنود.

المذيع: وما الذي حصل تفصيلاً؟  
مناحيم: لقد كنّا داخل إحدى النقاط في بلدة «بنت جيبيل»، وهي عبارة عن بيت قديم، وكنا نظنّ أنّنا تحت غطاءٍ من المدفعية والطائرات، وقوّاتنا المتواجدة في كلّ مكان، وفجأةً انهمر علينا الرصاص من كلّ جانب حتى أخذنا نفرّ من البيت ظناً أنّ مجموعةً كبيرةً لحزب الله تقاتلنا، وعندما خرجنا، وجدنا ببندقيةً معلّقةً في الهواء ترمي نيراناً كثيفة، حتى قتلت كلّ أفراد مجموعتي، وتركنتي، رغم أنّني كنتُ هدفاً قريباً، ويمكنها أن تصيبنني.

المذيع: البندقية بمفردها؟!  
مناحيم: نعم، صدّقني، إنّها الحقيقة.  
أما «ليفّي ألون»، وهو ضابط في جيش الاحتياط، وزميله «دايفيد أزمون»، فقد شاهدوا أموراً عجيبةً أيضاً.

المذيع: ليفّي! ماذا رأيت أنت في ساحة القتال؟  
ليفّي: إنّها الجحيم، لقد تساقطت علينا النيران من كلّ الجهات، كنّا نعلم أنّ العدوّ أمامنا، ولكن كيف أتت النيران من الخلف؟!

المذيع: يمكن أن يكون جنود حزب الله قد أحاطوا بكم من الخلف؟!  
ليفّي: لا، أوّكد لك أنّ جنودنا كانوا في الخلف، وحتى إذا أحاطوا بنا، فكيف تساقطت علينا النيران من السماء؟!!

هنا يسكت المذيع ويلتفت إلى دايفيد ويقول له: هل تصدّق ما قاله مناخيم وليفّي؟

دايفيد: حتماً، فأنا لا أعلم ماذا أعدّ لنا حزب الله حتّى يقاتلنا كلّ شيءٍ من حولنا.

المذيع: ماذا حصل مع أفراد وحدتك أنت؟

دايفيد: كنّا نتقدّم على أطراف إحدى قرى العدو، فأقسم لك أنّ إحدى الأشجار كانت تُطلق النار علينا، فأخذنا نُطلق النيران على الشجرة، والشجرة تطلق النيران علينا.

المذيع: وهل كان أحد خلف الشجرة؟

دايفيد: لا، مطلقاً.

«مناحيم جلعاد» و«لوفي ألون» و«دايفيد أزمو» كانوا ضمن الـ ٣٠٠ جنديّ إسرائيليّ الذين سافروا للعلاج بحجّة أنّ ما قالوه ورأوه هو نوع من الجنون<sup>(٧)</sup>.

#### دوابّ الأرض ضدّ الصهاينة:

الشكل الثاني: تجلّى النصر الإلهيّ من خلال دوابّ الأرض التي كانت في صالح رجال الله، وطالح شُذاذ الآفاق الصهاينة. وأعني بدوابّ الأرض: العقارب، والأفاعي، والحشرات، والحيوانات، فقد ذكر الصهاينة أنّ عدداً من الإصابات التي تعرّضوا لها كانت من لدغات العقارب، وعَضّ الأفاعي، في سابقة فريدة، بينما لم يُسجّل لرجال الله هذا النوع من الإصابات، بالرغم من أنّ الميدان مشترك في الأرض والشجر والحجر والموقع والمكان.

وبالإضافة إلى هذا، سُجّل حدث غريب عن حيوان «اللامّة»، فقد قامت «إسرائيل» بجلب ما يقارب أكثر من ٣٠٠ حيوانٍ من هذا النوع لنقل العتاد والأسلحة الثقيلة التي يحتاجها الجنود أثناء الحرب، وعندما قاموا بوضعها على ظهرها امتنعت من السير باتجاه لبنان، فإذا أداروها نحو فلسطين المحتلّة سارت بدون تردّد. وحاولوا معها عدّة مرّات، فلم يفلحوا في ذلك. وقيل إنّّه بعد أن أضجرهم امتناعها تمّ قتل العديد منها<sup>(٨)</sup>.

أقول: هذا الحدث الرباني يُذكرنا بفيل «أبرهة الحبشي» الذي امتنع عن هدم الكعبة، أو عن التقدّم باتجاه الكعبة، بالرغم من ضربه عدّة مرّات، وكان هذا تأكيداً على ما قاله عبد المطلب جدّ الرسول ﷺ لما قيل له: ألا تقف بوجه أبرهة للدفاع عن الكعبة؟ فأجاب: للبيت ربّ يحميه. ومثل الفيل: الطيور الأبايل التي رمت جيش أبرهة بحجارة من سجيل. وفي جنوب لبنان، عاد هذا المشهد الرباني ليتكرّر من جديد في صورٍ عدّة وبأشكالٍ مختلفة، فهل من يعتبر؟!

### أهل البيت والأولياء إلى جانب المقاومين

الشكل الثالث: تجلّى النصر الإلهي من خلال ظهور أهل البيت الميامين، وأنبياء الله المرسلين، وعباده الصّالحين لحماية رجال الله المقاومين وإعانتهم في غلبتهم على أعدائهم.

والكرامات التي نُقلت عن المجاهدين في مفردات هذا الشكل بلغت حدّ الإحصاء، وفيما يلي قبس منها:

الكرامة الأولى: قال أحد المجاهدين في بنت جبيل: كنّا في موقعٍ من مواقع بنت جبيل، وكان عددنا خمسة أشخاص، جالسين ننتظر الأوامر للقيام بعملية من العمليات، وإذا بصوتٍ تقشعرّ منه الجلود، «قوموا واخرجوا للجهاد، فأنا معكم مولاكم أمير المؤمنين، ولا تخافوا، ولا تحزنوا، فإنّ الله معكم». قال هذا المجاهد: فقمنا وخرجنا، فرأينا جيش العدو يتقدّم نحونا، فحدثت اشتباكات بيننا وبينهم حتى أرجعناهم إلى الخلف ولم يستشهد منّا أيّ مجاهد، ثمّ رجعنا إلى مواقعنا ولم نشعر بأيّ تعب<sup>(٩)</sup>.

الكرامة الثانية: نقل أحد المجاهدين: في منطقة «مرجعيون» بأنّه كان هو وعدد من المجاهدين الذين معه في موقعٍ قرب ثكنة مرجعيون، وكان طيران العدو محلّقاً في سماء القرية، ويقصف عليها بشدّة بحيث لا يمكن لأيّ شخص



الخروج أو التحرك من مكان لآخر، وإذا بالسيّدة مريم بنت عمران عليها السلام والسيّد المسيح عليه السلام يظهران لهم، وقالت لهم السيّدة مريم عليها السلام: «اخرجوا فإنكم بأمان». يقول: فخرجنا من موقعنا إلى موقع آخر، ولم نُصب بأيّ أذى بعناية الله تعالى<sup>(١٠)</sup>.

الكرامة الثالثة: بينما كان خمسة من المجاهدين يتجولون في إحدى المناطق خوفاً من أيّ إنزالٍ إسرائيليٍّ مفاجئ، فإذا بطائرة (MK) قد كشفتهم، فأطلقت عليهم صاروخاً، وفي تلك اللحظة، ظهر لهم شخص يرتدي لباساً أبيضاً، وعباءة على كتفه، فوضع العباءة عليهم، ثم رفعها عنهم، فلم يصبهم أيّ أذى ولم يجدوا للصاروخ أيّ أثر، ثم اختفى هذا الرجل ولم يشاهدوا له أيّ أثر<sup>(١١)</sup>.

الكرامة الرابعة: قال أحد المجاهدين: كنّا ثلاثة شبّان في منطقة سهل الخيام في مستعمرة «المطلّة»، وكان أحدهنا يصليّ صلاة الفريضة في النهار، فظهر له شخص يشعّ نوراً، فقال له المجاهد بدهشةٍ وتهيب: من أنت؟! وكيف وصلت إلى هنا؟! وماذا تريد؟! فأجاب الرجل ذو الطلعة النورانية: أنا الإمام الحجّة مولاكم، أظهر بإذن الله تعالى لموالينا متى أشاء وبأيّ مكان وأريد أن أتحدّث معك. فقال المجاهد له: يا مولاي أنا لست وحدي هنا، بل معي أصحابي المجاهدون في الموقع. فقال له: الإمام عليه السلام: خذني إليهم لأتعرّف عليهم. قال المجاهد: فأخذته لهم، فعرفهم، وفي تلك اللحظة تقدّم الصهاينة بدباباتهم وجرافاتهم، وكان المجاهدون الثلاثة على أهبة الاستعداد للمواجهة، وكان معهم الإمام المهدي عليه السلام، فدارت الاشتباكات بينهم، وبدأ إطلاق الصواريخ من قبل العدوّ نحو الشباب، فأوماً الإمام بيده اليمنى لصاروخ موجّه على المجاهدين، فتغيّر مساره، وأصاب إحدى الدبابات، فتعجّب الشباب من ذلك، ثم توالى إصابات الدبابات الواحدة تلو الأخرى بالرغم من أنّ العدوّ كان يرمي القنابل الدخانية التي تحجب الدبابات. وبعد ذلك نادى الإمام عليه السلام

المجاهدين قائلاً لهم: الآن انسحبوا. فانسحب المجاهدون منتصرين بعونه تعالى<sup>(١٢)</sup>.

**الكرامة الخامسة :** في اللحظات الحرجة من القتال والجهاد، صلى أحد المقاومين بعد أن حان وقت الصلاة، وبعد الصلاة، سجد سجدة طويلة، وغفل وهو في تلك السجدة، فرأى في عالم الرؤيا السيِّدة فاطمة الزهراء عليها السلام، ومعها السيِّدة زينب عليها السلام. فقال للسيِّدة الزهراء بلهفة: يا مولاتي إنَّ الطيران هتكنا، ودمر بيوتنا، وقتل أطفالنا ونساءنا، ألا تصنعون لنا شيئاً؟ فقالت له السيِّدة الزهراء: اصبروا فالنصر حليفكم. فقال لها: يا مولاتي ألسنا من مواليكُم ومحبِّيكُم والمتمسِّكين بكم والسائرين على طريقكم؟ ألا تصنعون لنا شيئاً لهذا الطيران؟ فأعادت عليه الجواب: اصبروا، فالنصر حليفكم. وأصرَّ على الزهراء عليها السلام للمرَّة الثالثة قائلاً: يا مولاتي ألا تفعلون شيئاً لنا مع هذا الطيران، ولو بإسقاط طائرة واحدة تطفئ النار التي في قلوبنا فتشفون بها غليلنا؟ يقول هذا المقاوم: فإذا برداء أبيض، قد وضعته السيِّدة الزهراء في السماء، وقالت لي: اصبروا، فالنصر حليفكم. يقول: فأفقت من هذه الغفلة، وإذا بي أسمع بسقوط طائرة إسرائيلية في «وادي مريمين»، فتحقَّق ما قالت له السيِّدة الزهراء من سقوط الطائرة والحصول على النصر<sup>(١٣)</sup>.

#### الإيحاء النفسي إلى المجاهدين:

**الشكل الرابع:** تجلَّى النصر الإلهي من خلال الإيحاء النفسي والباطني الذي ألقاه الله في قلوب المجاهدين. فقد حدَّث المجاهدون عن حوادث عدَّة كان الموت فيها محتمَّاً، وقد كتب الله لهم النجاة من خلال شعورهم بوجوب تخلية مكانٍ والانتقال إلى مكانٍ آخر. حدَّثني بعض المجاهدين: أنَّ هذا الشعور حدث لهم في مكانٍ ما في بلدة «عيتا الشعب»، بعد أن صلَّوا صلاة المغرب،

شعروا بأن الطيران قد يقصفهم. وفعلاً، استجابوا لهذا الشعور بشكلٍ اندفاعيٍّ ولا إراديٍّ قبل أن يكملوا صلاتهم، وما إن غادروا المكان حتّى وقعت القذائف والصواريخ في نفس المكان الذي كانوا فيه، ولو بقوا فيه لأُبيدوا عن آخرهم.

ومن هذا الإيحاء: الشعور بالشجاعة والإقدام، وعدم الخوف والرعب، بالرغم من وجودهم في أماكن وعرة وأحراشٍ موحشة بالعمته والظلام وفي ظلّ الآلاف من جنود العدو المنتشرين في كلّ الأماكن، وفي مقابل هذا، كان العدو على العكس تماماً. يقول المجاهدون: في أيام الحرب، كنّا في أماكن مرعبة جداً، الآن بعد الحرب لا نجرؤ للذهاب إليها في الليل، بالرغم من وجود الأمان والمصاييح.

أقول: هذا الإيحاء له واقعيّة في القرآن الكريم، فقد حدّث الله في قصّة موسى عن أمّه لما ولّدته، وكانت خائفةً من فرعون الذي كان يقتل كلّ الذكور في زمانه، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلَيْهِ فِي السَّيْرِ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الفصص: ١٧].

وقال تعالى حكاية عن الإيحاء إلى أصحاب الكهف: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]، مع أن أصحاب الكهف لم يكونوا أنبياء ولا مرسلين فكيف عرفوا أن نجاتهم من طاغوت زمانهم هو في الإيواء إلى الكهف؟ ليس إلا الإيحاء والإلقاء في قلوبهم من الله سبحانه وتعالى.

وقال تعالى حكاية عن حواريّ عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَآمَنَّا وَآمَنَّا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وقال تعالى حكاية عن إيحاؤه إلى النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

ونظائر ذلك في النصوص الدينيّة كثير، فلا نطيل، إذ بهذا القدر اتّضحت الفكرة، ورجال الله البواسل هم في الشأن الكبير والمنزلة الرفيعة التي تجعلهم

في رتبة الحواريين وأصحاب الكهف وغيرهم، فالهدف عند الجميع هو الإيثار بالله ورسله والانتصار له مهما كانت الكلفة باهظة الأثمان .

### الضباب يظلل المجاهدين:

الشكل الخامس: تجلّى النصر الإلهي من خلال تسخير الله عز وجل الطبيعة في خدمة المجاهدين، وحمايتهم، وكمثال واحد على ذلك، مع أن الأمثلة كثيرة: الضباب الذي كان يشكل الضمانة الوحيدة للوقاية من الطائرات الاستطلاعية، فبالرغم من وجودها، كان المجاهدون يتحركون ويكمنون ويلتقون. وكان هذا الحدث يتكرر بشكل يومي، مع أن العوامل المناخية في شهري تموز وآب لا تساعد على تكرار مثل هذه الحادثة الربانية.

أقول: وهذه حقيقة قرآنية، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُفِيثُ سَحَابًا يَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

وقد حدّثنا التاريخ الإسلامي عن أحداث ومعاجز عدّة حول السحابة والغيمة. منها: رحلة الرسول محمد ﷺ مع أبي طالب إلى الشام وهو في صباه، وكان الحرّ شديداً جداً، إلا أن الله عز وجل سخر سحابة لتكون حائلاً بينه وبين الشمس والحرّ، وكانت لا تفارقه، ولما لقيا «بحيرا الراهب»، أخبره بنبوته<sup>(١٤)</sup>.

كما ذكر التاريخ أيضاً حادثة أخرى حصلت مع شاب كان يسير إلى جانب راهب، وكان الطقس حاراً، فاتفقا على أن يدعوا الله أن يظللها بغمامة، فدعا الراهب وأمن الشاب لدعائه، واستجاب الله لهما، فأظلتها غمامة، ولما وصلا إلى مفترق طريق افترقا، فسارت الغمامة مع الشاب دون الراهب، فتعجب الراهب من ذلك، ولما سأله عن السبب؟ أخبره حادثة أنه تمكّن يوماً من امرأة أرغمها

على الفاحشة، ولما أراد الزنا بها رآها ترتعش، فلما سألها عن ارتعاشها أجابته: وكيف لا أرتعش، وأنت تتجراً على جبار السموات والأرض بالمعصية، فتركها خوفاً من الله، ولأجل ذلك أكرمني الله بالغمامة<sup>(١٥)</sup>.  
أقول: إذا كان هذا الشاب قد أكرم بالغمامة لِيُظَلِّلَهُ لمجرد خوفه من الله، فكيف برجال باعوا أنفسهم لله وتفانوا في طاعته حتى الشهادة في سبيله؟!

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) النصر المخضب: ٣٢، يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان، إصدار جريدة السفير، ط دار الكتب.
- (٢) المصدر نفسه: ٢٧.
- (٣) محاور استراتيجية ٢: ٣١، شهرية متخصصة بالدراسات الاستراتيجية، إصدار المركز الاستراتيجي للدراسات العربية والدولية.
- (٤) محاور استراتيجية (الحرب السادسة) ١: ١٢.
- (٥) محاور استراتيجية (الحرب السادسة) ٢: ٩٢، نقلاً عن كتاب للأستاذ أنطوان شلحت.
- (٦) انظر: مجموعة فقه المذهب الزيدي، مسند زيد بن علي: ٤٩٢؛ والسيد البروجدي، جامع أحاديث الشيعة: ١٣: ١٤.
- (٧) ماجد ناصر الزبيدي، كرامات الوعد الصادق: ١٦١-١٦٣، ط دار المحجة البيضاء.
- (٨) المصدر السابق: ٢٠٢.
- (٩) المصدر السابق: ١٨٤.
- (١٠) المصدر السابق: ١٨٧.
- (١١) المصدر السابق: ١٨٨.
- (١٢) المصدر السابق: ١٩٢.
- (١٣) المصدر السابق: ١٢٩-١٣٠.
- (١٤) الشيخ المفيد، إيمان أبي طالب: ٣٦، طباعة دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- (١٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٧٠، باب الخوف والرجاء، الحديث: (٨)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.

## الشيعة والسنة وإشكالية الحكم

□ د. أحمد راسم النفيس (\*)

لم يكن بروز إشكالية العلاقة بين الشيعة والسنة وقضيّة الحكم متوقّفاً على سقوط النظام الصّدّامي وتشكيل نظامٍ سياسيٍّ جديدٍ منبثقٍ من نتائج الانتخابات التي جرت في العراق، أيّاً كان رأي البعض في صحّة هذه الانتخابات التي جرت تحت الاحتلال.

إنّها ليست إشكاليّةً واحدة، فهناك العديد من الإشكاليّات، من بينها: مَنْ يمثّل الشيعة والسنة؟ وموقف النظام العربيّ الرسميّ من الديمقراطية والانتخابات (تحت أو فوق الاحتلال)؟ وأخيراً، وليس آخرّاً، الموقف من أمريكا وإسرائيل.

يعرف الجميع أنّ إيران الشاه، صديقة أمريكا وإسرائيل، كانت حليفاً وثيقاً لأغلب النظم العربيّة، باستثناء النظام الناصريّ، ولم يكن هناك من يتحدّث عن تشيّعها كما يجري الآن.

وهناك إشكاليّة متعلّقة بالوضع العراقيّ المعاصر، تتمثّل في حالة الاهتمام

(\*) كاتب وباحث في الفكر الدّيني والسياسي / مصر.

المفاجئ بتفاصيل ما يجري في هذا البلد، رغم أنّ أحداً لم يكن ليهتمّ بما يجري من مجازر وتصفياتٍ وصَلّت لحدّ استخدام الأسلحة الكيماويّة ضدّ الأكراد، وعمليات التهجير الجماعيّ التي تعرضت لها قطاعاتٌ واسعةٌ من العراقيين، كما أنّنا لم نسمع بأيّة تغطيةٍ صحفيةٍ مباشرةٍ لهذه الأحداث المؤسفة خارج وجهة النظر الرسميّة لنظام البعث الذي حكم هذا البلد بالحديد والنار منذ ستّينات القرن الماضي.

نُلفت انتباه هؤلاء السادة أيضاً: أنّ مآسي العراق لم تبدأ عشية التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣، وأنّ قرارات مجلس الأمن التي كَبَلت العراق ورَسَمَت مصيره السياسي صدرت تحت لائحة (الحالة القائمة بين العراق والكويت)، ومن بينها القرار ١٤٥٤ الصادر في ديسمبر ٢٠٠٢، والقرار ١٥٤٦ الصادر في يونية ٢٠٠٤.

وهناك أيضاً: حالة استسهال إلقاء الكلام على عواهنه عند الحديث عن الوضع في هذا البلد المنكوب منذ عشرات السنين، وتجاهل التقارير التي أصدرتها المنظّمات الدوليّة، مثل: (منظّمة مراقبة حقوق الإنسان) و(مجموعة الأزمات الدوليّة)، التي قاربت الوضع في هذا البلد مقارنةً بعيدةً عن حالة التهيج المذهبيّ التي أصبحت عادةً وعبادةً يمارسها البعض من دون خجلٍ ولا ورعٍ ولا حياء.

وأخيراً تبرز إشكاليّة: من يمثل أهل السنّة ويتحدّث باسمهم؟ بعد سقوط الخلافة العثمانيّة وبروز التيار الوهابيّ الذي يتصرّف باعتباره الممثل الشرعيّ والوحيد لأهل السنّة، بل وللإسلام والمسلمين، ويسعى لإقصاء المعتدلين والانفراد بالقرار.

سلطة المذهب ومذهب السلطة

يتعين على الباحث في ملفّ النزاع المذهبيّ أن يحدّد رؤيته لطبيعة ونشأة هذا النزاع:

هل هو نزاعٌ فكريّ عقائديّ قاد إلى صراعٍ سياسيٍّ أم العكس؟! هل انقسم المسلمون في البداية إلى فريقٍ سنّيٍّ وآخرٍ شيعيّ، وبدأ كلّ منهما في محاولة تعزيز موقعه عبر شنّ الحرب على الطرف المقابل؟ أم أنّهم انقسموا في البداية انقساماً ذا شكلٍ سياسيٍّ، ثمّ بدأ بعض الأفرقاء في تبرير موقفه وصوغه مذهبياً، بحيث يمكن توظيف هذه الصياغات والشعارات لخدمة موقفه السياسيّ؟!؟!!

هل انطلقت (ثورة يوليو) من المبادئ الستّة؟ أم أنّها كانت حركةً عسكريّةً انقلبت فحكمت وبطشت، ثمّ بحثت لها عن نظريّة، فكانت المبادئ الستّة والميثاق ثمّ الاشتراكيّة؟!!

في رأينا، ومن خلال قراءتنا للتاريخ، يمكننا القول: إنّ الثاني هو الصحيح. فالفريق السنّيّ (إن صحّ كونه فريقاً واحداً) مرّ بأدوارٍ وأطوارٍ فكريّةٍ وفقهيّةٍ يُناقض بعضها بعضاً.

الرؤية الفقهيّة الأمويّة اعتمدت نظريّة (الإمامة في قريش) دعماً لشرعيّتها ووجودها، ثمّ جاء العبّاسيّون يرفعون شعار الإمامة في بني هاشم، ثمّ جاء الأتراك العثمانيّون يبحثون عن شرعيّة، فوجدوها في المذهب الحنفيّ الذي يبيّز إمامة غير القرشيّ.

وبين هذه الأطوار والأدوار: حَكَم العبيد المماليك وتحكّموا، من دون أن يكلّفوا أنفسهم مؤونة البحث عن هكذا شرعيّة، إلّا أنّهم لم يمانعوا أن يضمّوا إلى دولتهم (خليفةً عبّاسياً تائهاً) ويجعلوا من القاهرة عاصمةً لهذا الخليفة مشكوك النسب.

المبدأ الأهمّ في الشرعيّة السياسيّة في الدنيا بأسرها هو مبدأ الاختيار القائم



على المفاضلة بين مرشح أو أكثر، وهو مبدأ قديم قدم التاريخ الإنساني، إلا أن (المسلمين) لم يعترفوا أصلاً بمبدأ المفاضلة، وشرعنوا مبدأ القهر والغلبة كأمر واقع لا يمكن دفعه، وجعلوه طريقاً ثابتاً ومُوصلاً لسلطة قائمة على الشرع والدين، فصار القهر والظلم ديناً، وصار الدين ظمناً وقهراً!!.

الشرعية السياسية (الإسلامية) قامت على مبدأ (أمير المؤمنين هذا، أي: معاوية، فإن هلك، فهذا، أي: يزيد، وأشار إليه بسيفه، ومن أبي، فهذا) ورفع سيفه فوق الرؤوس، والآن فوق الصناديق!!

ولكي تكتمل الصورة وفقاً لرؤية هؤلاء، جرى تثبيت مبدأ غير مكتوب، لكنه أقوى من الدستور الإنجليزي، ألا وهو إقصاء كل من ينتمي لأهل البيت (عليه السلام) برابطة الدم والنسب، أو برابطة الولاء، وهو ما يُعرف بالتشيع، من حق نيل السلطة بأي من الوسائل المشار إليها آنفاً، وأضيف إليها الآن، ولو بالانتخابات!!

إنه قانون الغلبة والإقصاء...

الغلبة بالسيف لمن لم يرخص بالوعد، ولم يرتدع بالوعيد..

والإقصاء الدائم لمن توافرت فيهم الشروط المشار إليها آنفاً.

طبعاً، لا يعني هذا: أنه لم يكن هناك استثناءات أو خرق لهذا القانون.

أحد الاستثناءات المعاصرة هي: الحالة اللبنانية، التي قامت على مبدأ التقاسم الطائفي، الذي أعطى الشيعة حصّة مساوية من ناحية الكم، وليس الكيف، للسنة.

ولكن (الفضل) في هذا، يرجع لخالتي فرنسا!!

حالة استثنائية معاكسة، هي: الحالة العراقية، والتي ضمنت للسنة حصّة ثابتة من السلطة، وفقاً لاتفاق غير مكتوب، وهو ما أسست له (أمنا) أمريكا، برضا وموافقة النظام العربي الرسمي.

في التاريخ، نجد حالتين:

الأولى: هي الحالة الإيرانية، أو الدولة الصفوية، التي تبنّى مؤسسها منذ البدء المذهب الشيعي الإمامي، ونجح في إقامة دولته وحمايتها من محاولات الاقتلاع العثمانيّة.

ولكن لا يعرف، فإنّ الصفويين هم من الأتراك، وليسوا من الفرس، أي: أنّ الصراع الصفوي العثماني كان صراعاً تركياً تركياً، لا ناقة للعرب فيه ولا جمل!! كانت فاتحة حروب العثمانيين ضدّ الصفويين هي الغزوة التي شنّها السلطان سليم خان بعد انقلابه على أبيه السلطان بايزيد.

ولإيجاد مبرر للحرب، أمر سليم بحصر الشيعة الأتراك، ثمّ قام بإبادة أكثر من أربعين ألفاً منهم، وهي المذبحة التي شبّهها محمد فريد - في كتابه عن الدولة العثمانيّة - بالمذبحة التي تعرّض لها البروتستانت في باريس يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢، المشهورة بمذبحة سانت برتليمي<sup>(١)</sup>.

يقول الدكتور محمد عبد اللطيف عوض: لقد وصل خطر الزحف الشيعي في شرق الأناضول حدّاً لا يمكن السكوت عليه، حيث وصلت التقارير إلى سليم خان التي تقول: (إنّ المبتدعين من الصوفيّة والشيعة قد استفحل أمرهم وزاد عددهم). لاحظ!!

وما إنّ تولّى السلطان سليم الحكم حتّى بدأ تعبئة قوّاته للحرب ضدّ الشاه إسماعيل الصفوي، وكان للتعبئة المعنويّة أهميّة كبرى؛ إذ إنّ إعلان هذه الحرب لم يكن مقبولاً لدى كثيرٍ من الأتراك، حيث عارضها الكثير منهم.

انبرى علماء الدولة العثمانيّة للدفاع عن السنّة وتوضيح منهجها وكشف أباطيل غلاة الشيعة ومروقهم عن الإسلام، فكتب ابن كمال باشا رسالة أورد فيها رأيه مدعماً بالأدلة، وقرّر أنّ التشيع مخالفةٌ صريحةٌ لجماعة المسلمين، وأنّ قتال الشيعة جهادٌ وحرّهم غزوة.

كان من الضروري أن يقوم السلطان بحملة تطهير واسعة قبل أن يمضي للقتال، حتّى لا يُطعن في الظّهر، واستصدر فتوىً بوجوب قتال الشاه إسماعيل، كدأب العثمانيين قبل الخروج إلى أية حرب.

وفي أثناء الحرب، تمرد بعض الجنود الأتراك، فخطب فيهم سليم خان، مذكراً إياهم أنّهم إنّما جاؤوا لقتال المرتدين عن الدين حتّى يفيئوا إلى أمر الله، فمن تخاذل أو ارتدّ، فهو في حكم المرتد أيضاً.

التقى الجمعان في وادي جالديران شمال شرقيّ آذربيجان في رجب سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م وهزم الجيش الصفويّ هزيمةً قاسيةً<sup>(٢)</sup>.

ولأنّ التاريخ يعيد نفسه، فلا بأس أن ننوّه إلى أنّ وجود الشيعة في تلك المناطق التركمانية كان أقدم من وجود الدولة الصفويّة، حيث كان (هناك عددٌ من القبائل التركمانية الشيعة والواعدة بالتشيّع)<sup>(٣)</sup>.

ما إن فرغ سليم خان من حربه الأولى مع الشاه إسماعيل، حتّى قام بغزو مصر، كما هو معلوم، وهي ملاحظةٌ قد تكون مفيدةً لأولئك الذين يطّبلون ويزمرون ضدّ (التبشير الشيعي) الآن، متجاهلين أنّ السلطة هي السلطة، وأنّ الراغبين في الغزو والتوسّع يفعلون هذا لا من أجل دينٍ أو مذهب، بل من أجل الاستيلاء على كلّ ما يمكن لهم الاستيلاء عليه.

يقول الكاتب عبد اللطيف هريدي:

«أطلّت الفتن الباطنية برأسها والجيوش العثمانية في خنادقها في وادي موهاج بالمجر في شهر ذي القعدة من عام ٩٣٣ هـ، وقد بدأت الفتنة بواقعة عادية؛ إذ تقدّم شخصان بشكوى إلى قاضي السنجق، فلم يُحسن القاضي استقباليهما، وأساء إلى أحدهما (!؟)، فاكفهر الجوّ، وخرج رجلٌ شيعيٌّ يُعرَف بـ «ذي النون»، فرفع يده، وإذا بحشود ضخمة تتحلّق حوله، وخرجت جماعات العلويين من كلّ مكان لتعلن تمردها على الوالي، ومن الواضح: أنّ النية كانت مبيتة لإثارة الفتنة؛

لأنَّ الشاكِئِينَ، وكما يبدو من اسميهما، كانا من الشيعة، كما كانت هناك فتنٌ أُخرى في أماكن متفرقةٍ غطَّت جنوب شرق الأناضول، ولم تتمكَّن الحكومة من إخماد هذه الفتن إلا بشقِّ الأنفس. كما كانت هناك الفتنة التي أشعلها الشيخ البكتاشي العلويّ اسكندر قلندر جلبي، والتفَّ حوله ما يربو على ثلاثين ألف علويٍّ. وكأيٍّ من الفتن، كان لها عواملٌ داخلية، إلا أنَّ التوقيت واتِّفاق كلِّ هذه الزعامات العلوية في وقتٍ واحدٍ يُلقي بظلالٍ صفويةٍ على هذه الأحداث»<sup>(٤)</sup>.

من الطبيعيّ، أن يرى هذا الصنف من الكتّبة، الذين تربّوا على ثقافة عبادة السلطة في كلِّ ثورةٍ أو تمردٍ داخليٍّ على الظلم والقهر، مؤامرةً خارجيّةً صفويّةً، وما أشبه اللّيلة بالبارحة.

أمّا الدليل الأكبر على التآمر الصفويّ الإيراني!! هو أنَّ الشاكِئِينَ، وكما يبدو من اسميهما، كانا من الشيعة!! وكفى بذلك دليلاً وبرهاناً على وجود هذه المؤامرة!!

مات سليم خان يوم ٩ شوال سنة ٩٢٦هـ، ٢٢ سبتمبر ١٥٢٠م في السنة التاسعة من حكمه، والحادية والخمسين من عمره، وكانت مدّة حكمه أيام فتوحاتٍ خارجيّةٍ وتنظيماتٍ داخليةٍ، إلاَّ أنّه كان ميّالاً لسفك الدماء، فقتل سبعةً من وزرائه لأوهى الأسباب، وكان كلُّ وزير مهدّداً بالقتل لأقلِّ هفوةٍ، حتّى صار يُدعى على من يُرام موته بأن يُصبح وزيراً له<sup>(٥)</sup>.

### سليمان خان الأوّل القانونيّ

حكّم سليمان خان الدولة العثمانية لمدة ٦٤ سنةً، ومات عن عُمرٍ يناهز الرابعة والسبعين.

لم يكن لسلطين بني عثمان من همّةٍ إلاَّ الغزو والقتل، حيث قام سليمان الإرهابيّ اللاّقانونيّ بغزو إيران واحتلال تبريز سنة ١٥٣٣م، ثم تحرّك منها

ليحتلّ بغداد سنة ١٥٣٤م، والهدف هو الهيمنة واستعراض القوّة وقتل الشيعة المرتدّين، وهي الحروب التي دامت لعدّة قرون كراً وقرّاً بين العثمانيّين والصفويّين، ويكفي أن ننوّه إلى واقعة الاتفاق بين الأتراك والروس على تقاسم بلاد فارس سنة ١٧٢٤م.

فعندما تولّى داماد إبراهيم باشا منصب الصدر الأعظم سنة ١٧١٨، أراد أن يستعير عَمّا فقدته الدولة من ولايات بفتح بلاد جديدة في آسيا، وقد أُتيحت له الفرصة بسبب الاضطرابات الداخليّة ببلاد العجم وتقدّم القوات الروسيّة لاحتلال طاجيكستان وكافة سواحل بحر الخزر الغربيّة، في حين تقدّم هو لاحتلال أرمينيا وبلاد الكرج، وكادت الحرب تشتعل بين الترك والروس، فاتفق الطرفان على أن يتملّك كلّ طرفٍ منهما ما احتلّه من البلاد، وأُبرمت معاهدة بين الطرفين بذلك في يونيو سنة ١٧٢٤.

لم يقبل الفرس بذلك، وأعلنوا المقاومة، ولكنهم كانوا في حالة ضعف، فلم يتمكنوا من إجلاء المحتلّين الأتراك والروس إلى عام ١٧٢٧، حيث طلب الشاه طهمااسب من العثمانيّين استعادة ما احتلّ من بلاده<sup>(٦)</sup>.

### العثمانيّون وإحراق الشيعة بالنار

يروي ابن العماد الحنبليّ في كتابه (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) في أخبار سنة ٩٤٤هـ ١٥٣٨م:

«وفيها قُتل القاضي شمس الدين محمّد بن يوسف الدمشقيّ الحنفيّ الذي ناب في القضاء عن قاضي القضاة ابن الشحنة وعن قاضي القضاة يونس بدمشق، ثمّ ثبت عليه وعلى رجلٍ يُقال له: حسين البقسماطي، عند قاضي دمشق، أنّهما رافضيّان، فحرقا تحت قلعة دمشق، بعد أن رُبطت رقابهما وأيديهما وأرجلهما في أوتاد، وأُلقي عليهما القنب والبواري والخطب، ثمّ أُطلقت النار

عليهما حتّى صارا رماداً، ثمّ أُلقي رمادهما في بردى، وكان ذلك يوم الثلاثاء تاسع رجب، قال ابن طولون: وسُئِلَ الشيخ قطب الدين بن سلطان مفتي الحنفية عن قتلها، فقال: لا يجوز في الشرع، بل يُستتابان!!<sup>(٧)</sup>.

### الاستثناء الثاني: الحالة المصريّة

الحديث عن الدولة الفاطمية حديثٌ يُثير الشجون والأحزان، فمصر التي كانت في العصر الفاطميّ دولةً عظمتُ صاحبة حضارةٍ ويُحسب لها ألف حساب، تحوّلت بفضل الأيوبيين إلى خرابيةٍ ومباعةٍ يحكمها العبيد المماليك الذين وصفهم المقرئزيّ بقوله:

«وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسّهم قدراً، وأشحّهم نفساً، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضاً عن الدين، ما فيهم إلّا من هو أزنّى من قرد، وألصّ من فأرة، وأفسد من ذئب، لا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصبّ النيل إلى مجرى الفرات بسوء إباله الحكّام، وشدة عبث الولاة، وسوء تصرّف أولي الأمر، حتّى أنّه ما من شهرٍ إلّا ويظهر من الخلل العامّ ما لا يُتدارك فرطه».

لم يتوان العبّاسيون عن شنّ الحروب المتواصلة من أجل القضاء على الدولة الفاطمية من دون ذنبٍ ارتكبه الفاطميّون إلّا انتهاؤهم لمدرسة أهل البيت، وكان آخر ما اقترفته أياديهم الآثمة هو: انقلاب يوسف بن أيّوب، المسمّى بصلاح الدين، والذي لم يكتفِ بتغيير النظام السياسيّ، وإنّما قام بتخريب وتدمير كلّ ما أنجزته هذه الدولة، وما قدّمته من عطاءٍ حضاريٍّ لمصر والعالم.

### الآثار الكارثيّة لهذه الحروب

يتباهى أصحاب العقل الطائفيّ المشوّه بالانتصار الذي حقّقه السيد صلاح

على الفاطميين، وأنه كان نجماً بارزاً من نجوم الإبادة المذهبية والحضارية. فات القوم الذين لم يعتادوا قراءة التاريخ قراءةً طويلةً (قراءة الحدث وتداعياته)، أن القضاء على الدولة الفاطمية جرّ وراءه سلسلةً من التداعيات الكارثية التي تركت بصماتها على تاريخ المسلمين من يومها وصولاً إلى الواقع المعاصر.

سقطت الدولة الفاطمية عام ٥٦٨هـ تحت تأثير الهجوم العباسي الصليبي المزروح، ثم جاء الاجتياح التتري لبغداد سنة ٦٥٦هـ، أي: بعد أقل من مائة عام ليُدفع المسلمون ثمن تواطؤ هؤلاء مع الصليبية العالمية، وهكذا تواصل واستمرّ التعثر الإسلامي، وصولاً إلى وقوع هذا العالم الآن، بصورةٍ شبه كاملة، تحت الهيمنة الغربية التي تقول للعربي: كن فيكون، هُنْ فيهون!! ولكنّها لا تقدر على إقناع الصهاينة بوقف التهام أرض المسلمين.

### الحالة العراقية

وأخيراً وليس آخراً، تأتي الحالة العراقية، وهي حالةٌ فريدةٌ ومتميّزةٌ عن التجربتين الفاطمية والصفوية، من حيث إنّ التشيع العراقي لم يأت أو يُدعم بقرارٍ سياسيٍّ كما قد يدّعي البعض في الحالتين السابقتين. الحالة الوحيدة التي استلم فيها فريقٌ شيعيُّ السلطة في بغداد، تمثّلت في الحقبة البويهية، ومن المعلوم: أنّ البويهيين تركوا الأمور على ما هي عليه، ولم يفرضوا مذهبهم، بل بقي منصب الإفتاء والقضاء بيد السنّيين، ولا يمكن الزعم بأنهم مهّدوا أو فتحوا طريقاً كان مُغلَقاً أمام نشر التشيع. يزعم البعض، على خلاف الحقيقة، أنّ الصفويين والفاطميين هم من فرّض التشيع على الإيرانيين والمصريين، وكان أن ذاب التشيع كما يذوب الملح في الماء، ما إن أُقصيَ الفاطميون عن السلطة، وهو قولٌ بلا دليل.

التشيّع العراقيّ لم يُدعم من أيّة سلطة، بل العكس هو الصحيح، ويكفي أن نسجّل أنّ النظام الصّدّاميّ قد فعل أقصى ما يُمكن لمحو التشيّع من العراق، فلم يُفلح في تحقيق هذا الهدف.

عندما جاء العثمانيّون، ومن بعدهم البريطانيّون، واصلوا سياسة إقصاء الشيعة، ومن بعدهم الدولة المملكيّة، ثمّ النظام الصّدّاميّ الذي زاد وفاض في هذه السياسة الإقصائيّة، وصولاً إلى الحالة الراهنة التي هي ثمرة هذه السياسة الإقصائيّة المزمّنة.

حكّم الأتراك العثمانيّون العراق منذ العام ١٥٣٢ حتّى العام ١٩١٨م، وتميّزت هذه الفترة بنشوب الحروب بين العثمانيّين والصفويّين الذين حكّموا العراق عدّة مرات، بدءاً من ١٥٠٨م، عندما دخل إسماعيل شاه مدينة بغداد على رأس جنوده التركمان، ثمّ اندحر الصفويّون بقيادة اسماعيل من قبل السلطان سليم الأوّل بعد معركة جالديران عام ١٥١٤، ثمّ استعاد الشاه طهماسب الأوّل، ابن اسماعيل، بغداد في ١٥٢٩ وفي عام ١٥٣٣ شنّ السلطان العثمانيّ سليمان الأوّل ابن سليم حملة، واستولى على بغداد من الحاكم الصفويّ محمّد سلطان خان، ثمّ أصبحت المدينة ضمن الإمبراطوريّة العثمانيّة عدا فترة قصيرة حيث أعاد الصفويّون احتلالها من ١٦٢٣ إلى ١٦٣٨م.

أنهت معاهدة قصر شيرين (وتسمّى أيضاً: معاهدة زوهاب) لسنة ١٦٣٩ حرباً استمرّت ١٥٠ عاماً بين العثمانيّين والصفويّين، ورسمت حدوداً بين الإمبراطوريتين، بقيت عمليّاً دون تغييرٍ إلى العهد الحديث.

ورثت الدولة العراقيّة الحديثة إرثاً ثقيلاً بسبب ذلك الصراع الدامي الذي استمرّ قرابة ١٥٠ عاماً، من بينه: قانون الجنسيّة العراقيّ الصادر في العام ١٩٢٤، الذي منح الجنسيّة العراقيّة حصراً لكلّ من كان عام ١٩٢٤ من الجنسيّة العثمانيّة، وساكناً في العراق عادةً فيُعَدّ حائزاً للجنسيّة العراقيّة ابتداءً من



التاريخ المذكور، في حين استثنى هذا القانون أصحاب التبعية الصفوية. ولا شك أنّ هذه المادة تعدّ نموذجاً للتمييز الطائفي بين أبناء البلد الواحد، على أساس الموقف السياسي والمذهبي، حيث استغلها سيئ الذكر صدام حسين أداة من أجل تنفيذ التهجير القسري لمئات الآلاف من شيعة العراق من العرب الأقحاح.

الآن، يقف النظام العربي الرسمي (المؤتمن على دستور السلطة غير المكتوب)، المُشار إليه في بداية هذا البحث، في حالة حيرةٍ وتخبُّط، لا يعرف على وجه الدقة ما يتعيّن عليه فعله.

يتباكى القوم على تصريحٍ منسوب إلى الراحل عبد العزيز الحكيم عن حقّ إيران في الحصول على تعويضات حرب الخليج الأولى، وهو تصريحٌ لم يجر تحويله إلى مطالبةٍ أو قانونٍ يستنه البرلمان العراقي ويصمتون صمت القبور على اقتطاع الكويت لنسبة ٥٪ من عائدات النفط العراقي منذ أكثر من سبعة عشر عاماً حتّى الآن، رغم أنّ النظام الكويتي كان شريكاً كاملاً للنظام الصدامي البائد في مغامراته الفاشلة!!

يطلع علينا من يقول: إنّ إيران هي من قام بتفجير مرآقد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في سامراء، وهو زعمٌ أسوأ من الزعم القائل بأنّ جورج بوش هو من قام بتفجير أبراج مناهاتن!!

فات القوم أنّ التاريخ الوهابي حافلٌ بعمليات الإغارة والهدم لمرآقد أئمة أهل البيت في مكّة والمدينة وكربلاء، بل وفي القاهرة!!

في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) يقول الأمير شكيب أرسلان ولوثردوب استودارت:

«قام الوهابيون بغزو مدينة كربلاء فذبحوا قسماً من أهلها ونهبوا المشهد الحسيني وحازوا كلّ ما فيه من تحفٍ ونفائس تأتي إليه من زوّار العجم، ولم يُثقل

ذلك على ضيائهم؛ لأنهم ينظرون إلى كل من يعظم القبور نظرهم إلى الكافر. وحدثت فتنة بين الشريف غالب وأخيه عبد المعين بسبب النزاع على إمارة مكة، فتغلب غالب على أخيه، واستعان عبد المعين بابن سعود، فزحف إلى الحجاز، وهزم الشريف غالب، واجتاح الطائف، وتقدم إلى مكة فدخلها وهدم أضرحة الأولياء ورفع التحف والنفائس التي كانت مودعة في الحرم الشريف، ثم أعادوا الكرة مرة أخرى، فعادوا إلى الحجاز عام ١٨٠٥، ودخلوا الحرمين وهدموا قبور الأولياء ونهبوا ما في الحرم الشريف من الجواهر والتحف، وباعوها بالمزاد العلني، وأذابوا قناديل الفضة والشمعدانات والآنية الفضية كلها، ووزعوا أثمانها على حامية المدينة، ثم توجهوا صوب مشهد الإمام علي عليه السلام في العراق، وكبسوه بيئات، فأحس بهم الخفراء، فأيقظوا أهل البلد، فثاروا بهم ودفعوهم عنهم، وامتد الصرخ إلى الأعراب الذين حول النجف، فجدوا في أثر الوهابيين، فكسروهم وانقلبوا صوب الساوة، وكان الأمير سعود بن عبد العزيز رجلاً ماهراً في السياسة، فرأى أنه ما دام مقاوماً للسلطة العثمانية، فلا بد أن يصابي أعداءها، فتودد إلى شركة الهند الإنجليزية وإلى العجم وأمر جماعته بالحفاظ على قافلة الحج الفارسي.

الذين قاموا بتفجير ضريح الإمامين العسكريين في سامراء لم يأتوا بجديد لم يسبقه إليه أسلافهم الوهابيون والعباسيون والفارق بين هؤلاء وهؤلاء: أن أجهزة المخابرات المعاصرة قد اخترقت الحجب وطوت الأزمنة والمسافات<sup>(٨)</sup>!! لو كانت إيران ضالعة في تفجير مرقد العسكريين، فهي أيضاً ضالعة في تفجير ضريح الإمام الرضا عليه السلام في مشهد عام ١٩٩٤، والذي تشير بعض الدلائل إلى مشاركة الزرقاوي ورمزي يوسف في هذا العمل الإجرامي<sup>(٩)</sup>!! أما عن (التعويضات المطلوبة لإيران) عن الحرب التي شنها صدام حسين عام ١٩٨٠ عليها فالقوم يتجاهلون أن الكويت والسعودية يرفضان إسقاط

ديون العراق (ثمن السلاح الذي اشتراه صدام حسين لشنّ الحرب على إيران) ويُصرّان على عدم إخراج العراق من طائلة البند السابع.

### إيران دولة حامية للشيعة؟!

يتجاهل الذين يُولّون على تنامي الدور والنفوذ الإيراني في العراق أنّ هذا البلد كان واحداً من البلدان القلائل التي استضافت اللاجئيين العراقيين الفارين من جحيم النظام الصدامي، وأنّ النسبة الأكبر من هؤلاء كانت محطّتهم الأولى هي إيران.

في بلدانٍ أخرى، وفي أعقاب انتصار الثورة الإيرانية، لم تجد الأجهزة الأمنية وسيلةً لمحاربة إيران أفضل من إلقاء القبض على بعض المواطنين البسطاء، واتّهامهم بالتشيع وتلقّي الدعم من إيران، أخيراً، وربّما ليس آخراً، فعندما اهتزّت صورة بعض الأنظمة العربيّة جرّاء تعاطيها السيئ مع الحرب الإسرائيليّة على غزّة، والخرج الذي وقعت فيه، من وسيلةٍ لمحاكمة حزب الله وإيران إلّا إلقاء القبض على بعض مواطنيها الشيعة واتّهامهم باعترافهم بمذهبٍ منحرفٍ عن صحيح الدين، وهو ما جرى في الشهور التي تلت أبريل ٢٠٠٩.

السؤال هو:

هل حقّاً تحرّص هذه النظم على إبقاء مواطنيها في دائرة الانتماء للوطن؟ أم أنّها لا ترى فيهم إلّا أحجاراً مُلقاةً على الأرض يحقّ لها استخدامهم في المضايقات والمماحكات المتبادلة وتكسير زجاج الآخرين وقتها وأينما شاء (أولياء أمورنا)!!

لو كان القوم يحرصون حقّاً على عروبة العراق، لما شاركوا في التكيل بهذا الشعب كما حدث في الانتفاضة الشعبانيّة (مارس ١٩٩١م)؛ ولمنحوا المضطهدين منهم حقّ اللّجوء السياسيّ أثناء الحقبة الصداميّة.

## البعد المذهبيّ في المسألة العراقية Psycho-politics

بذل كثير من علماء الدين من السنّة والشيعة على مدى العقود الماضية جهوداً للتقريب بين (السنّة والشيعة)، إلّا أنّ شيئاً من هذه الجهود لم يؤت ثماره المباشرة على الساحة السياسيّة.

قبل بضعة أعوام، وفي أعقاب انتهاء العدوان الإسرائيليّ على لبنان، شنّ أحد الشيوخ حملةً ضاريةً على ما أسماه بالتبشير الشيعيّ، محدّراً حزب الله (الذي كان ما يزال يللم أشلاء قتلاه ويقوم بترميم البيوت المدمّرة) من استغلال انتصاره لتشيع السنّة!!

لم يكن قد مرّ وقتها على وقف إطلاق النار أسبوعان، بينما كان الشيخ يصرخ ويستصرخ واستّاه وإسلاماه!! هلاً انتظر الشيخ إلى ما بعد أربعينيّة الشهداء ليُطلق صراخه المدوّي؟!!

لم يكتفِ الشيخ بهذا، بل واصل مهمّته وصولاً إلى الزعم بأنّ الشيخ الراحل محمود شلتوت لم يُفِت بجواز التعبّد على المذهب الإماميّ.

في هذا الإطار، يمكننا تناول ملفّ الخلاف السياسيّ المذهبيّ رسداً وتحليلاً. كيف ومتى يمكن لحزبٍ أو لمنظّمة مثل حزب الله، خرّجت تواءً من حربٍ ضروس، أن تضع وتنفّذ خططاً لتشيع أهل مصر و(فتنتهم) عن مذهب (آبائهم الأولين؟!!) خلال أسبوعين لا أكثر؟! هلا تريث الشيخ أسبوعين أو سنتين إضافيتين قبل أن يُطلق هذا الصراخ المدوّي لعلّه يكتسب مصداقيّة واقعيّة؟!!

القضيّة - إذاً - تتعلّق بما يمكن أن نسمّيه psychopolitics أو اعتماد سياسة تقوم على مزج العقائد والأفكار بالحالة النفسيّة حيث من حقّ الشيخ أو السياسيّ أن يقرّر مصير البلاد والعباد وفقاً لمزاجه وهواه النفسيّ، وأن يُطلق العنان لغضبه، ولا مكان لما يسمّيه البعض بحريّة الاعتقاد...و..و..

المصطلح السابق جرت صياغته على غرار مصطلح psychosomatic، وهو ما يشير إلى المشاكل الجسائية الناجمة عن الاضطرابات النفسية، فالعنصر النفسي هو الأصل، والعرض الجسماني هو الفرع، وفي حالة العلاقة السنية الشيعية فالمشكلة ترتبط بمدى قدرة البعض النفسية على قبول الآخر، وليس بمفردات الخلاف الفقهيّة أو حتى الواقعيّة.

المشكلة لا تتعلّق بأحد النّاس، بل بالمزاج النفسي لأهل السلطة والثروة الذين يعتقدون أنّهم أصحاب حقّ إلهي في فرض خياراتهم الدينيّة والدينيّة على النّاس.

عشرات الآلاف من البشر راحوا ضحايا تلك الهيستيريا التي كانت تفتش عن ذريعة للقتل، حتّى ولو كانت هذه الذريعة هي إصرار الشيعة على التلفّظ بـ (حيّ على خير العمل) ضمن الأذان!!

لا أعتقد أنّ الكثير من أهل السياسة يعرفون حقائق الخلاف السنيّ الشيعيّ، أو هم معنيّون بهذا من الأساس، فما بالكَ بعد أن دخل جورج بوش وكوندوليزا ومارتن إنديك على خطّ النقاش الذي أراد البعض تحويله إلى مستنقعٍ دائم، لا لشيءٍ إلّا لأنّهم عاجزون عن ضبط عواطفهم وانفعالاتهم، أو لأنّ البعض الآخر قد تقمّص شخصية سليم خان وجنكيز خان وصدّام حسين!!

إنّها الفتنة النائمة التي تبحث عمّن يُوقظها، ولعن الله من أيقظها، وحرّض عليها من دون أن يُقدّم للناس دليلاً واحداً على خطرٍ حقيقيّ يهدّدهم. هنا تبدأ فصول المأساة المعاصرة.

لقد استنفد المسلمون أغلب رصيد قوّتهم في صراعاتٍ لم يكن لها من سببٍ أو محرّكٍ إلّا المزاج النفسي لأهل السلطة، الذين رفعوا شعار: (أنا أكره كذا وكذا، إذاً أنا موجود)!!

يُضاف إلى ذلك: أنّ العرب، على وجه الخصوص، قد بدّدوا ما تبقى لهم من رصيدٍ خلال الأعوام الثلاثين الماضية، حيث خاضوا خلال هذه الأعوام عدّة حروبٍ فاشلةٍ أَفْضَتْ إلى حالة فراغٍ في القوّة تبدو الآن واضحةً من خلال حالة التخبّط والارتباك التي يُعاني منها العرب في كلّ الساحات، من الشمال في الشام، إلى الجنوب في اليمن، (لا طالوا غسل اليمن ولا بلح الشام)!! يُعطى مَنْ يتصوّر أنّ التاريخ يُمكن له أن يُعيد ويكرّر نفسه دواليك دواليك؛ لأنّ هذا وهمٌ كبير. يُمكن للتاريخ أن يُعيد نفسه مرّةً أو مرّتين، ولكنّ الشيء المؤكّد: أنّ حركة التاريخ تسير في خطّ تصاعديّ، ومن المحتمّ: أن يأتي زمانٌ تُضيق فيه الفرصة نهائيّاً مَنْ أدمنوا التضييع والضياع.

من وجهة نظرنا، فإنّ قرار تفجير الصراع المذهبيّ في العراق بعد سقوط نظام صدام حسين، ومحاولة الوصول به إلى نقطة اللاعودة، لم يكن قراراً اتّخذته ما يُسمّى بالقاعدة، أو المجموعات الجهاديّة، والدليل القاطع على ذلك هو: تفجير ضريح العسكريين، وهو قرارٌ لا يمكن اتّخاذه بعيداً عن مراكز طبخ القرار في المنطقة، وأهمّها، بكلّ تأكيد، مركز القرار الصهيونيّ الأمريكيّ. في اعتقادنا: إنّ قرار تفجير مرقد سامراء ربّما كان يهدف للتغطية على قرار هدم المسجد الأقصى، وهو قرارٌ قد اتّخذ بالفعل، ولكنّه يبحث عن التوقيت الملائم لتنفيذه، ولن يكون هناك توقيتٌ أفضل من حربٍ طائفيةٍ سنيّةٍ شيعيّةٍ تلتهم المنطقة بأسرها.

لاحظ: أنّ جريمة التفجير الأولى حدثت في فبراير ٢٠٠٦، في حين وقع التفجير الثاني في يونيو ٢٠٠٧ (بعد عامٍ من حرب يوليو ٢٠٠٦).

الخلاصة: هل يمكن للعرب والمسلمين أن يُخرجوا من حفرة (الصراع المذهبيّ) التي سقطوا فيها بمحض إرادتهم؟! الجواب: إنّ هذا ممكنٌ وسهلٌ للغاية، كما أنّه، بكلّ تأكيد، أرخص ثمنًا وأقلّ

كلفةً من الإصرار على السير في طريق المواجهة والصراع بين المسلمين، شريطة أن يعملوا بالنصائح التالية:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

«اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاتَّكِرْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قُلْ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ». علي بن أبي طالب عليه السلام<sup>(١٠)</sup>.

\* \* \*

## الهوامش:

- (١) محمد فريد، تاريخ الدولة العثمانية: ١٨٩.
- (٢) انظر: محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا: ٤٥-٥٣، رابطة الجامعات الإسلامية.
- (٣) المصدر السابق: ٤٥.
- (٤) المصدر السابق: ٦١-٦٣.
- (٥) محمد فريد، تاريخ الدولة العثمانية: ١٩٧.
- (٦) المصدر السابق: ٣١٧-٣١٨.
- (٧) نقله عنه: الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة ٥: ٤٦٣، ط دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- (٨) قام المتوكل العباسي بحرق ضريح الإمام الحسين وإغراقه بالماء، ونكّل بكلّ من يقوم بزيارته.
- (٩) انظر:
- [http://www.metransparent.com/spip.php?page=article&id\\_article=1161&var\\_lang=ar&lang=ar](http://www.metransparent.com/spip.php?page=article&id_article=1161&var_lang=ar&lang=ar)
- (١٠) خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة ٣: ٤٦، تحقيق وشرح الإمام محمد عبده، الطبعة الأولى، دار الذخائر، قم، ١٤١٢هـ.

## من المتهم بالإساءة إلى الإسلام؟

□ الأستاذ: هلال آل فخر الدين (\*)

دأب الغرب على أن ينظر إلى الإسلام من خلال عدساتٍ مختلّةٍ أو مُعتمدةٍ أو مخدوشةٍ تخلو من الصفاء، لأسبابٍ كثيرة..

ولكن شاعت فيه منذ سنوات، ولا سيّما بعد أحداث ١١ سبتمبر ما يسمى بـ (الإسلام فوبيا)، أي: الخوف من الإسلام، مثلما انتشر في الفترة الأخيرة ما يُمكن الاصطلاح عليه بـ (العرب فوبيا)، أي: الكراهية للعرب ولكلّ ما هو شرقيّ، والعداء لهم، ولعلّ ذلك ليس بمعزلٍ عمّا يُمكن تصوّره من (الزينو فوبيا) (xenophobia)، أي: الخوف من الأجانب، بمعنى: كراهيتهم وعدائهم.

وقد اتّسعت هذه المسألة على نطاقٍ كبير، بصعود وانتشار بعض التيارات والاتّجاهات العنصريّة والفاشيّة في أوروبا، وقد تسلّمتنا حجم الهجوم الشديد على مؤتمر جنيف (ديربن - ٢) حول العنصريّة، وانسحاب أمريكا (الناشرة للحرّيّة والديمقراطيّة) وعددٍ من دول الاتحاد الأوروبيّ (المبشرة بحقوق الإنسان) منه، وتأييد مواقفها من لدن جهاتٍ وجماعاتٍ ودولٍ غربيّة كثيرة،

(\*) باحث إسلامي.



لمجرّد استنكار ما كان قد ذَهَبَ اليه مؤتمر ديربن الأول عام ٢٠٠١ من دمعٍ للممارسات الإسرائيلية بـ (العنصرية).

ولعلّ ما حَدَثَ في مثل مؤتمر (ديربن) يُمكن استحضاره دليلاً على أنّ هناك أكثر من جهةٍ هي التي تقف مُذنبَةً أمام تشويه صورة الإسلام في أعين العالم، إضافةً إلى سَيْلِ الدعاية المُبرّجة التي تُصَبّ في الإساءة الى الإسلام، وتصوير الصراع (العربيّ - الإسرائيليّ) على أنّه صراعٌ بين الإسلام وبين اليهوديّة، أو بين قوىٍ عربيّةٍ متخلّفةٍ والشرق الجاهل الاستبداديّ وبين الغرب الديمقراطيّ المتقدّم...

في حين إنّ الصراع - في حقيقته - إنّما هو بين حقوقٍ مُغتَصَبَةٍ وأرضٍ مُحْتَلَّةٍ وشعبٍ مُشرَّدٍ في غالبية الساحقة، وبين مُغتَصِبٍ استيطانيّ، رغم أنّه يتذرّع بأساطير قديمة، أو يتعكّز على حقوقٍ (سماويّة) بـ (أرض الميعاد) لـ (شعب الله المُختار)، في حين أنّ الصراع إنّما هو صراعٌ دنيويٌّ لتحرير الأرض، وليس بين تعاليم الدين الإسلاميّ وقرآنه، وبين اليهوديّة وتلمودها.

إنّ ما يُطرح في الغرب بشكلٍ عامٍّ من آراء، فتندفع بعض الأطروحات الرسميّة وغير الرسميّة لتساوي بين الإسلام، كدينٍ للتسامح والرحمة والانفتاح والتنوّع والحوار والسلام، وبين بعض الاتجاهات المتطرّفة والمتعصّبة والتكفيرية المتأسلمة، والتي تستخدم تعاليم الدين على نحوٍ مُعَوّجٍ أو مُشوّهٍ ضدّ الدين ذاته، وهو ما نُطلق عليه اسم (الإسلامولوجيا)، أي: توظيف التعاليم الإسلاميّة بالضدّ منها، رغم أنّها ترفع راية الإسلام.

ولعلّ العرب والمسلمين كانوا هم من دفعوا ثَمَنَ هذه الاتجاهات قبل غيرهم، بالرّغم من أنّ هذه الاتجاهات، حتّى وقتٍ قريبٍ، وقبل حدوث زلزال ١١ سبتمبر، كانت قد لقيت تشجيعاً علنيّاً ومُستتراً من بعض القوى والجماعات والدول الغربيّة، مباشرةً، أو بصورةٍ غير مباشرة.

ونستطيع القول: إنّ كثيراً من النخب الفكرية والسياسية والثقافية، الحاكمة وغير الحاكمة، في الغرب، لم تفهم حتى الآن صعوبة طبيعة علاقاتها مع العرب طالما يتم العمل على تصوير الصراع (العربي - الاسرائيلي) على نحو مغلوط، ولا سيما من خلال ممارسات خاطئة وضارة يقوم بها بعض المتطرفين بهدف إثبات أفضلية الإسلام على الديانة المسيحية أو الديانة اليهودية، وجعل مسألة بعض النصوص الواردة في القرآن الكريم مبرراً لمواصلة هذا الصراع بطريقة لا تخلو من عبثية، بحيث يمتد من أقصى المعمورة وحتى أقصاها، وكأن لا علاقة للمصالح الدولية بذلك، بما فيها: مصالح المسلمين أنفسهم، علماً بأن السياسة، منذ بدء الخليقة وحتى تنتهي، ستبقى تحكمها الصراعات واتفاقات المصالح ..

وما لا شك فيه: أنّ هناك نظرات ارتياب مسبقة لدى الغرب والشرق - بما فيه الإسلامي بالخصوص - إزاء الآخر، والغرب ليس وحده المسؤول عن ذلك، فثمة مساهمات نحن مسؤولون عنها، ولا سيما أنّه قد انتشرت لدينا تيارات (أصولية) متعصبة متطرفة تتخذ بعضها من معاداة الغرب وسيلةً للتمدد والوصول إلى الأهداف واستقطاب الجماهير، وهو ما نُطلق عليه اصطلاح (الغربوبيا)، أي: كراهية الغرب، والعداء لكل ما هو غربي، بما فيه: الحضارة الغربية وإنجازاتها العلمية والتكنولوجية والفنية والعمرانية الهائلة، بكل ما لها وما عليها!!

الغرب ليس كله غرباً، فإلى جانب الغرب (الإمبريالي - العنصري - الاستعلائي) في الماضي والحاضر، هناك (الغرب التقدمي) المؤيد لحقوق الإنسان وحقوق الشعب في تقرير المصير، وهو ما حاول مفكر بريطاني مرموق، مثل (افريد هاليداي) أن يضع إصبعه عليه في كتابه (الإسلام والغرب)، وكان الكاتب (عرفان نظام الدين) قد تناول العلاقة بين العرب والإسلام في الغرب بوجهيها، وذلك في كتابه (العرب والغرب)، مثلما أطلّ إعلامياً على ذلك في

كتاب (الإسلام والإعلام)، مشيراً إلى التقصير لدى الجانبين، خصوصاً في فهم العلاقة المتميّزة والمتناقضة والمتداولة، هذا، إضافةً إلى التعقيدات والأوهام والتشويشات التي صاحبَتْها ورافَقَتْها، وهو ما أسماه الدكتور (غازي القصيبي) بـ (الأساطير الأربعة) التي حَكَمَت نظرة الغرب الى الإسلام ما بعد أحداث ١١ سبتمبر.

لا زالت بعض التفسيرات لدينا قاصرةً عن فهم ما نُطلق عليه اسم (الصراع التاريخي) الذي يستمرّ بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، وهو ما ندعوه الحروب الصليبيّة التي حدثت في القرن الحادي عشر الميلاديّ، ومن ثم الصراع مع الإمبراطوريّة العثمانيّة، وذلك لتأكّد حتميّة الصراع باعتباره صراعاً تناحريّاً غير قابلٍ للحلّ أو التوافق، للنظرة المُسبقة للغرب بالتفوّق، وما يلزمها من السيطرة أو الهيمنة على الكلّ، بالرغم من أنّ منطق الصراع يُمكن أن يُؤدّي إلى اتّفاقٍ مصالح، حسب منطق السياسة الدوليّة تاريخيّاً.

إنّ الإبقاء على صورة العدوّ الحاضر في الأذهان، رغم اختلاف المواقف، حمّلت معها خرافات وأوهام كلّ طرفٍ إزاء الآخر، فالإسلام - حسب بعض الأطروحات الغربيّة - يُشجّع على الإرهاب، ويخصّص على العنف، ولا يتورّع عن جرّ الرقاب وتفجير الأبرياء!! وتستند بعض هذه التصورات إلى عددٍ من الغلاة والمتحجّرين المتأسلمين الرافضين لكلّ انفتاح واجتهادٍ وحضارةٍ وتقدّمٍ وتنويرٍ باعتبار الغرب كلّهُ، وهكذا تُستكمل صورة العدو. وهو، إن لم يُوجد بالفعل، فقد تمّت صناعته، مثلما حصل بعد انبيار الشيوعيّة الدوليّة، حيث عملت بعض التيارات في الغرب على اختراع الإسلام كعدوّ بديل، وذلك وفق نظريّة ميكافيللي في كتابه (الأمير)، وهي: «أيّها الأمير، اختر لك أعداءً وهميّين اشغل بهم جماهير إمارتك، فإن لم تُجعل لهم أعداءً جعلوا منك عدوّهم!!».

وحسب أحد المعلّقين البريطانيّين (جورج مونيت)، فإنّه لو لم يكن (ابن

لادن) موجوداً، لكان لزاماً على أمريكا أن تخترعه، فقد اخترعته الـ (CIA) عام ١٩٧٩، واليوم هي تبحث عنه!!

وهكذا تمّ استبدال مُصطلح (المجاهدين الأبطال) و(دعاة طالبان الأفغان) أيام الغزو السوفييتي إلى: (أبالسة) و(إرهابيين) و(متخلفين) و(متطرفين) و(قتلة)، بسبب مواجهتهم للسياسة الأمريكية لاحقاً، على نمط (ميليشيات المحاكم) في الصومال، لتصبح بين عشية وضحاها محلّ اعتماد ودعم واشنطن، في مقابل طرفٍ آخر، على نهج شباب المحاكم. وما حصل في العراق سابقاً، وما يجري فيه الآن ليس عن ذلك المشروع ببعيد..

فإذا أضفنا إلى ذلك ما يواجهه العالم العربي والإسلامي نفسه من مشاكل خطيرة كثيرة، كال فقر والأمراض الفتاكة والأمية والتخلف والفساد، وما يعانيه من تحديات كبرى على صعيد استشرء الصراعات بين مكوناته المجتمعية: دينية وعرقية ومذهبية وقبلية، وارتفاع وتائر قمع الأنظمة فيه لشعوبها حتى إبادة، وما يرافق ذلك من تنامي حدة اشتعال حروب فيما بين دوله أنفسها، بما تؤججه وتزرعه من خلافات قوى خارجية، خدمة لأجندتها في الهيمنة وامتصاص الخيرات والثروات، فالصورة قائمة ومُرعبة جداً فيما ستصل إليه المنطقة من كوارث مدمرة..

في حين يزداد الغرب تمسكاً بمقدّرات العالم، سواء في مجلس الأمن وصندوق النقد والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية والدول الثماني الكبار التي تُقرّر مصير العالم، وكذلك هو يزداد تماسكاً، (الاتحاد الأوروبي) و(الحلف الأطلسي)، فهذه الدول الكبرى لم تنفك عن تصدير مشاكلها إلى الشرق المُنْهَك أساساً، الذي ليس له دخل فيها، ومع ذلك، فيجب عليه دفع فواتيرها الفادحة، والاكتواء بنيرانها، كالأزمة المالية الراهنة وانفلونزا الطيور والخنازير والإيدز، رغم ما يثقله من وطأة المشاكل المستعصية المحيطة به من كلّ صوب، وفي كلّ

فجّ..

إنّ صورة العدو الذي تتمّ صناعته في الغرب ليست بعيدة عن الخرافات والاختلاقات بمجابهة مزعومة مع الإسلام، وهي الصورة التي يقابلها لدى المتأسلمين والتيارات المتشدّدة: وضع الغرب في صورة العدو المستمرّ، والمواجهة الحتمية الأبدية. ويميل (هاليداي) إلى اعتبار نموذج (صموئيل هنتنغتون) بشأن الصدام الحتمي للحضارات هو الأكثر رواجاً لدى الفريقين، ولذلك لقي كتابه (صدام الحضارات) اهتماماً منقطع النظير، مثل كتاب (فرنسيس فوكوياما): (نهاية التاريخ).

وخلاصة القول: إنّ هذه الصورة التي تمتّ صناعتها لم تكن كلّها من جانب الدعاية الصهيونية والتيارات الغربية المتطرّفة والعنصرية، التي هي المتهّم الأساسي عن اعتبار الإسلام عدوّاً على الدوام، بل كان بعضها من صنّع بعض الاتجاهات المتطرّفة المنغلقة التكفيرية الإرهابية، والسؤال هو: أين المسلمون الحقيقيون من هؤلاء وأولئك؟!

\* \* \*

## المشكلات الأخلاقية المنتشرة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة وسبل معالجتها

□ أ. زهراء محمد مرادي (\*)

### تقديم

لفترة ليست بالقصيرة حَسَبْنَا أنفسنا بمأمنٍ مما يَجْرِي حولنا من تراجعَاتٍ أخلاقيةٍ وانتكاساتٍ على كافَّة الأصعدة، أَوَلَسْنَا خير أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ؟ أَوَلَسْنَا أتباع محمد ﷺ وأهل بيته وصحبه؟ أَوَلَيْسَ ديننا أفضل الأديان وخاتمها؟

لَكِنَّا اليوم، وبعد أن طَفَحَ الكَيْلُ وبَانَ المستور، تَبَيَّنَ لكلِّ ذي لُبٍّ أَنَّنَا نَحْذُو أهل الشرك حَذَوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ والقَذَّةَ بالقَذَّة. فقد كان شعارنا لفترةٍ - أيضاً - ليست بالقصيرة، أن إذا ابْتُلِيتُمْ فاستَبْرُوا، فالأَمُّ تَتَكَتَّمُ على سلوكيات أبنائها عن الأب، والمدرسة تتسترُّ على انحرافات طلبتها عن أعين المسؤولين والإعلام!!

(\*) باحثة إسلامية. وقد كُتِبَت هذه المقالة لمؤتمر (أخلاقيات بين النظرية والسلوك - أسباب ومعالجات) بتاريخ ٦-٥ ذو القعدة ١٤٢٩ هـ.

والحكومات تُعلن أنّ الأمور على ما يُرام، دون سعيٍ جادٍّ من أية جهةٍ لاستئصال المشكلة وحلّها.

اليوم، وبعد ثورة الاتصالات والقنوات المفتوحة وتقلّص المسافات بين الشعوب، لم يُعد بالإمكان دفن رؤوسنا في الرمال كما تفعل النّعام!! نتفق جميعاً أنّ البشريّة لم تكن في يومٍ من الأيام مُجمّعةً ملائكيّاً خالياً من العيوب والمعاصي، وأنها كانت تُعاني منذ القدم من مشكلاتٍ أخلاقيّةٍ مختلفة، لكننا اليوم نواجه انحرافاتٍ ومشكلاتٍ تحوّلت بعضها إلى ظواهر مُقلقة ألقت بظلالها على كافّة مناحي الحياة، وتسبّبت بقلقٍ وخوفٍ شديدين لكلّ مَنْ يحمل همّ المجتمع وإصلاحه.

لقد كانت مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة مجتمعاتٍ بسيطةً تتّسم بطابع التكاتف والتعاقد.. يقف بعضهم إلى جنب بعضٍ في أوقات الأزمات.. يتقبّل أفرادها النقد والتوجيه من قِبَل علماء الدين وكبار السنّ.. وغالباً ما يتمكّنون من احتواء أيّة مشكلةٍ قبل استفحالتها، لكننا اليوم نواجه كمّاً من المشكلات الأخلاقيّة لا قِبَل لنا بها؛ ممّا دَفَع بالعديد من المُصلحين الاجتماعيين إلى الشعور باليأس وقلة الحيلة، والاكتفاء بإبداء القلق والتذمّر ممّا آلت إليه الأحوال.

إنّ التقارير والإحصائيات الصادرة عن وزارات الداخلية والجهات الأمنيّة في بلداننا تَبْعَث على القلق. فقد ارتفع - على سبيل المثال - عدد الجرائم في المملكة العربيّة السعوديّة إلى ٩٠ ألف جريمةٍ جنائيّةٍ في العام ٢٠٠٥م، وفي الكويت إلى ٢٢٠٦٢ جريمةً، أي: بمُعَدَل: ٦٢ جريمة في اليوم<sup>(١)</sup>.

هذا ما يتمّ الإبلاغ عنه رسميّاً إلى مراكز الشرطة والجهات الرسميّة، وما خَفِيَ أعظم من ذلك بكثير. ويكفي الواحد منّا أن يتصفّح صحيفةً من الصحف اليوميّة لتصدّمه عناوين مُوجعةٌ عن الاغتصاب والدعارة والعنف البدنيّ وجرائم القتل والسرقه وتجارة المخدّرات والخلافات الأسريّة، وغيرها..

صحيحٌ أنّ العالم بأسره يعاني من انحدارٍ أخلاقيٍّ وتراجعٍ قيميٍّ، وأنّنا لسنا استثناءً من القوم، لكننا بحاجةٍ إلى أن نقف عند أسباب تلك المشكلات ونسعى لعلاجها ومنع استفحالها. وصحيحٌ أنّ الأمر ليس بتلك الدرجة من السوداوية - كما في بعض المجتمعات الغربية -، فما زالت في أمّتنا منابع للخير تسعى لنشر الفضيلة ومحاصرة الرذيلة. في الواقع، تُعتبر الأخلاق الركيزة الأساسية في حياة الأمم، فهي الموجّه الرئيس للسلوك الإنسانيّ، وبدونها لا يُمكن الحديث عن سلامة المجتمع واستقراره وتقدمه ورقية<sup>(٢)</sup>.

فقد بُعث النبيّ الخاتم ﷺ من أجل إتمامها: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»؛ لذا وَجَبَ على كلّ مسلمٍ غيورٍ على دينه وعلى مُستقبل أُمّته أن يسعى لتعزيز القيم الأخلاقية والمبادئ التي دعا إليها الإسلام من رحمةٍ ومحبةٍ وتسامحٍ وتكاتفٍ وعفةٍ وفضيلةٍ.

### أسباب المشكلات الأخلاقية

قبل التطرّق إلى جذور المشكلات الأخلاقية المنتشرة في مجتمعاتنا والتعرّف على أسبابها، يفضّل التنبيه إلى نقاطٍ أربع:

أولاً: تحديد مفهوم الأخلاق: في الواقع، إنّ مفهوم الأخلاق مفهومٌ متعدّد الأبعاد، فقد يُنظر إليه من بُعدٍ اجتماعيٍّ أو من بُعدٍ ذاتيٍّ. وفي حال تناوله من بُعدهِ الاجتماعيّ فإنّه سيتحوّل إلى مفهومٍ ديناميكيٍّ متحرّك، بمعنى: أنّه يُختلف من عصرٍ إلى عصرٍ، ومن مُجتمعٍ إلى مجتمعٍ، فما يُعدّ حلالاً في عصرٍ ما يُعدّ حراماً في عصرٍ آخرٍ، وما يُعدّ فضيلةً في مُجتمعٍ ما يُعدّ جريمةً في مجتمعٍ آخرٍ. وهذا الطرح غير منطقيٍّ، فالأخلاق ذات بُعدٍ قيميٍّ مُطلق، وهي عبارةٌ عن «المعايير والمبادئ التي تُحكّم سلوك الفرد والجماعة، ويرتبط موضوعها بالأسئلة المتعلقة بما هو خطأ وما هو صواب»<sup>(٣)</sup>؛ لذا وَجَبَ «اتباعها بصرف النظر عن قيم المجتمع ومعاييرهِ»<sup>(٤)</sup>.



ثانياً: عدم حصر الأخلاق في نطاق أعمال الإنسان الفردية، بل اتساعها لتشمل جميع جوانب الحياة، بما فيها المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري<sup>(٥)</sup>.

ثالثاً: لا يُمكن عزّل المشكلة الأخلاقية عن التدهور الذي يُحيط بالدول العربية والإسلامية من كافة المناحي. في الواقع إننا «انتهينا اليوم بعد مرور أكثر من خمس حقبة زمنية على محاولة النهضة بآمة على هامش الحضارة ثمثل مختبراً لكل أمراض البشرية»<sup>(٦)</sup>، وقد جعلنا - للأسف الشديد - القيم الأخلاقية في أدنى سلم أولوياتنا بحجة تحقيق النمو الاقتصادي، فلا تقدّمنا أخلاقياً، ولا ازدهرنا اقتصادياً. فعلى صعيد الحريات السياسية أصبحت الدول العربية في ذيل قائمة مناطق العالم السبعة من حيث المشاركة وتكوين الأحزاب وغيرها. وعلى الصعيد الاقتصادي، فإنّ مُعدّل النمو السنوي كان سالباً (-٢٪) خلال الفترة ١٩٧٥م - ١٩٩٠م، ونموّاً موجباً متواضعاً (٠,٦٪) خلال الفترة ١٩٩٠م - ١٩٩٩م. ولا يقلّ الإخفاق فيما يتعلّق بإنتاج المعرفة وانتشارها في العالم العربيّ عن بقية المجالات؛ فعدد الصحف لكل ١٠٠٠ من السكّان في العالم العربيّ لا يزيد عن ٣٥ صحيفة مقابل ٢٨٥ صحيفة في الدول المتقدمة، وفي العالم العربيّ تتمّ ترجمة كتاب واحد لكلّ مليون شخص من السكّان في السنة مقابل ٩٢٠ كتاباً في إسبانيا<sup>(٧)</sup>.. والإحصائيات والأرقام التي ترصدها المنظّمات الدولية تبعث على الأسى والحزن. كلّ تلك الجوانب وغيرها تؤثر بصورة أو بأخرى على سلوكيات الأفراد وممارساتهم الأخلاقية.

رابعاً: حينما نستعرض أسباب الانحدار والتراجع الأخلاقي في مجتمعاتنا الإسلامية، فإننا نكتفي بذكر الأسباب الكلية والعامّة. وهذا قد يُفيد في رسم خارطة للطريق، إلّا أنّها لا تكفي لحلّ المشكلة؛ فالمفترض أن نقف أمام كلّ مشكلة على حدة، نسبر أغوارها وأعماقها ونتعرّف على أسبابها وطرق علاجها.

ومثل هذا الأمر لا يُمكن تحقيقه عبر أوراق عملٍ تحمل عناوين عامةً، بل عبر مراكز اجتماعية بحثية تدرس المشكلة وتُقدِّم الحلول دون تعميمٍ وتبسيط. وبعد توضيح النقاط الأربع السابقة، يُمكننا أن نُرجع الأسباب والعوامل التي أدت إلى تفاقم وتردّي الأوضاع الأخلاقية في مجتمعاتنا الإسلامية إلى ما يلي:

#### أولاً: ثورة الاتصالات والمعلومات:

لا يُمكن لأيِّ مجتمع أن يظلَّ بمنأى عن التغيير؛ فالتغيير سنّة من سنن الله الكونية في أرضه وعباده، وهو «قد يتمّ بخطواتٍ وئيدة فيكون نمواً، وقد يكون متدرّجاً فيكون تطوّراً، وقد يكون في قفزاتٍ كثيرة فيكون ثورةً أو انقلاباً أو طفرةً»<sup>(٨)</sup>.

والنوع الثالث هو ما أَلَمَّ بمجتمعاتنا وتحديدًا منذ التسعينات من القرن المنصرم؛ فقد طرأت تغييراتٌ سريعةٌ وغير مسبوقَةٍ على مستوى السياسة والاقتصاد والثقافة والقيم. كما تعاظَم دور التكنولوجيا والاتصال في العقدين الماضيين، حتى لم تُعدَّ أية منطقة في العالم بمنجى من تأثيرهما.

إنَّ العولمة لو كانت تتحرّك في مسار التفاعل بين الشعوب المختلفة أخذاً وعطاءً، لما كانت مثار جدلٍ ورفضٍ، لكنّ ما يحدث أنّها تتحرّك في اتجاهٍ واحدٍ.. من الشّمال إلى الجنوب.. من الغرب الأمريكي والأوروبي إلى دُول العالم الثالث. والعادة: أنّ الطرف الأقوى هو من يفرض أجندته على الطرف الأضعف، وهذا ما حصل، فقد لُوْحظ تدهورٌ على مستوى السلوك والقيم في العالم العربي والإسلامي بشكلٍ لم يكن له مثيلٌ في السابق.

وغالباً «ما يتركز نقد العولمة في مسألة القيم والمفاهيم على قضيتين: الأولى: ثنائي: العنف والجنس، والثانية: تنميط القيم ومحاولة جعلها واحدة لدى جميع

البشر في المأكل والملبس والعلاقات الأسرية وكل ما يتصل بحياة الإنسان الفردية والجماعية»<sup>(٩)</sup>.

وفي الواقع، إن الشركات العالمية الكبرى عندما تبيع مُنتجاتها، فإنها تبيع في الوقت نفسه أسلوبها ونظرتها للحياة، ولعلّ أبلغ تعبير على ما نقول هو ما صرّح به أحد مُديري شركة الكوكاكولا عندما قال: إن شركته لا تبيع مشروباً، بل أسلوباً للحياة.

أما بخصوص الانترنت، والذي هو سلاح ذو حدين، فقد تمّ توظيفه أبشعّ توظيف من قبل الشباب العربي والمسلم، فالدراسات تشير إلى أنّه الأكثر إقبالاً على المواقع الجنسية، وتمثّل الصفحات الإباحية أكثر فئات صفحات الانترنت بحثاً وطلباً في العالم العربي، «وتفيد الإحصاءات بأنّ ٦٣٪ من المراهقين المرتادين للمواقع الجنسية لا يدري أولياء أمورهم طبيعة ما يتصفّحونه على الانترنت، وإنّ أكثر مُرتادي الموادّ الإباحية تتراوح أعمارهم ما بين ١٢ و ١٧ سنة»<sup>(١٠)</sup>.

والأمر ليس بحاجة إلى تعليقٍ عمّا تُسبّبه تلك المواقع المبتذلة من نسفٍ لقيم الفضيلة والعفة، ومن خلق حالةٍ من الانفصام بين المثال والواقع، فلا يعود هناك ما يُسمّى بالعيّب والحرام، فكلّ شيءٍ في عالم الانترنت مباح.

#### ثانياً: البرامج الإعلامية الهدامة:

من الواضح أنّه ليست هناك من سياسة إعلامية واضحة في عالمنا العربي والإسلامي، فهي تعيش في حالةٍ من التخبّط والفوضى الناجمتين عن عدم وجود رؤية ورسالةٍ لديها. ويبدو هذا الأمر جلياً حينما تُرسل رسائل متناقضة إلى القراء والمشاهدين والمستمعين. فتجد في ثنایا الصحيفة مقالاً يطرح رؤية الإسلام حول مسألة ما، ثمّ ما تلبث أن تُشاهد في الصفحة التالية صُوراً

ومشاهد عارية تتنافى مع ما يدعو إليه الدين الإسلامي الحنيف، وهكذا الحال مع البرامج التلفزيونية، والتي عادةً ما تبثّ برامج تُضرب بعضها بعضاً. إنَّ «الناس يسلكون وفقاً للسياق الذي يفرض عليهم برامجهم التي تتسرّب عبر مراكز الإحساس لتستقرّ في عقولهم، وهذه البرامج إما أن تكون في اتجاه الأخلاق ورسم حدود الجميل والقيح، والخير والشرّ، والعيب واللاعيب، وإما أن تكون بمثابة فيروساتٍ أخلاقيةٍ تُصيب الأفراد المصابين بنقص المناعة الأخلاقي»<sup>(١١)</sup>.

طبعاً، نحن ندين بالفضل لعدد من القنوات الدينية الإسلامية، والتي انطلقت لتملأ الفراغ في سماء القنوات المفتوحة، لكنّها محدودةٌ جداً في قبالة الآلاف من الفضائيات التي سخرت نفسها لهدم القيم الإسلامية والإنسانية، والتي تقدّم الأغاني الهابطة والمسلسلات الخادشة للحياء والبرامج الجنسية والإباحية، وقد تسببت هذه القنوات في إحداث شرخ وخللٍ في المنظومة الأخلاقية لشبابنا، فقد أظهرت إحدى الدراسات الحديثة<sup>(١٢)</sup> أنّ أكثر من ثلاثة مليارات دولار تُنفق سنوياً من قبل المراهقين على الرسائل المُرسلة إلى القنوات التي تُعرض تلك الأغاني المبتذلة. وهذا الرقم يُشير إلى قنبلة أخلاقية تفوق قوّة تدميرها قوّة القنبلة النووية! وهي ستنفجر فينا آجلاً أم عاجلاً.

### ثالثاً: تدني الأوضاع الاقتصادية:

كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من الفقر كما كان يتعوّذ من الكُفر، فقد رُوي عنه أنّه قال: «اللهمّ إني أعوذ بك من الكُفر والفقر»<sup>(١٣)</sup>. كما رُوي عن الإمام علي عليه السلام قوله: «لو كان الفقر رجلاً لقتلته»... وكثيرة هي النصوص التي تربط بين الإيمان والغنى من جهة، وبين الكُفر وضيق ذات اليد من جهةٍ أخرى.

طبعاً، ليس القصد من هذا الربط إصاق مسؤولية الانحدار الأخلاقي في مجتمعاتنا بأشخاص الفقراء؛ فقد أثبتت الدراسات «أنّ العوز الماديّ ليس كافياً

بمُفرده لتفسير الانحراف»<sup>(١٤)</sup>، كما أنّ العديد من الأثرياء ورجال الأعمال يتورّطون في جرائم ومشكلات أخلاقية كبيرة، غير أنّ الفقر «بوجوهه المتعددة قد يُشكّل ظروفاً أو مناخات مهیئة للانحراف، أو على الأقلّ: فُرصاً تُسهّل للسلوك الجانح احتمال حدوثه»<sup>(١٥)</sup>.

فتدني الحالة الاقتصادية، والبطالة، وغلاء الأسعار، ستؤدي حتماً إلى خلق حالة من القلق والخوف من المستقبل والشعور بعدم الأمان، وقد يدفع بالبعض إلى الغش والتزوير والسرقة والرشوة. كما أنّ المجتمعات التي تُعاني من البطالة ومحدودية الدخل يرتفع فيها سنّ الزواج للشباب والشابات، وتكثر فيها العنوسة. وهذا ما يحصل حالياً في العديد من الدول العربية والإسلامية، وقد نَجَم عن سوء الأوضاع المادية العديد من المشكلات النفسية والاجتماعية والأخلاقية.

#### رابعاً: تراجع دور الأسرة:

لقد كانت الأسرة - ولا زالت - الحجر الأساس في تربية الأطفال، فهي المسؤول الأول عن زرع القيم الأخلاقية فيهم، وتعريفهم بالصواب والخطأ، وبالتالي: إعداد المواطن الصالح. ولكن من البين لجميع المتابعين أنّ دورها قد تراجع في الآونة الأخيرة، مُفسحة المجال لغيرها من المؤسسات والوسائل لكي تقوم بدورها.

في الواقع، إنّ النظام الاجتماعي في مجتمعاتنا الإسلامية قد تخلّى عن دعم الأسرة كمؤسسة تربوية، فقد «دفعت المعاناة الاقتصادية وشره الاستهلاك إلى تدمير وحدة الأسرة»<sup>(١٦)</sup>، فالأب والأم - على حدّ سواء - مُنشغلان بطلب الرزق والعمل بُغية تحسين الوضع الاقتصادي للأسرة. كما أنّ نسبة كبيرة من الأمهات غير العاملات قد تخلّين عن دورهنّ الأساسي للخدمات والمربيّات،

وانشغلنَ بالأُمور الثانويّة والكماليّة عن أقدس مهمّةٍ على وجه الأرض، وهي المحافظة على سلامة الأسرة من زوجٍ وأطفال.

وتكشف وسائل الإعلام والمراكز البحثيّة، يوماً بعد يوم، عن الممارسات الخاطئة التي تُمارَس من قِبَل الوالدين تجاه أبنائهم، من جفافٍ وقسوةٍ في التعامل، وعدم الالتفات إلى مشاكلهم، والإفراط في تدليلهم، والاستجابة لطلباتهم دون قيدٍ أو شرط، وكتبان أمر انحراف الأبناء عن الآباء، إلخ..

وهناك عوامل أخرى أدّت إلى تراجع دور هذه المؤسسة الحيويّة، فمعظم الذين يُقبلون على الزواج لا يتلقون تدريباً كافياً يؤهلهم للمرحلة الجديدة من حياتهم، وتفتقد مجتمعاتنا لمكاتب الإرشاد والإصلاح الأسريّ لاحتواء الخلافات الأسريّة والحيلولة دون حلّ جميع المشكلات بالطلاق وحده، كما أنّ عدم إقرار قانونٍ للأحوال الشخصية في بعض البلاد الإسلاميّة قد ألقى بآثاره السلبيّة على مؤسسة الأسرة، وأحياناً وجود قوانين وأنظمةٍ لم تتمّ مراجعتها منذ عقودٍ طويلة، ولم تُعدّ مستجيبةً لتطوّرات العصر.. كلّ تلك العوامل وغيرها دَفَعَت بالأسرة إلى التراجع والانزواء.

#### خامساً: تراجع دور المؤسسات الرسميّة:

لُوَحِظَ في السنوات القليلة الماضية تراجع الدور التربويّ لمؤسسات الدولة الرسميّة من مدارس ومعاهد وجامعات. فبعد أن كانت هذه المؤسسات بمثابة المحضن الثاني للأبناء بعد الأسرة، نجدها قد تحوّلت إلى أماكن للتأهيل التعليمي فقط، دون التأهيل الأخلاقيّ والتربويّ. وأصبح همّ المعلّم الانتهاء من شرح المادّة العلميّة، دون الالتفات إلى سلوكيّات طلبته؛ إمّا لضيق الوقت، أو لعدم تقبّل الطلبة وأولياء أمورهم لأيّ انتقادٍ أو توجيه؛ بحجّة أنّ ذلك يُعدّ تدخلاً في الشؤون الشخصية للآخرين، وتعدّياً على حريّاتهم الأساسيّة.

في الواقع، إنَّ تراجعَ دور المدرسة واهتزاز المكانة الاجتماعية للمعلِّم يعود إلى عدَّة عوامل، منها: عدم الرضا الوظيفي لدى غالبية العاملين في القطاع التعليمي، واختيار أشخاصٍ غير مؤهلين لممارسة مهنة التعليم بما تتطلبه هذه المهنة من حبٍّ وصبرٍ وسعة صدر، ودليل ذلك: الممارسات السلبية التي تصدر من بعضهم، كالعنف البدني واللفظي وطغيان الجانب المادي على الجانب الأخلاقي والقيمي، وعدم الشعور بالمسؤولية واللامبالاة من قِبَل الطلبة، وعدم مرونة المناهج وكثافتها؛ ممَّا دفع بالمعلِّمين إلى أن يكونوا في سباقٍ مع الزمن من أجل الانتهاء من الموضوعات المطلوبة، وبُعد غالبية المناهج عن الواقع وتركيزها على الجانب النظري دون التعرُّص لمشكلات الشباب والأزمات التي يمرون بها.

#### سادساً: تراجع دور المؤسسة الدينية:

لقد كان للدين - ولا زال - تأثيره البارز في معالجة المشكلات الأخلاقية، وكان يُنظر لعالم الدين أنَّه يقوم مقام الأنبياء والرسل في التوجيه والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غير أنَّ ما تعجَّ به الساحة العربية والإسلامية من ممارسات سيئة باسم الدين، قد أدَّى إلى اهتزاز دور المؤسسة الدينية (الرسمية والأهلية على حدٍّ سواء)، وكذلك دور علماء الدين. لقد أصبح رجل الدين في موضع المتهم بممارسة التطرّف في الطرح، والتعصّب في الممارسة، وعدم التجديد في الخطاب، والبُعد عن الواقع، والعبث بمصائر الناس من خلال الفتاوى غير المدروسة، وإثارة النعرات الطائفية، ورزق الكراهية بين أبناء البلد الواحد، وشقّ الصفّ الوطني. وعوضاً عن أن يساهم رجال الدين في حلّ المشكلة الأخلاقية، أصبحوا هم جزءاً وطرفاً رئيساً في المشكلة؛ لذا، يُمكن القول: إنَّ دورهم سيُشهد المزيد من التراجع ما لم يُراجع علماء الدين خطاهم وخطواتهم.

طبعاً، هناك عوامل أخرى ساهمت في استفحال المشكلات الأخلاقية في مجتمعاتنا، منها: انشغال المصلحين ورجال الفكر والثقافة بالسياسة والسعي لإصلاح الأوضاع السياسية. فالعالم الإسلامي لا زال يعاني من الاستبداد والفساد؛ مما جعل معظم الجهود تنصرف في هذا الجانب، فاشتغل الجميع بالسياسة، وأصبحت السياسة شغل من لا شغل له. ولو كانت تلك الجهود قد وُجّهت صوب إصلاح أوضاع الناشئة وتربيتهم والعمل على حل مشكلاتهم لكان المردود عظيماً وكبيراً.

#### سُبُل المعالجة

لقد سبق القول: أنه من اليسير أن ننظر إلى المشكلات الأخلاقية التي نعاني منها نظرةً فوقية، وأن نشخص أسبابها وطرق علاجها بصورة عامة وسريعة، لكننا بهذا الطرح لا نُضيف جديداً، بل نكرّر ما سبق طرحه في مؤتمرات أو ندواتٍ سابقة.

ولحلّ هذه الإشكالية، ينبغي أن تسعى الحكومات ومعها المؤسسات الأهلية والخيرية والاجتماعية إلى استحداث مراكز دراساتٍ وبحثٍ اجتماعيٍّ؛ ليتسنى لها دراسة الظواهر الاجتماعية بشكلٍ علميٍّ وعميقٍ، وتنتقل في رصد وعلاج الظواهر الاجتماعية السيئة من موقع الوعظ، إلى موقع الباحث العلمي الذي يتّجه إلى جذور الأمور وجوهر القضايا، دون أن يُغفل تداعياتها وآثارها الجانبية<sup>(١٧)</sup>.

والأمر الذي نغفل عنه في أحيانٍ كثيرة هو الفصل بين «معالجة القضايا الأخلاقية عن معالجة مشكلات الحياة الأخرى»<sup>(١٨)</sup>.

إنّ السياق الاجتماعي والبيئة المحيطة لهما دورٌ هامٌّ في خلق المشكلات الأخلاقية وتعاضلها؛ لذا لا يُمكن تحليل أسباب إدمان فئةٍ من الشباب على



الكحول والمخدرات أو إقدامهم على السرقة بضعف الوازع الديني فحسب، بل هناك جملة من الأسباب التي ينبغي التعرف عليها، ومن ثم العمل على معالجتها.

الجميع يدرك صعوبة المهمة خاصة في ظل تأزم الأوضاع وتفاقم المشكلات وعظم التحديات.

إن إعادة تربية الإنسان وبناء ضميره وتغيير اتجاهاته وقناعاته بحاجة إلى جهود جبارة وعظيمة، وهذا لا يعني أبداً اليأس من التغيير والإصلاح، فالدراسات النفسية تُشير إلى أنه يُمكن تعديل السلوكيات المنحرفة واتجاهات الأفراد التي تبدو أتمها اصطَبَعَتْ بصبغة الثبات والديمومة. فليس هناك من مستحيل متى وُجدت الإرادة لدى الأفراد والمؤسسات والحكومات بإحداث انتفاضة أخلاقية، وعزم على العودة إلى القيم الإسلامية النبيلة؛ والله سبحانه وتعالى يؤكد حقيقةً وسنةً من سننه في الأرض، وهي: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إن معالجة الانحرافات الأخلاقية مسؤولية لا يُمكن لأية جهة منفردة أن تقوم بها وحدها، بل لا بدَّ من تكاتف الجهود. صحيح أن الدولة بما تمتلك من إمكانيات لها دورٌ أكبر، لكن ينبغي على الجميع من مؤسسات تربوية وإعلامية، ومؤسسات المجتمع المدني، ورجال الدين والفكر والأدب والثقافة أن يُعلنوا عن حملة أخلاقية ذات رؤية ورسالة واضحة.

وكما أن بعض المؤسسات التجارية والصناعية تصنع لنفسها سلماً قيمياً تُرتب على ضوئه أولوياتها، كذلك على الأنظمة الحاكمة أن تصنع هذا السلم القيمي، فتحدّد مواطن القوة وتعمل على إبرازها، ومواطن الضعف وتعمل على معالجتها.

إن على مجتمعاتنا مسؤوليةً جسيمةً بحماية نفسها من الوقوع فيما وقعت فيه أوروبا وأمريكا من قبل، حينما أهملت القيم الروحية والخلقية، واهتمت بالتقدم العلمي والتكنولوجي والمادي وحدها<sup>(١٩)</sup>.

نعتقد أنّ الحكومات العربيّة والإسلاميّة إذا تمكّنت من خَلْقٍ وعيٍّ عامٍّ بحجم المشكلة الأخلاقيّة لدينا دون تهويلٍ أو تهوين، ومدى تهديدها للأمن والسّلم المجتمعيّ، وبالتالي: الحاجة إلى تضافر الجهود من قِبَل الجميع، فإنّ هذه المشكلات ستجد طريقها إلى الحلّ. فكما سجّلت بعض الدول الإسلاميّة<sup>(٢٠)</sup> نجاحاتٍ بارزةً في عددٍ من مجالات التنمية والاقتصاد، فإنّ بإمكانها أن تنجح في هذا الصعيد أيضاً.

وكما سبقت الإشارة إلى أنّ المشكلة الأخلاقيّة لا يُمكن عزلها عن بقيّة المشكلات التي تحيط بنا من كلّ حَدْبٍ وصَوْبٍ، فكذلك علاجها بحاجةٍ إلى معالجاتٍ عدّة، ومن جوانبٍ متعدّدة، منها:

**أولاً: المعالجة السياسيّة:**

الحديث عن المعالجة السياسيّة والإصلاح السياسيّ حديثٌ ذو شجون، وبالأخصّ في عالمنا العربيّ والإسلاميّ؛ وإنّ سوء الأوضاع السياسيّة سيظلّ يلقي بظلاله على أخلاقيّات ومسلكيّات الناس، شئنا أم أبينا.

**ثانياً: المعالجة الاقتصاديّة:**

لقد سبق الحديث عن أثر تدنيّ الأوضاع المعيشيّة على نفسيّات الناس وأخلاقيّاتهم؛ لذا، وجب على الجهات المسؤولّة في الدولة أن تعمل على تحسين الأوضاع الماديّة لمواطنيها عبر قانون الضمان الاجتماعيّ، وخَلْقِ فُرَصٍ وظيفيّةٍ للعاطلين عن العمل، ومحاربة التضخّم والغلاء، ودعم الأسر المحتاجة، وغيرها من المعالجات التي تحفّظ كرامة المواطنين.

**ثالثاً: المعالجة التشريعيّة:**

يرى البعض<sup>(٢١)</sup> أنّ العقوبات الصّارمة لا تُنشئ مجتمعاً، وأنّ النُظم مهما كانت مُحْكَمَةً ومُتَقَنَةً فإنّها لن تحوّل دون تجاوز الإنسان لها، وتأويلها بما يُجهّضها، وأنّه ليس بإمكان أقسى العقوبات الصّارمة أن تُقوّم الاعوجاج، ولا أن تملأ الفراغ الناشئ عن ذبول النفس وانحطاط القيم.

وهذا صحيحٌ. غير أنّ التشريعات القانونيّة تحمي المجتمع وتُردع مَنْ تُسَوَّل له نفسه العبث بأمن وسلامة الآخرين.

إنّ محاكمة المخالفات السلوكيّة من الناحية الأخلاقيّة والوجدانيّة أمرٌ جيّد، لكنّ الأفضل محاكمتها قانونيّاً وتشريعياً؛ لذا، ينبغي على الجهات التشريعيّة في العالم الإسلاميّ أن تسنّ من التشريعات ما يكفل حماية حقوق الأطراف المختلفة، وإيقاع العقوبات المناسبة لمن ثبت تورّطه في جرائم الاغتصاب والعنف والقتل إلخ...

#### رابعاً: المعالجة التربويّة:

لقد ازداد العبء على المؤسسات التربويّة في المجتمع، من الأسرة والمدرسة والجمعيات والنوادي ووسائل الإعلام. والمعالجة التربويّة تتحقّق عبر مساعدة الأسرة للقيام بدورها بصورة سليمة، وذلك بتثقيف المُقبلين على الزواج، وإنشاء مكاتب للإصلاح الأسريّ والإرشاد النفسيّ، والرقابة على البرامج التلفزيونيّة، ومنع القنوات التي تَهْدَف تدمير القيم والروح الإنسانيّة، وإصلاح حال المدارس والجامعات وكلّ ما يتعلق بشأن التربية والتعليم.

#### خامساً: المعالجة الدينيّة:

لا شيء يُمكن أن يستقطب الشباب ويؤثر فيهم ويحميهم من الوقوع تحت براثن الشيطان كالدين؛ لذا، ينبغي التثقيف من البرامج والأنشطة الدينيّة، والتي تبيّن الوجه الحقيقي والسمح لهذا الدين القائم على المحبة والرحمة والحوار والانفتاح على الآخر. وعلى الجهات الرسميّة ومؤسسات المجتمع المدنيّ أن تُحارب الأصوات المتطرّفة، وتُسعى لتحجيم تأثيرها عبر دعم التيارات والشخصيّات المعتدلة، وتُحاسب، بل تُحاكم رجال الدين الذين يَستَخدمون ورقة الفُتْيَا لبثّ الفُرقة بين أبناء الوطن الواحد دون مجاملة أو خوف.

#### سادساً: المعالجة العلميّة:

ولعلّ هذه الوسيلة تُعتبر من أنجح الوسائل وأفضلها، فعادةً ما يلجأ المعلمون والخطباء والوعاظ إلى تناول المشكلة الأخلاقية عبر أسلوب الوعظ والنصيحة.. وهو أسلوبٌ جيّدٌ لمعالجة بعض المشكلات الأخلاقية، لكن لا يُمكن الاعتماد عليه وحده دون غيره من الأساليب الأخرى. فليس بالأمر العسير على الخطيب أن يكتفي بتوجيه الآخرين وإرشادهم وتذكيرهم بالفضائل وتحذيرهم من الرذائل. لكنّ التحديّ الأكبر يكمن في إجراء «بحوثٍ علميّةٍ وتحليليّةٍ قائمةٍ على الحقائق والبراهين والأرقام»<sup>(٢٢)</sup>.

لقد وُجّهت انتقاداتٌ عدّة<sup>(٢٣)</sup> إلى كفيّة معالجة مُعظم الوعاظ والخطباء للمشكلات الأخلاقية في مجتمعاتنا؛ فهم ينظرون إلى مشكلات المجتمع المختلفة على أساس أنّها مشكلة واحدة دون بحثٍ وتنقيبٍ، وهم يقرّون أنّ أسباب هذه الأزمات والمشكلات عديدة، لكنّ سبيل معالجتها واحد وإن تعدّدت آليّاتها، ويكون عبر إحياء الضمائر الميتة وإيقاظها من سباتها العميق. ونحن لا ننكر دور الضمير؛ فهو القوّة القادرة على تصحيح مسار الإنسان بعد انحرافه، لكنّ معالجة المشكلات الأخلاقية - خاصّةً بعد أن تتحوّل إلى ظواهر اجتماعيّة - تصبح غير فعّالةٍ عبر الموعظة والتوجيه فقط.

لذا، كان من الضروريّ إنشاء مراكز دراسات وبحوث تضمّ اختصاصيّين نفسيّين ومرشدين اجتماعيّين وعلماء دين لا يعتمدون في رصدهم وعلاجهم للمشكلات الاجتماعية على الحدس والتخمين والاحتمال، بل يُعالجونها ضمن سياقها الاجتماعيّ والتاريخيّ عبر التحليل السوسيولوجيّ، والذي يتميّز بالدقّة والانضباط العلميّ.

### النتائج والتوصيات

(١) التركيز على الجانب الوقائيّ لعلاج المشكلات الأخلاقية قبل إصابة المجتمع بها، والسعي لإيجاد مؤشراتٍ وتكوين وحدات رصدٍ يكون هدفها رصد بدايات هذه الظواهر؛ فدرهم وقاية خيرٌ وأقلّ تكلفَةً من قنطار علاج<sup>(٢٤)</sup>.

(٢) تعاون الدولة مع مؤسسات المجتمع المدني وكافة الجهات ذات الصلة في معالجة المشكلات والأزمات الأخلاقية، وتقاسم المسؤوليات والأدوار، كل حسب قدراته وإمكاناته<sup>(٢٥)</sup>، وعدم استفراد الدولة بهذه المهمة؛ فهي مهما قويت وتعاضمت قُدراتها ستكون بحاجة إلى دعمٍ من كافة المؤسسات المجتمعية لضمان نجاحها.

(٣) تحديد سلمٍ قيميٍّ لمجتمعاتنا حسب أولوياتنا الدينية والوطنية وفي ضوء المشكلات التي نعاني منها فعلياً.

(٤) العمل وفق استراتيجياتٍ وخططٍ واضحة الأهداف والوسائل، يقوم بوضعها أهل التخصص من علماء نفسٍ واجتماعٍ وإدارةٍ وأخلاق.

(٥) إنشاء مراكز دراساتٍ بحثيةٍ تضم خيرة الاختصاصيين في علم النفس والاجتماع والدين، مهمتها تسمية الأشياء بمسمياتها، بتحديد أسباب التدهور الأخلاقي، واقتراح آليات علاجها.

(٦) الشفافية والمكاشفة عند التعامل مع هذه المشكلات دون مبالغة أو تبسيط.

(٧) العمل قدر الممكن بالمعالجات الست السابقة (السياسية، والاقتصادية، والتشريعية، والتربوية، والدينية، والعلمية).

\* \* \*

الهوامش:

(١) حسن الصفار، الأمن الاجتماعي مسؤولية الدولة والمجتمع، موقع الشيخ حسن الصفار، ١١/٢٠٠٧م، [www.saffar.org/act=artc&id=1271](http://www.saffar.org/act=artc&id=1271).

(٢) د. بنعيسى احسينات، المجال التربوي وأخلاقيات المهنة، صحيفة الصباح، فلسطين، ١٤٢٩/٦/١هـ.

(٣) أشار فخري عبد اللطيف، أثر الأخلاقيات الوظيفية في تقليل فرص الفساد الإداري في الوظائف الحكومية، مجلّة الجندول (مجلة شهرية الكترونية)، السنة الرابعة، العدد ٢٩، يوليو ٢٠٠٦ م.  
www.uluminsania.net

(٤) عبد الرحمن محمد العيسوي، مشكلات الشباب العربي المعاصر، الدار الجامعية، مصر، ١٩٩٢ م، ص ٢٢٠.

(٥) محمد حسين فضل الله، الأخلاق بين النظرية والتطبيق، موقع بيتنا، ٢٧/٦/٢٠٠٦ م،  
www.arabic.bayynat.org.lb

(٦) د. يوسف خليفة اليوسف، ندوة ( دولة الرفاهية الاجتماعية )، مركز دراسات الوحدة العربية والمعهد السويدي، الإسكندرية، ٢٣/٩/٢٠٠٥ م، ص ٢.  
(٧) المرجع السابق: ٦-٧.

(٨) صبري الدمرداش، المناهج حاضراً ومستقبلاً، مكتبة المنار، الكويت، ص ٦٨.  
(٩) د. طلال العتريسي، عولمة القيم والمفاهيم، مجلّة المعرفة، الأحد ٣/١٠/٢٠٠٤ م (بتصرف)،  
www.aljazeera.net/NR/exeres/C1272B70-005B-47FC-A71D-5E6B7B3D4CCC.htm

(١٠) جمال عبد الناصر، ثروة الأخلاقيات في مهبط ثورة المعلومات، موقع إسلام أون لاين،  
١٤/٣/٢٠٠٦ م.

(١١) د. عبد الله السيد عسكر، المجتمع الحديث وموت العيب، موقع حلول للاستشارات النفسية والسلوكية، ٢١/١٠/١٤٢٦ هـ  
www.holol.net/show\_articlemain.cfm?id=45

(١٢) موقع المؤتمر نت، ٣ مليارات دولار ثمن رسائل المراهقين، ٢٠/٨/٢٠٠٦ م.  
http://www.almotamar.net/34016.htm  
www.holol.net/show\_articlemain.cfm?id=45

(١٣) أخرجه أبو داود.  
(١٤) د. زيد بن محمد الرماني، الأمن الاجتماعي، صحيفة الجريدة، مؤسسة الجزيرة للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية، العدد ١٠٣٨٥، ٥ مارس ٢٠٠١ م.  
(١٥) المرجع السابق.

- (١٦) د. عبد الله السيّد عسكر، مرجع سابق.
- (١٧) محمّد محفوظ، المجتمع والأمن الاجتماعيّ، شبكة النّبأ المعلوماتيّة، السبت ١ رجب ١٤٢٩هـ - ٥/٦/٢٠٠٨م (بتصرّف) <http://www.annabaa.org/nbanews/71/025.htm>.
- (١٨) د. محمّد راتب النابلسيّ، التنمية الأخلاقيّة، خطبة جمعة إذاعيّة «٦٥»، دمشق ٢٣/٤/٢٠٠٤م. [www.nabulsi.com/text/01friday/fri61-70/friday65.doc](http://www.nabulsi.com/text/01friday/fri61-70/friday65.doc)
- (١٩) عبد الرحمن محمّد العيسويّ، مرجع سابق، ص ٢٠٧.
- (٢٠) مثال ذلك: ماليزيا وتركيا ودبي.
- (٢١) د. محمّد راتب النابلسيّ، مرجع سابق.
- (٢٢) محمّد محفوظ، الظواهر الاجتماعيّة بين الموعظة والبحث العلميّ، العدد ١٤٢٢٥، الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ - ٥ يونيو ٢٠٠٧م (بتصرّف).
- (٢٣) المرجع السابق.
- (٢٤) دا هي الفضلي، المنظّمات الأهليّة والدور الاجتماعيّ، جمعيّة العون المباشر، لجنة مسلمي أفريقيا، الكويت، يناير ٢٠٠٤م، ص ١٧.
- (٢٥) راجع: البيان السنويّ للشيخ عبد العظيم المهتديّ البحرانيّ، أين الخلل وما هو الخلّ، ١٥ شعبان ١٤٢٩هـ، ص ٦-١٢.

## المسجد الأقصى: قبلة المسلمين الأولى

### دراسة إحصائية وإطلالة تاريخية

#### □ إعداد: قسم الأرشفة

ونحن مع ادّعائنا أنّ الله عزّ وجلّ هو محبوبنا الأوّل والأوحد، لا نشكُّ أبداً في أنّه عزّ وجلّ قد أحبّ عبداً من خلقه، وقد فضّل أماكن وأزماناً على غيرها، وأمّرنا بحبّهم وتكريمهم وتقديسهم، فهو تعالى أحبّ النبيّين والمعصومين والأولياء والملائكة والشهداء والصديقين، وأحبّ شهر رمضان وليلة القدر ويوم الجمعة والكعبة المشرفة والمسجد النبويّ وسائر المساجد المحرّمة، وأحبّ ممّا أحبّ: بيت المقدس ومسجده المباركين.

#### تجزيّة

من لطائف النعم التي أوّدها الله في الإنسان خصلة الحبّ، فقد فطره الله عليها حتّى أضحت جلّ وقائع حياته قائمةً عليها، ومن مزيد لطفه عزّ وجلّ ومنّه وتحنّنه على عبده أن يجعل له علامةً يعرف بها صدق الحب من كذبه، وقد ترجمها الشاعر بيت من الشعر فقال:

لو كان حبك صادقاً لأطعته  
إنّ المحبّ لمن أحب مطيع  
بل صار الإنسان إذا اتّخذ لنفسه  
حبيباً، أحبّ كلّ ما له صلةً بمحبوبه،  
وإن كان بنفسه مبعوضاً له.



ولما كانت مأساة العرب والمسلمين وما أصابهم من الانحطاط والعجز والتخاذل والهوان قد أنستنا شيئاً من قداسة المسجد الأقصى القابع خلف قُضبان الأسر والاحتلال، كان لا بدّ من لمحة تاريخية حول معالم هذا المسجد المظلوم، لعلّ الدم الذي قد جفّ في عروقنا يسيل ويعرق مجدداً، فنسترجع بذلك بعض ما تعبّدنا به ديننا وأورثنا إياه أجدادنا، من إباء الضيّم واستذواق حلاوة الموت على مرارة الذلّ والهوان، وغير ذلك من ركائز هوية المسلم العربيّ الأصيل؛ فترتق فتقنا ونعتصم بحبل الله جميعاً ولا نتفرّق ونحمل راية الإسلام، راية: «هيهات منا الذلّة».

### إطلالة تاريخية على بناء المسجد الأقصى

يعدّ المسجد الأقصى المبارك واحداً من أكثر المعالم الإسلامية قدسيّة عند المسلمين، فهو أولى

القبلتين، وثاني مسجد وُضع في الأرض بعد المسجد الحرام بمكّة، وثالث مسجد داوم المسلمون على زيارته بعد المسجدين: الحرام والنبيّ، وإليه أُسري بالرسول ﷺ، ومنه بدأ معراجه إلى السماء، وفيه أمّ الأنبياء. وهو الذي قال فيه ربّ العزة جلّ وعلا: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

و(الأقصى) اسمٌ لكلّ ما دار حوله السور الواقع في أقصى الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة من مدينة القدس القديمة المسوّرة فوق جبل موريا، أحد الجبال الأربعة التي تقوم عليها القدس، وهي أعلى نقطة في المسجد، وتقع فيه موقع القلب بالنسبة له.

ويمتدّ الأقصى على مساحة شبه مربّعة، تبلغ ١٤٤ ألف مترٍ مربّع، تضم، فضلاً عن الساحات المكشوفة، أكثر من ٢٠٠ مبنى تاريخي، بين

مساجد وقيابٍ وسُبُلٍ وأبوابٍ ومدارس وبوَّاتك ومصاطب وآبارٍ وغيرها.

والظاهر أنَّ نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام هو أوَّل من قام ببنائه حوالي العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وعمَّره أبنائه إسحاق ويعقوب عليهم السلام من بعده، كما جدَّد سليمان عليه السلام بناءه حوالي العام ١٠٠٠ قبل الميلاد.

وفي العهد الإسلامي، باشر الأمويُّون بناء الأقصى بشكله الحالي، فبنوا قبة الصخرة والجامع القبلي، واستغرق هذا كلفة قرابة ٣٠ عاماً من ٦٦هـ (٦٨٥م) إلى ٩٦هـ (٧١٥م)، ثمَّ تولت عمليَّات التعمير والترميم على يد العباسيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين.

وللأقصى عشرة أبواب مفتوحة هي: باب الأسباط، وباب حطة، وباب شرف الأنبياء (فيصل)، وباب الغوانمة (الخليل)، وباب الناظر، وباب الحديد، وباب القطانين، وباب

المتوضَّأ (المطهرة)، وباب السلسلة، وباب المغاربة، كما أنَّ له خمسة أبوابٍ مُغلَّقة.

لقد سكن بيت المقدس منذ عهد بعيد قبائل كثيرة، فاستوطنتها العموريُّون والآراميون والكنعانيُّون، وكان اسمها آنذاك (يبوس)، نسبةً لليبوسيين، وهم بطنٌ من بطون العرب الكنعانيين، ولذلك تُسمَّى فلسطين: أرض كنعان.

ثمَّ أطلق عليها بعد ذلك اسم «يورشاليم»، وتطوَّر بعد ذلك إلى «أورشاليم»، ثمَّ استوطنتها الآشوريُّون والبابليُّون، وجاء بعدهم الفُرس، ثمَّ الإغريق والرومان، الذين أعطوها اسم «إيلياء».

وبقيت في أيدي المسلمين بعد أن فتحوها في عام ١٥هـ، إلى أن احتلَّها الصليبيُّون إثر ضعف الدولة العباسية سنة ٤٩٢هـ، فغيَّروا معالم الجامع القبلي، واتَّخذوا جانباً منه كنيسةً، وجانباً آخر سُكَّنى لفُرسانهم

وَمُسْتَوْدَعًا لِدُخَائِرِهِمْ. وَلَمَّا حَرَّرَ  
صَلاَحُ الدِّينِ الأَيُّوبِيُّ القُدُسَ فِي  
١٩/٤/٥٣٨ هـ - ٤/٧/١١٨٧ م،  
أَمَرَ بِإِعَادَةِ المَسْجِدِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ،  
وَوَضَعَ فِيهِ المَنْبَرَ الَّذِي كَانَ نُورُ الدِّينِ  
مُحَمَّدُ بْنُ زَنْكِيٍّ قَدْ أَمَرَ بِصُنْعِهِ أَثْنَاءَ  
الْإِحْتِلَالِ الصَّلِيبِيِّ.

وَقَدْ بَقِيَ هَذَا المَنْبَرُ عَلَى حَالِهِ، إِلَى  
أَنْ قَامَ الْيَهُودُ بِإِحْرَاقِهِ فِي  
٢١/٨/١٩٦٩ م، عِنْدَمَا أَحْرَقُوا  
الْجَامِعَ القُبْلِيَّ، ضَمَّنَ سِلْسَلَةَ  
اعْتِدَاءَاتٍ لَا زَالَتِ مُسْتَمِرَّةً حَتَّى  
اليَوْمِ، وَشَمِلَتِ الحَفَرِيَّاتِ تَحْتَ  
الْجَامِعِ وَحَوْلَهُ، بِزَعْمِ البَحْثِ عَنِ  
الهَيْكَلِ المَزْعُومِ.

وَبَقِيَ القُدُسُ وَالمَسْجِدُ الأَقْصَى  
فِي أَيْدِي المَسْلَمِينَ إِلَى أَنْ تَوَلَّى المَلِكُ  
الْكَامِلُ مِنَ الأُسْرَةِ الأَيُّوبِيَّةِ، وَعَقَدَ  
اتِّفَاقًا مَعَ الفَرَنْجَةِ، سَلَّمَهُمْ بِمُوجِبِهِ  
القُدُسَ، مَا عَدَا الحَرَمَ الشَّرِيفَ، سَنَةَ  
(٦٢٦ هـ)، وَاسْتَرَدَّهَا صَلاَحُ الدِّينِ  
سَنَةَ ٦٣٧ هـ، ثُمَّ سَلَّمَهَا لِلْفَرَنْجَةِ سَنَةَ  
(٦٤١ هـ) ثُمَّ عَادَتْ إِلَى المَسْلَمِينَ عَامَ

(٦٤٢ هـ) عَلَى يَدِ الْخَوَارِزْمِيَّةِ جَنْدِ  
الْمَلِكِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ.

دَخَلَتِ القُدُسَ فِي حُوزَةِ المَمَالِكِ  
سَنَةَ (٦٥١ هـ) إِلَى (٩٢٢ هـ) حَيْثُ  
دَخَلَتْ تَحْتَ حُكْمِ الأَتْرَاقِ، وَفِي  
أَوَاخِرِ عَهْدِ الأَتْرَاقِ كَثُرَتِ المَهْجَرَةُ  
الْيَهُودِيَّةُ إِلَى فِلَسْطِينَ، وَلَمَّا غَادَرَ  
الْإِنْجِلِيزُ القُدُسَ سَنَةَ ١٩٤٨ م،  
تَرَكَوْهَا لِلْيَهُودِ، وَكَانَتْ مُقَسَّمَةً بَيْنَهُمْ  
وَبَيْنَ المَسْلَمِينَ، وَأَكْثَرُهَا لِلْيَهُودِ، وَفِي  
سَنَةِ ١٩٦٧ م سَقَطَ القِطَاعُ العَرَبِيُّ  
لِلْقُدُسِ فِي يَدِ الْيَهُودِ بِمَا فِيهِ المَسْجِدُ  
الأَقْصَى.

هَذِهِ هِيَ حِكَايَةُ مَكَانٍ مُبَارَكٍ  
أَحَبَّهُ اللهُ تَعَالَى وَقَدَّسَهُ، وَأَحَبَّهُ الأَنْبِيَاءُ  
وَقَدَّسُوهُ، وَفَرَّطَ بِهِ الْعَرَبُ  
وَالْمَسْلَمُونَ، فَسَلَّمُوهُ أَمْرَهُ إِلَى أَعْدَاءِ  
الْأَنْبِيَاءِ وَقَتَلْتَهُمْ.

ذَلِكُمْ المَكَانُ المَطْهَرُ هُوَ المَسْجِدُ  
الأَقْصَى الَّذِي بَارَكَ اللهُ حَوْلَهُ، وَجَعَلَ  
أَرْضَهُ مَهْبَطَ الرِّسَالَاتِ وَمَهْجَرِ  
الرِّسْلِ والأَنْبِيَاءِ، وَمَهْوَى أَفْتَدَةِ  
وَقُلُوبِ الأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ. فَجَعَلَ

الله بيت المقدس والمسجد الأقصى محور تقديس الأنبياء والأولياء في الماضي.. ومحور أحداث الدنيا في الحاضر.. ومحشر جميع مخلوقات الله يوم المحشر.. وإليه تُشدّ الرحال لزيارته تبرّكاً..

### المسجد الأقصى ومكانته في

#### الإسلام

احتلّ بيت المقدس والمسجد الأقصى الشريف منزلة رفيعة في الإسلام، بعد أن تحوّل إلى إرث الأمة الخاتمة.. فالقدس والمسجد الأقصى يسكنان قلب كل من له قلب من المسلمين.

وقد وصف القرآن الكريم أرض بيت المقدس بصفات البركة والطهر والقدسيّة في آيات متعدّدة، منها: قوله تعالى: ﴿يَقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، وقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا

حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وقوله: ﴿وَنَجِّنَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِصَّ إِبْرَاهِيمَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ أَنْعَلِمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

والمسجد الأقصى منبت الأنبياء من إبراهيم الخليل عليه السلام، وفيه صلّى رسول الله ﷺ إماماً بالأنبياء والرسل جميعاً، فدلّ ذلك على أنّه ﷺ الإمام المعظم، وخير خلق الله، وأنّ الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى البشر، أخذت تمامها على يد محمد ﷺ وكمالها على يد أوليائه عليه السلام، وكانت الصلاة في المسجد الأقصى دليلاً أيضاً على أنّ آخر صبغة للمسجد الأقصى هي الصبغة الإسلامية، فالتصق نسب المسجد الأقصى بالأمة الإسلامية التي أمّ رسولها الكريم سائر الأنبياء.. ولا شك أنّ في اقتران الإسراء بالنبي ﷺ إلى السماوات العلى

بالمسجد الأقصى دليلاً باهراً على مدى ما لهذا البيت من مكانةٍ وقُدسيّةٍ عند الله تعالى.

وقد ورد فيه العديد من الأحاديث التي تُبيّن لنا مدى ما له من منزلةٍ وفضلٍ، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنّه قال: «قُلْتُ: يا رسول الله أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام، قال: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: المسجد الأقصى، قُلْتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنةً، ثُمَّ أينما أدركتكَ الصلاة فصلّه، فإنَّ الفضل فيه»<sup>(١)</sup>.

وعنه رضي الله عنه أيضاً أنّه قال: «تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ: أيُّهما أفضل: أمسجد رسول الله أم بيت المقدس؟ فقال رسول الله: صلاةٌ في مسجدي أفضل من أربع صلواتٍ فيه، ولنعم المصلّي هو، وليوشكن أن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعاً»<sup>(٢)</sup>.

وقد رُوي عنه ﷺ أنّه قال: «لا تزال عصابةٌ من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يغرهم من خذلهم، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة»<sup>(٣)</sup>.

فهذه الأحاديث كلّها تدلّ على مكانة هذا المسجد وعمق علاقته بالإسلام، وهناك العديد من الأحاديث الأخرى التي تناولت المسجد الأقصى وحثّت على زيارته والصلاة فيه.

هذه القُدسيّة للمسجد الأقصى والمكانة العقائديّة له عند المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، جعلته مطمناً للغزاة، فبيّت اليهود النوايا للنيل من القدس ومقدّساتها وتنوّعت محاولاتهم في ذلك وتواصلت، واتّخذوا مختلف الإجراءات لطمس معالمها الحضاريّة والإسلاميّة، بهدم بيوتها ومصادرة أراضيها وضمّها إلى الكيان الصهيونيّ، مخالفين بذلك القانون

الدوليّ والمعاهدات والاتّفاقيات الدوليّة، حتى أضحى الاحتلال الإسرائيليّ للقدس وبيت المقدس يمثل أبشع صور الغزو على مرّ التاريخ، حيث دَنَسَ المقدّسات ولم يتوانَ عن انتهاك الحرمات، بمخطّطات ومؤامراتٍ لا تحفى على أحد، لم تكن هي الأولى، كما أنّها لن تكون الأخيرة.

#### انتهاكات الصهاينة للمسجد الأقصى

ونذكر هنا غيضاً من فيض الاعتداءات الصهيونيّة وجماعاتهم الدينيّة المتطرّفة، لكشف مخطّطهم لمن لم يُساعده النظر على اكتشافه بعد، ولفضح ما يدبرونه ضدّ القدس وضدّ المسجد الأقصى وضدّ الإسلام والمسلمين، عسى أن يستبين لكلّ صاحب ضميرٍ حيٍّ أنّ المسجد الأقصى في خطر؛ ما لم ينطبق عليه قول الشاعر:

من يَهْنُ يَسْهَلُ الهوان عليه  
ما جُرِحَ بمَيِّتٍ إيْلامٌ  
في ١٦/٧/٤٨ قَصَفَتِ القوات  
الإسرائيليّة المسجد الأقصى وساحاته  
بخمسين وخمسين قنبلةً، وفي  
٦/٦/٦٧ قامت بقصفه بمدافع  
الهاون. وفي ١١/٦/٦٧ عمدت إلى  
هَدْمِ حارة المغاربة، بكلّ مبانيها  
ومساجدها الأثريّة، لتوسيع ساحة  
البُراق التي يُصَلُّون فيها، كما هَدَمَت  
أيضاً حارة الشرف بكاملها في  
١٨/٤/٦٨، المكوّنة من  
١٠٣٤ منزلاً و٤٢٥ متّجراً و٦  
مساجد وعدد من المدارس، وأقامت  
مكانها حيّاً لليهود. وواصلت  
محاولاتها لإحداث خللٍ ديمغرافيٍّ  
فيها لصالح اليهود، من خلال بناء  
جدار الفصل العنصريّ، لغرض  
عزّها عن المدن والتجمّعات السكانيّة  
الفلسطينيّة، ومنع المصلّين من  
الوصول إلى مسجدها.  
وفي ٢١/٥/١٩٨٠ تمّ إلقاء  
القبض على مجموعةٍ كانت تنوي

نُسف المسجد الأقصى، واكتُشفَ بحوزتها كمّياتٌ كبيرةٌ من المتفجّرات لتنفيذ الجريمة.

وفي عام ١٩٩٤ كَشَفَ وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي عن تخطيط جماعاتٍ يهوديّةٍ متطرّفةٍ لقصف المسجد الأقصى المبارك بطائرةٍ محمّلةٍ بالمتفجّرات، أو ارتكاب مجزرةٍ ضدّ المصلّين فيه.

وفي ١٩٨٢/٤/٨ اكتشف حراس المسجد الأقصى طرّداً مشبوهاً يحتوي على متفجّراتٍ موقوتة. واكتشف حراس المسجد الأقصى كذلك طرّداً مشبوهاً يحتوي على ٣ كيلوغراماتٍ من المتفجّرات في ١٩٨٣/٣/٢.

وفي ١٩٨٢/٧/٢٥ خطّط أحد قادة حركة (كاخ) لنسف المسجد الأقصى.

أمّا المحاولات المسلّحة لاقتحام المسجد الأقصى فمنها:

محاولة مجموعةٍ مسلّحةٍ اقتحام المسجد الأقصى في ١٩٨٢/٣/٢.

وفي ١٩٨٦/١٠/١٧، أفلع طيارٌ من سلاح الجو الإسرائيلي بطائرته المزوّدة بالصواريخ مُستهدفاً المسجد الأقصى، لولا أن أوقفته طائراتٌ من سلاح الجو.

وقد ارتكبت فيه كثير من المجازر، ففي: ١٩٨٢/٤/١١ اقتحم الجندي الإسرائيلي من أصل أمريكي «هاري جولدمان» مسجد قبة الصخرة، وأطلق النار بشكلٍ عشوائيٍّ على المصلّين فيه.

وفي ١٩٩٠/١٠/٨ ارتكبت القوّات الإسرائيليّة مجزرةً فظيعةً في المسجد الأقصى، أسفرت عن استشهاد ٢٣ وجرح ٨٥ أثناء تصدّيهم لمحاولة وضع حجر الأساس للهيكل المزعوم.

وحاولت مجموعة من اليهود في ١٩٨٤/١/٢٦ الدخول إلى المسجد الأقصى، وهم يحملون ثلاث قنابل يدويّة وستّ حقائب من المتفجّرات، في محاولةٍ أخرى لنسف المسجد.

وفي ٢٧/١/١٩٨٤ عُثر على ١٨ قنبلة يدويّة، وعشرة كيلوغراماتٍ من المتفجّرات قُرب السور الشرقيّ للمسجد، كما عُثر على ثلاث قنابل مخبّأة في قطعة قماشٍ عند باب الأسباط في ٣٠/١/١٩٨٤.

وفي ٢٤/٩/١٩٩٦ أمر رئيس الكيان الغاصب آنذاك «بنيامين نتانياهو» بحفر نفقٍ تحت المسجد الأقصى؛ فهبّ أهل فلسطين ومقاوموها في انتفاضةٍ مباركةٍ استُشهد فيها العشرات منهم، وجُرح المئات، ممّا اضطرّ الصهاينة إلى إغلاق النفق المذكور.

وفي تحدٍّ سافرٍ لمشاعر المسلمين وللكبرياء العربيّ النائم، قام المجرم «شارون» بتدنيس المسجد الأقصى في ٢٨/٩/٢٠٠٠؛ فثار الفلسطينيون مجدّداً في انتفاضةٍ شاملةٍ ما زالت مُشتعلةً حتى اليوم، سقط فيها آلاف الشهداء وعشرات الآلاف من الجرحى الذين نذروا أرواحهم

واسترخصوها دفاعاً عن المسجد الأقصى.

ولاحقاً لم تتوقّف الاعتداءات، بل ظلّت متواصلةً في ظلّ صمتٍ رسميٍّ عربيٍّ وإسلاميّ مُطبّق، ففي ١٥/٢/٢٠٠٤ انهار الطريق التاريخيّ المؤدّي إلى باب المغاربة بسبب الحفريات الإسرائيليّة تحت هذا الطريق.

وفي ٢٧/٢/٢٠٠٤ اقتحمت قوات الجيش الإسرائيليّ ساحات المسجد الأقصى بعد صلاة الجمعة، ممّا أدّى إلى سقوط ٦٥ من المصلّين بين قتيلٍ وجريح.

وفي ٤/٧/٢٠٠٤ انبعث من مسجد البراق دخانٌ في ساحات المسجد الأقصى المبارك ناتجٌ عن حريقٍ متعمّدٍ في الأنفاق التي تمّ حفرها تحت المسجد الأقصى، في مؤشّرٍ خطيرٍ على إمكانية استغلال الصهاينة هذه الأنفاق لإدخال المتفجّرات بهدف نسف المسجد



الأقصى أو ارتكاب أية كارثة أخرى ضد المصلين فيه.

وفي تقريرٍ أخيرٍ نَشَرَتْهُ مؤسَّسة الأقصى للوقف والتراث، بعنوان: «مدينة القدس والمسجد الأقصى ٢٠٠٩م إلى أين؟»، أخصتِ المؤسَّسة أهمَّ المحاور والاعتداءات التي تعرَّض لها المسجد الأقصى المبارك ومدينة القدس في العام ٢٠٠٨م من قِبَل سلطات الاحتلال، وأهمَّ التغيرات البارزة في مسلسل اعتداءات الاحتلال على القدس والمسجد الأقصى المبارك.

وجاء في التقرير: أنَّ مدينة القدس ومقدَّساتها الإسلاميَّة والمسيحيَّة بشكلٍ عامٍّ، والمسجد الأقصى بشكلٍ خاصٍّ، تعرَّضت خلال العام المنصرم ٢٠٠٨م إلى هجمةٍ شرسةٍ من قبل مؤسَّسة الاحتلال وأذرعها المختلفة، وطالت يدُ الاحتلال الإنسان والآثار، التاريخ والحضارة، الحاضر والماضي، وحاول الاحتلال فرض وقائع على الأرض تتمثل بتفنيدها

مشاريع السيطرة والتهويد، ووضع المخطَّطات الشاملة والتدرُّج بإخراجها إلى حيِّز التنفيذ، الأمر الذي يشير إلى أنَّ مدينة القدس الشريف والمسجد الأقصى مُقبلان على مستقبلٍ من الاستهداف الخبيث والخطر.

ولَقَّت التقرير إلى أنَّ ظاهرة اقتحام المسجد الأقصى المبارك من قِبَل مجموعاتٍ يهوديَّة قد تصاعدت بشكلٍ ملحوظٍ في النصف الثاني من العام ٢٠٠٨م، مع تنظيم وإقامة شعائر دينيَّة يهوديَّة بارزة داخل المسجد الأقصى، تتضمن قراءة أجزاءٍ من توراتهم المحرَّفة، ومن ضمن الذين أخذوا حظاً في إقامة مثل هذه الشعائر: «يهودا عتصيون»، وهو أحد المتطرِّفين اليهود وأحد المتَّهمين بالتخطيط للقيام بعمليات تفجيرٍ وهدمٍ للمسجد الأقصى المبارك، وذلك بمباركةٍ وحراسةٍ مشدَّدةٍ من قِبَل شرطة الاحتلال، فبينما كانت المجموعات التي تقتحم المسجد

الأقصى لا تتعدّى الأفراد القلائل، أصبحت الظاهرة البارزة هي أنّ الاقتحامات تتم بصورة مئات الأفراد، وهذه المئات تأتي على شكل مجموعاتٍ متتالية، كما أصبح يُشارك فيها - بشكلٍ بارزٍ - عددٌ كبيرٌ من ساسة الاحتلال، ممّا يُشير - لمن يحتاج إلى الإشارة - إلى الدعم الواضح والمشاركة السافرة لمؤسسة الاحتلال الرسمية في مثل هذه الاقتحامات.

وأما بخصوص الحفريات، فقد أكّد التقرير أنّ مؤسسة الاحتلال تُواصل عمليّات الحفر في أقصى ساحة البراق، وهي المنطقة المليئة بالآثار العربيّة والإسلاميّة، لكنّ مؤسسة الاحتلال تتجاهل ذلك، وتقوم بإزالة الأتربة وكثيرٍ من الآثار، وتخطّط في نفس الوقت لبناء مركزٍ سياحيٍّ توراتيّ في الموقع، كما تُواصل حفر نفقٍ جديدٍ ملاصقٍ للجدار الغربيّ للمسجد الأقصى المبارك، ويصل طول هذا النفق إلى ٢٠٠ متر، والهدف منه هو إيجاد الربط بين نفق

البراق وبين أسفل الكنيس اليهوديّ الواقع في منطقة حمام العين. هذا. في حين تُواصل مؤسسة الاحتلال حفريّاتها الواسعة في مدخل حيّ سلوان، وذلك في منطقة وادي حلوة، تمهيداً لبناء مركزٍ تجاريٍّ كبير، وموقف سيّاراتٍ أرضيّ ونفقٍ يصل إلى منطقة ساحة البراق، يهدف إلى ربط ساحة البراق بالبور الاستيطانيّة التي تُحاذيها.

كما تمّ الإعلان عن العثور على نفقٍ طويلٍ في وسط سلوان وادي حلوة، وذلك خلال حفريّات الاحتلال في الموقع، وتنوي مؤسسة الاحتلال ربط هذا النفق بالأنفاق الأخرى ما بين سلوان وساحة البراق وأسفل المسجد الأقصى، كما تتمّ في هذه الأثناء عمليّاتٌ حفريّةٌ واسعة عند مدخل حيّ سلوان، في المنطقة المحاذية للجدار الجنوبيّ للمسجد الأقصى المبارك، وذلك بدعوى الكشف عن مخلفاتٍ للهيكَل أو آثار سليمان. وتحاول هذه الحفريات إيجاد

تاريخٍ عبريّ موهومٍ في القدس بالقرب من المسجد الأقصى المبارك.

وقد قامت مؤسّسة الاحتلال بانتهاك حرمة مقبرة إسلاميّة تاريخيّة تمّ العثور عليها خلال عمليّات الحفر عند مدخل سلوان وادي حلوة، حيث تناثرت العظام والجماجم في مساحاتٍ واسعة، وقد تمّ إخفاء معالم هذه المقبرة، وتمّ كذلك نقل العظام إلى منطقة مجهولة، وواصلت الجهات الصهيونيّة حفريّاتها في المنطقة المذكورة.

وفي الآونة الأخيرة من هذا العام، أعلن العشرات ممن يتسمّون بالمرجعيّات الدينيّة والتلموديّة اليهوديّة عن تأييدهم وتشجيعهم الكامل لأفراد المجتمع الصهيونيّ باقتحام المسجد الأقصى، وإقامة الشعائر الدينيّة فيه، في حين لم يكن يُجيز هذا من قبل إلا القلائل من مثل هذه المرجعيّات، ويرجع الأمر في هذا التغيّر إلى استعجال الخطوات الدافعة

نحو بناء الهيكل المزعوم على حساب المسجد الأقصى المبارك.

وتتعمّد مؤسّسة الاحتلال إدخال عشرات آلاف السياح الأجانب بلباسٍ فاضحٍ وشبه عارٍ إلى المسجد الأقصى المبارك، دون موافقةٍ من جانب دائرة الأوقاف في القدس، في حين تمنع شرطة الاحتلال أيّ شخصٍ، بل حتّى حراس المسجد الأقصى، من اعتراض السياح على لباسهم، أو تصرّفاتهم.

ومع أنّ العالم قد أجمع بقراراتٍ دوليّة على عدم شرعيّة أو قانونيّة ما تقوم به حكومة العدو، إلّا أنّها مع ذلك ماضية في تنفيذ خططها لتهويد المدينة المقدّسة ومواصلة الحفريّات تحت أساسات المسجد الأقصى، بهدف تعريضه للانهار بصورة تلقائيّة، وبالرغم من أنّ علماء الآثار اليهود قد اعترفوا بأنّهم لم يجدوا أثراً لهيكلهم المزعوم، إلّا أنّهم أكّدوا أنّ استمرار الحفريّات إنّما يستهدف بُنيان المسجد الأقصى المبارك.

وقد شرّعت سلطات الاحتلال الإسرائيلي في الآونة الأخيرة بتنفيذ مشروعها التهويديّ لتطويق الجهة الجنوبيّة المحاذية للمسجد الأقصى، ويهدف هذا المشروع إلى جعل سلوان مركزاً سياحياً تهويدياً، ولكي يتسنى لقوات الاحتلال القيام بمخطّطها، عمدت إلى تسمية مشروعها بإقامة البنى التحتيّة، ولكنّ الرسوم والمسمّيات التي تُجانب المشروع، تدلّ بوضوح على مخطّطاتٍ لتهويدٍ كاملٍ لمعالم تلك المنطقة.

وتقوم مؤسّسة الاحتلال الآن بأعمال ترميمٍ كبيرةٍ لأسوار القدس القديمة، ويعلّل بعض المراقبين ذلك بأنّ الهدف هو محاولة زرع آثارٍ يهوديّةٍ في السور، كما حاولت مؤسّسة الاحتلال وضع يدها على جزءٍ من مقبرة الرحمة، والتي تُلاصق الجدار الشرقيّ من المسجد الأقصى المبارك، بُغية تحويل الجزء الواقع أقصى جنوب الشرق إلى متنزهٍ وحديقةٍ وطنيّةٍ صهيونيّة، حيث قامت بوضع التراب

الأحمر على بعض القبور الإسلاميّة، ومنع أيّ شخص من الاقتراب إلى الموقع.

وقد شهدت وتيرة أنشطة الجماعات اليهوديّة ومحاولاتها لوضع يدها على البيوت المقدسيّة في البلدة القديمة بالقدس تصاعداً واضحاً، وذلك بأساليب القرصنة والاحتلال، وهذه المحاولات مع أنّها قد جُوبِحت بشيءٍ من التصديّ، إلّا أنّ هذه الجماعات اليهوديّة تمكّنت من أن تضع يدها على عددٍ من البيوت المقدسيّة؛ وكلّ هذا إنّما يدلّل على أنّ المشروع التوسّعيّ الاستيطانيّ التهويديّ في القدس ما زال يحتلّ سُلّم الأولويّات بالنسبة لكيان الاحتلال، ممّا يشير أنّ القدس ستشهد حالة تصاعدٍ في الاستيطان في شرقيّ القدس في السنوات القادمة.

والذي يظهر لمستقرّي الأحداث الأخيرة - وبخاصّةٍ بعد العدوان الغاشم على غزّة - أنّ مدينة القدس والمسجد الأقصى، سيتعرّضان لمزيدٍ

من حكام العرب والأنظمة الرسمية العربية المتآكلة، يؤكد للعالم أجمع زيف الرهان على حدوث تحول إيجابي في الإدراك الغربي عامة، والأمريكي خاصة، للعلاقة مع العرب والمسلمين، وأن خطاب الرئيس الأمريكي «باراك أوباما» الذي وجهه للمسلمين وألقاه من على منبر جامعة القاهرة، كان مجرد خطاب في العلاقات العامة، وإلا، فهو لا يستطيع الصمود أمام ضغوط اللوبيات اليهودية وجماعات الضغط الصهيونية المتطرفة، فضلاً عن ضغوط المحافظين الجدد.

وجاء ما يحدث الآن للمسجد الأقصى ليفضح كل هذا الزيف، وليؤكد على أن التحالف الغربي - الصهيوني هو الأصل في العلاقات، وأن على العرب فقط أن يتقبلوا جميع ما يُملى عليهم من مطالب وشروط.

إن دعوة جعل «إسرائيل» اللقطة دولة يهودية قد تحولت منذ سنوات إلى سياسة فعلية، تبدأ بالتوسع

من الاعتداءات الخطرة خلال العام الجاري، وكيف لا؟ وقد تعودت سلطات الاحتلال أن تلجأ بعد كل حرب أو عدوان على العرب والمسلمين، إلى صب جام طغيانها وشرها على القدس والأقصى، وهكذا كان استهداف طريق باب المغاربة مطلع عام ٢٠٠٧م، بعد أشهر قليلة من العدوان على لبنان، وليس ذلك إلا لعلمهم بأن القدس والمسجد الأقصى قد باتا هما مصدر القوة والإلهام الوحيد عند المسلمين.

واليوم.. وبعد هذا العدوان الأثم على غزة الذي خلف أهلها يعيشون في العراء، هل تنتظر القدس والمسجد الأقصى هجوماً أرعن على المقدسات الدينية الإسلامية والمسيحية فيهما، وبالخصوص على المسجد الأقصى المبارك؟ لا أحد يدري.

ولكن الذي يعرفه - جيداً - كل واحد منا، أن كل هذا الإرهاب والدمار الذي حدث تحت غطاء دولي أمريكي أوروبي، وعلى مرأى ومسمع

الاستيطاني في القدس والضفة الغربية، ثم الاتجاه نحو تهويد ما يجري التوسع فيه من أرض، وفرض النزوح والهجرة على أبناء فلسطين الذين يقيمون في تلك الأرض، فمسلسل الاقتحامات المتكررة من قبل المتطرفين اليهود بحماية من جيش الاحتلال الصهيوني وقوات الشرطة «الإسرائيلية» يؤشر إلى وجود مشروع يجري تنفيذه على مرحلتين: الأولى: تبدأ بفرض تقسيم الأقصى بين اليهود والمسلمين، والثانية: تفرض التهويد الكامل على الحرم القدسي الشريف، في تزامن كامل مع عملية فرض «القدس الموحدة» و«اليهودية» عاصمة للدولة اليهودية في فلسطين.

وتقسيم الأقصى - أعني: المرحلة الأولى - بدأت عملياته منذ فترة، من خلال سيناريو تكرار الاقتحامات، وهو ذات السيناريو الذي تم استخدامه مع الحرم الإبراهيمي في مدينته - الخليل -، فقد أفضت تلك

الاقتحامات في نهاية الأمر إلى تقسيم الحرم الإبراهيمي بين اليهود والمسلمين الذين لم يعد لهم غير ١٠٪ فقط من هذا الحرم، فيما أضحي الباقي بالكامل تحت السيطرة اليهودية.

إنّ الذروة في تهويد فلسطين ستتمثل في إقامة «المدينة المقدسة» على أنقاض ثرى القدس والأقصى، فيما العرب والمسلمون مشغولون بالحوار مع إدارة أوباما، والانقسام حول مصادر التهديد للأمن القومي، والبحث عن مبررات تسويق تسريع عمليات التطبيع مع الكيان الصهيوني، الأمر الذي يستدعي توجيه نداء عاجل وصرخة صارمة إلى أصحاب الضمائر الحية من الحاضر الإسلامي والعربي لإنقاذ القدس قبل أن تُهَوّد بالكامل، وإنقاذ المسجد الأقصى حتى لا يُهدم.

لقد تعرّض هذا المسجد المبارك، ولا يزال، لاعتداءات كثيرة طالت فيه الإنسان والبنیان بزعم أنّه في

موضع الهيكل المزعوم، وليس هذا بالأمر الجديد على إباء هذا المسجد وتضحياته. إلا أن أعظم خطرٍ يُمكن أن يتهدده هو جهل المسلمين - أو تجاهلهم - بحقيقته، هذا الجهل الذي يُريح الصهاينة ويزيح القلق والخوف عن كاهلهم، وقد لعبت وسائل الإعلام دوراً في الزيادة من هذا الجهل، بقصدٍ منها أو بغير قصد، حتى لقد بات المسلمون اليوم في حيرة من أمر مسجدهم المقدس، بل سرت تلك الحيرة والانحطاط والتدني إلى أفكارهم وإلى عناوين مقالاتهم، حتى صارت بعض المقالات التي يكتبها «مفكرون»!! تُصدّر بتساؤلٍ لا يُلتَمَس منه غير الإحساس الغامر بالذل والهوان، كعنوان: هل سينهدم المسجد الأقصى أو لا؟ وإن لم تُعدّ تستحي فافعل ما شئت!

وأخيراً، وليس آخراً...

لا نظنّ أن أحداً من العرب والمسلمين يجهل أهميّة المسجد

الأقصى المبارك ومكانته وقديسيته، ولا نظنّ أنهم بحاجة إلى أدلةٍ تؤكّد لهم فداحة الأخطار التي تتهدده بسبب الحفريات التي يُجرىها اليهود الصهاينة تحته بقصد هدمه، كما لا نظنّ - أيضاً - بأنه يروق للعرب والمسلمين أن يسمعوأ أخبار انهبأ أركانـ لا سمح الله ـ. ومع ذلك كله، يُصبح من المبرر السؤال التالي، وهو: ما الذي ينتظره العرب والمسلمون كي يهبأ دفاعاً عن المسجد الأقصى المبارك؟!

وفي ظلّ هذا الوضع السوداويّ القاتم، آثرنا أن نعصّ على الجرح، ونطلق صرخة حقّ ونداء صدقٍ - إن كان لا يزال هناك حيّ يسمع -، آثرنا ذلك على القبوع في حالة الفتور العربيّ المشؤوم، وليته يكون لهذا النداء من جدوى بعد إدمان العرب والمسلمين الصمت والسكون، وبعد تعوّدهم على التخاذل والهوان..

ولكن الاستسلام لليأس ليس مبرراً في جميع الأحوال، ولا سيّما أننا

لا زلنا نؤمن إيماناً راسخاً بأمتنا العربية والإسلامية، وبأنها لا تزال أمة حيّة وقادرة على العطاء، فقد استبشرنا خيراً - مثلاً - عندما انتفضت هذه الشعوب لدى تعرض الغربيين لشخص رسولنا الكريم محمد ﷺ بالأذى والإهانة، وثار ثائرتهم عندما قام بابا الفاتيكان بوصف رسولنا الكريم ﷺ بها لا يليق به.

ولن لا يستجيب من العرب والمسلمين، ولن لا يُظهر تفاعلاً مع أحداث القدس والأقصى بإيجابية وفعالية، ولن لا يزال غارقاً في صمته واستكانته، لهؤلاء نقول:

كيف تصمتون هنا، بل كيف لا يندى جبينكم خجلاً بصمتكم القاتل هذا، وأنتم لا تصمتون تجاه أحداثٍ أخرى كثيراً ما تكون أقلّ منها أهمية؟! وكيف لا تُبالون ولا تكثرثون وأنتم تعلمون علم اليقين بأن من لا يهتم بأمور المسلمين فالله

ورسوله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام كله براء منه؟! والإسلام كله براء منه؟! كثيرة هي الأسئلة من هذا القبيل، التي تحتاج إلى إجابة، والتي لا يتسع المقام للإجابة عنها، ولكن مع ذلك،

فربما كان من المفيد ملاحظة أن العجز والصمت والتخاذل التام قد أصبح هو السمة المميّزة للعرب والمسلمين عن غيرهم من الشعوب، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بالصراع العربي - الصهيوني، الذي يسعى البعض جاهدين لجعله تطبيعاً، بل ربّما حباً وتعارفاً ومصيراً واحداً!!

إنّ مسؤولية صمت الأمة وعجزها عن الدفاع عن المسجد الأقصى المبارك إنّما يتحمّلها العلماء والدعاة المسلمين وقادة الحركات الإسلامية الذين يتعاطون مع هذه القضية الخطيرة بسلبية قاتلة، وباستخفافٍ عجيبٍ لا تفسير له وبالأخصّ تجاه القضايا المصيرية للأمة، ولا سيما القضية الفلسطينية.

وفي الختام كلمة حقّ تُقال:



انهض أيها المسلم من غفلتك،  
وقاوم عجزك، وفارق خوفك، وخذ  
بيدك حجراً واضرب به من يكبلك  
ويخدعك ويخدرك ويسلبك إرادتك،  
وتصدّ بكلّ ما تملك لمن أسلمك  
للطواغيت والمستكبرين، واضرب  
بيد من حديد وجه من جعلك فريسةً  
لأعدائك، وحكّم عليك بالفناء  
وأنت ما زلتَ على قيد الحياة.

نعم، انتفض ولا تستسلم للعجز  
ولا تقبل الهوان، فلقد آن الأوان  
ليقوم كلّ واحدٍ منّا بدوره في الدفاع  
عن الإسلام في مواجهة الهجمة  
الصهيونيّة الاستكباريّة الحاقدة على  
الإسلام والمسلمين.

لقد آن الأوان لأمتنا الإسلاميّة أن  
تضع عن نفسها أثقال وأغلال الذلّ  
والخنوع، وأن تحظى بشرف الدفاع

عن الحقّ في وجه الباطل، وعن الخير  
في وجه الشر.. والعاقبة ليست إلّا  
إحدى الحسنيين: إمّا النصر والعزّة  
والرفعة والتقدّم والرقى، وإمّا  
الشهادة.. وكلّه - إن شاء الله تعالى -  
بعين الله.

\*\*\*

#### الهوامش:

- (١) البخاريّ، الإمام أبو عبد الله، صحيح  
البخاريّ ٤: ١١٧، ط دار الفكر للطباعة  
والنشر والتوزيع، مصوّرة عن طبعة دار  
الطباعة العامرة باستانبول، ١٤٠١هـ.  
(٢) انظر: الحاكم النيسابوريّ، المستدرک ٤:  
٥٠٩، بتعليق الذهبيّ، وتحقيق وإشراف  
يوسف عبد الرحمن المرعشي.  
(٣) الهيثميّ، الحافظ نور الدين، مجمع الزوائد  
٧: ٢٨٨، ط دار الكتب العلميّة، بيروت،  
١٤٠٨هـ.

## بيان المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

حول المجازر التي يتعرض لها المسلمون في صعدة

### □ المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام

الدوليّ والحكومات والمجامع  
الدوليّة والعديد من الدول  
الإسلاميّة دور المُشاهد غير  
المكترث للمُشاهد المروّعة التي تهزّ  
الحيّ، فاخترت الجميع الصمت  
حيال ما يجري.

وفي ظلّ هذا الصمت العالميّ،  
قام الجيش اليمنيّ، متذرّعاً بأسبابٍ  
واهية، بكنم صوت المظلومين في  
صدورهم، ورمل أبنائهم بدمائهم،  
واليوم نشهد اتّساع رقعة هذه  
المجازر والهجمات الوحشيّة  
والاعتداء على الأموال والنفوس.  
لقد تعوّدنا هذه الجرائم من

أصدر المجمع العالميّ لأهل  
البيت عليه السلام بياناً حول المجازر  
والاعتداءات الوحشيّة التي  
يتعرّض لها المسلمون الشيعة في  
منطقة صعدة في اليمن. ونصّ هذا  
البيان كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم  
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا  
يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].  
يعتصر الألم قلوبنا ونحن نتابع  
ما يتعرّض له المسلمون في صعدة  
اليمن صغاراً وكباراً، نساءً  
ورجالاً، من مؤامراتٍ ضرّجتهم  
بدمائهم، ولا يتعدّى دور المجتمع

الصهاينة، لكن اليوم لا يأتي هذا الاعتداء الوحشي من قبل الصهاينة، بل من قبل دولة جارة مُسلمة. لقد انخدع هؤلاء بالفتنة الصهيونية - أمريكية، وقاموا بالاعتداء على شعب مسلم مظلوم، وارتكبوا في حقّه مجازر بشعة.

إنّ المجازر التي يتعرّض لها المسلمون اليمنيون، إنّما هي بمخطّط أمريكي صهيوني، ومع شديد الأسف، تقوم بتنفيذه دولة إسلامية، مستخدمةً في ذلك القنابل والصواريخ الأمريكية.

ومع الأسف الشديد، تقع هذه الأحداث المشؤومة والمثيرة للفتنة في الأشهر الحُرّم، وفي الأيام التي يلبي فيها المسلمون نداء الرحمن بأداء فريضة الحجّ، لقد استبدل المنفّذون لهذه الأحداث رضا الله ورسوله ﷺ برضا أمريكا المجرّمة، وأيّ خسرانٍ أكبر من هذا؟! وأيّة حماقة يرتكبها من ينفّذ المخطّط الأمريكي الصهيوني،

ويقتل من خلاله عباد الله بوحشية، ويهدم بيوتهم على رؤوسهم؟! وبينما نرى أنّ الشعوب الإسلامية، والأحرار، وعلماء الإسلام الكبار في أنحاء العالم الإسلامي قد ندّدوا بهذه الجرائم الفظيعة التي تُرتكب في حقّ المسلمين في صعدة، وطالبوا بوقفها على الفور، فإنّ تجاهل الرأي العام الإسلامي، والمضيّ قدماً في تنفيذ العمليات العسكرية الوحشية ضدّ المدنيين العزّل سوف يستتبع عواقب وخيمةً لبعض الدول الإسلامية.

وتقع اليوم على عاتق الأمة الإسلامية وعلمائها والنخب فيها مسؤولية إعلان رفضهم وتنديدهم لهذه الجرائم الوحشية بأسرع وقتٍ ممكن.

وعلى المؤسسات والمنظّمات الدولية والإسلامية أيضاً أن لا تلوذ بالصمت تجاه الجرائم التي يتعرّض لها الشعب اليمني، وأن

يَتَّخِذُوا الوسائل القانونية  
للاعتراض على الاعتداءات  
الوحشية التي يتعرّض لها الشعب  
اليمني قتلاً وتشريداً وتنكيلاً، وأن  
يدافعوا عن المسلمين المظلومين في  
صعدة.

وتقع على الهلال الأحمر  
والصليب الأحمر الدوليّ وسائر  
منظمات الإغاثة الإسلامية  
والدولية مسؤولية تقديم  
المساعدات الإنسانية للمنكوبين في  
صعدة، ومدّ يد العون لهم، ومحاولة  
التخفيف من معاناتهم وآلامهم،  
حيث يتعرّضون لقصف يوميّ  
ومجازر مستمرة.

كما ينبغي على المسلمين  
والأحرار في العالم أن يطالبوا  
منظمة المؤتمر الإسلاميّ، والجامعة  
العربية، ومجلس الأمن، ومنظمة  
الأمم المتحدة بالتدخل السريع  
لإيقاف الهجمات العسكرية،  
وإقرار وقف لإطلاق النار،  
وإيقاف المجازر وجرائم الحرب

التي تُرتكب اليوم في اليمن.  
والمجمع العالمي لأهل  
البيت عليه السلام، انطلاقاً من مسؤوليته  
الإنسانية والدينية، يندد بهذه  
الفجائع والاعتداءات والجرائم  
التي تُرتكب ضد الإنسانية،  
ويطالب بوقف فوريّ لهذه المجازر  
التي تُرتكب ضد المسلمين في  
اليمن، وأن تنسحب القوات  
المعتدية إلى مواقعها.

هذا. ونأمل من الحكومة  
اليمنية أن تقوم بوأد الفتنة، وأن  
تحلّ مشاكلها الداخلية بحكمة  
وحنكة، وأن لا تسمح للقوات  
الأجنبية بتقتيل المزيد من أبناء  
شعبها، ولأسباب واهية، وأن تقوم  
بحلّ المشاكل العالقة من خلال  
استشارة الزعماء الدينيين، والعلماء  
الصالحين، والشخصيات المخلصة،  
والدول الإسلامية الصديقة، ليعود  
السلام والوثام إلى ربوع اليمن.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ  
يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

البيت عليه السلام .

\*\*\*

صدق الله العليّ العظيم.

والسلام على عباد الله الصالحين

المجمع العالمي لأهل

## منوعات

### □ إعداد: هيئة التحرير

رسائل وصلت إلى الإمام عليه السلام من مختلف الأفراد وزعماء الدول.

٢. مجموعة خاصة للأطفال، تتألف من ستة مجلدات تتضمن سيرة الإمام الراحل بشكل مصوّر، وهي بقلم «محمد اجاقى».

٣. كتاب «بهار من» والذي يعني بالعربية (ربيعي)، يتضمن الكتاب مجموعة من الأشعار في وصف الإمام الخميني الراحل، بقلم الشاعر «محمود شاهرخي».

٤. ترجمة كتاب «دليل تحرير الوسيلة» إلى اللغة العربية في ضمن مجلدين، بعنوان «الفقه والخمس»، من إعداد «على أكبر سيفي» مازندرانى.

إصدار ٩ كتب جديدة عن الإمام الخميني الراحل عليه السلام:

أعلنت مؤسسة تنظيم ونشر آثار الامام الخميني الراحل عليه السلام عن إصدارها - قريباً - ٩ مؤلفات وكتب جديدة حول حياة وسيرة هذا الإمام العظيم وآرائه الفقهية. تضم هذه المؤلفات مجموعة من القصص والأشعار للأطفال والناشئين، إضافةً إلى ترجمة بعض مؤلفات الامام عليه السلام من العربية الى الفارسية وبالعكس. ومن أبرز هذه الكتب:

١. «الإمام الخميني والعالم»: الذي تمّ إعداده بجهود مجموعة من الباحثين في مؤسسة تنظيم ونشر آثار الامام الخميني عليه السلام، وهو يتضمن

٢- إمكانية البحث في عناوين الكتب ونصوصها بشكل كامل.

٣ - إمكانية وضع الهوامش من قبل المستخدم.

٤ - إمكانية إلصاق مُلحق من قبل المستخدم.

٥ - إمكانية طباعة الصفحات المختارة أو جميع الكتاب.

٦ - يتمّ نصب البرنامج وعمله بنحو (autorun).

ومن المحتويات الأخرى لهذا البرنامج: «التعرف على المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام من خلال النصّ، والمقطع التصويريّ»، و«فهرست لجميع كتب المجمع بمختلف اللّغات»، و«التعرّف على وكالة أنباء أهل البيت عليه السلام - أبنا -» و«إمكانية الاتّصال بموقع المجمع عبر الانترنت».

ويتمّ الآن الإعداد للإصدار الثاني من هذا البرنامج حيث يحتوي على دورة «أعلام الهداية» و«بعض الكتب العربية الأخرى الصادرة عن

٥. ترجمة كتاب «الاجتهاد والتقليد» إلى اللّغة الفارسية، للمترجم «وهاب دانش زاده».

٦. كتاب «ولاية ومرجعية أهل البيت عليه السلام» من وجهة نظر الإمام الخميني قدس، بقلم «على اصغر رزواني».

\* \* \*

**الإصدار الأوّل لبرنامج المكتبة الالكترونية للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام باللغة العربيّة:**

صدر عن الإدارة العامّة للمعلوماتيّة في المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، بالتعاون مع قسم الشؤون الثقافيّة للمجمع النسخة العربيّة الأولى من برنامج «المكتبة الالكترونية» للمجمع. ووفقاً لما أفاده تقرير وكالة أهل البيت عليه السلام - «أبنا» - : فإنّ هذا الإصدار من البرنامج يحتوي على ما يلي:

١- متن سبعة وعشرين مجلداً من الكتب العربيّة (مجموعة في رحاب أهل البيت عليه السلام).

المجمع» بالإضافة إلى الكتب المتقدمة، ويُتَظَر أن يتمتّع هذا الإصدار الثاني بإمكانيّاتٍ الكترونيّة أكبر.

\* \* \*

**افتتاح مكتبة أهل البيت عليه السلام أمام الطلاب والمحقّقين:**

أعلنت مكتبة أهل البيت عليه السلام التابعة للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام أنّها مستعدّة لاستقبال الباحثين والأساتذة والطلاب الجامعيّين وطلاب الحوزة العلميّة، وقد أصدرت إدارة المكتبة ومعاونيّة الشؤون الثقافيّة للمجمع العالمي لأهل البيت بياناً جاء فيه استعداد المكتبة لأنّ تضمّ في ملاكها جميع الباحثين والأساتذة والطلاب الجامعيّين وطلاب الحوزة العلميّة. كما تضمّن البيان تأكيداً على حقيقة أنّ الكتاب يُعدّ أثمن الإبداعات البشريّة، وهو خزانة لأهمّ الثروات

التي تمتلكها البشريّة، ألا وهو العلم، والبحث العلمي. وختم البيان المذكور بإعلان المكتبة استعدادها لاستقبال كافّة المراجعين الراغبين في عضويّتها ابتداءً من تاريخ ٤ / ١٠ / ٢٠٠٩، وذلك في العنوان التالي: مدينة قم المقدّسة، بلوار جمهوري اسلامي، جنب الفرع ٦، المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، الطابق الثاني.

\* \* \*



## قسمة الاشتراك

الاسم :  
العنوان :  
المدينة :  
البلد :  
المهنة :  
مدة الاشتراك :  
ابتداءً من :  
عدد النسخ :

### رسالة الثقلين

#### مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك  
الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر  
☐ الجمهورية الإسلامية في إيران  
(بالريال) ٦٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠  
☐ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي  
٢٠ ١٠ (أو ما يعادلها)

يرافق اشتراكي: ☐ صك ☐ صك بريدي ☐ حوالة بريدية  
أرسل هذه القسمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:  
الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص. ب ٨٩٤ — ٣٧١٨٥

.....  
الاشتراكات:

☐ داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٦٠٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:  
الجمهورية الإسلامية في إيران — قم — بنك تجارت / شعبة سمية، شارع سمية — رقم الحساب الجاري: ٤٦٢٥٤ — ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام.

☐ خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم — بنك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ — ٢٧٠١ (بالدولار).

### ثمن النسخة:

☐ الجمهورية الإسلامية في إيران ١٥٠٠٠ ريال.  
☐ وفي باقي دول العالم ٥ دولارات أمريكية أو ما يعادلها



The ahl – ul Bayt (a)  
World Assembly

# **RISALATUTH - THAQALAYN**

**A General Islamic Periodical**

**Vol . 16, No . 62, Summer 2009**